د. دنيا فيّاض طعّان

اللبنانيّون في ساحل العاج

١٩٠٠ - ١٩٨٦

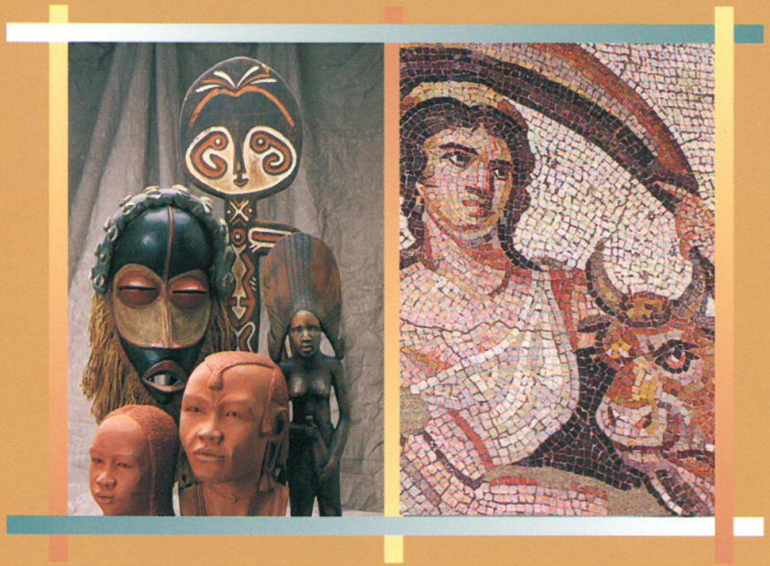

منشورات
جامعة سيّدة اللويزة

NDU PRESS

فيّاض طعّان، دنيا
اللبنانيّون في ساحل العاج، (١٩٠٠ - ١٩٨٦) / دنيا فيّاض طعّان؛ [تحرير، جورج مغامس]. -- ط.١
ص. سم. - (مركز دراسات الانتشار اللبناني، ٤)
"هذا الكتاب مبني على اطروحة دكتوراه في علم الاجتماع البشري ()، نوقشت عام ١٩٨٦ في كلية الآداب والعلوم الانسانيّة في جامعة نيس - فرنسا" -- ص. ١٠.
ببليوغرافيا: ص. ٢٠٧-٢١٢.
ISBN 978-9-953-45762-8 (pbk.).

١- اللبنانيون -- ساحل العاج -- تاريخ. ٢- ساحل العاج -- الهجرة والمهاجرة -- تاريخ. ٣- لبنان -- الهجرة والمهاجرة -- تاريخ. ٤- المهاجرون -- ساحل العاج -- تاريخ.
I. اللبنانيون في ساحل العاج. II. مغامس، جورج، ١٩٤٩-. III. مركز دراسات الانتشار اللبناني.
dc 22 -- 325.25692

اللبنانيون في ساحل العاج
(١٨٩٠ - ١٩٨٦)

تــألـيــــف د. دنيا فيّاض طعّان
تــحــريــــر جورج مغامس
منشـــورات جامعة سيّدة اللويزة © - الحقوق محفوظة
ص.ب.: ٧٢ زوق مكايل - لبنان
تلفون: ٠٩/٢١٨٩٥٠/١
فاكس: ٠٩/٢١٨٧٧١
www.ndu.edu.lb
الطبعة الأولى ٢٠٠٧
القـيـــاس ١٧×٢٤ سم
تـنـفـيـــذ مطابع معوشي وزكريّا
ISBN 978-9953-457-62-8

د. دنيا فيّاض طعّان

اللبنانيّون في ساحل العاج
(١٩٠٠ - ١٩٨٦)

مركز دراسات الانتشار اللبنانيّ
جامعة سيّدة اللويزة - زوق مصبح، لبنان

منشورات جامعة سيّدة اللويزة
NDU PRESS

إهداء

إلى وطني لبنان، المكابد
لأن ترنّق على أفقه
شمس الحريّة والسلام.

إلى كلّ مهاجر يحمل
الوطن تميمةً في تحرّيه
النجاح وتحدّي الرّغام.

إلى "أبيدجان" الباقية في
ذاكرة أولادي مرتعًا لأبهى
سنيّ الطفولة والأحلام.

دنـيـا

شكرًا

للأستاذ علي اسماعيل حلاّق على مساهمته في الترجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة.

وللدكتورين عبدالله الملاّح وعصام حوراني على مراجعتهما للنسخة العربيّة.

دنيا

مقدّمة

الواقع أنّ الهجرة هي ظاهرة عالميّة، وأنّ غالبيّة الشعوب قد اضطرّت للنزوح عن أوطانها في حقبات معيّنة من تاريخها، بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية أو لأسباب أخرى لازمت الإنسان منذ انتظامه في الحياة الجماعية كالرق والإضطهاد السياسي أو البحث عن حياة أفضل يسودها الاستقرار والرخاء. وقد برزت هذه الظاهرة في الآونة الأخيرة كمحرك للديناميّة الاجتماعيّة الحديثة، وكعامل فاعل في مجال العلاقات الدوليّة، بحيث أصبح التواصل بين الشعوب من خلالها هو القاعدة السائدة في هذا العصر. هذا، وتندرج الهجرة ضمن مجموعة معقّدة من العلاقات الإنسانيّة؛ فوجودها يفترض وجود حاجتين: أولاهما تتمثّل في النقص الحاصل في البلد المضيف أكثر، ممّا في ميدان اليد العاملة أو الاختصاصيين، وفي نقطة ضعف ديمغرافيّة في هذا المجال أو ذاك؛ وتتمثّل الثانية منهما في البلد المصدّر للعنصر الإنسانيّ بوجود عوامل، هي بالنتيجة نقيض العوامل الآنفة الذكر، فينشأ عن هذا التداخل تكامل حيويّ بين البلدين يشوبه أحيانًا توتّر في العلاقات مردّه إلى سوء التفاهم أو اختلاف الدوافع. ففي هذا الإطار "يمكن اعتماد الهجرة، بما تطرحه من مشكلات كمقياس اجتماعيّ مهمّ، ولا سيّما على صعيد التعدّديّة الإتنيّة والثقافيّة"[١]

لكنّ هذه الظاهرة لم تشكّل الطابع المميّز لشعب ما، كمثل ما ارتبطت بالشعب اللبنانيّ، الذي ما برح على مرّ العصور، متّسمًا بصفة المهاجر الدائم، كما لو أنّ قدره الحتميّ يدفعه، طوعًا أو قسرًا، للنزوح عن وطنه بموجات هجرة لا تنقطع، قد تكون متّصلة بجذوره الفينيقيّة؛ أو بكونه بلدًا صغيرًا يقع في منطقة جغرافيّة واستراتيجيّة مهمّة ما يجعله عرضةً للمطامع.

ففي كلّ مرّة تنحسر فيها موجة نزوح اللبنانيّين نحو أمصار جديدة، كانت تستجدّ أحداث وتبرز أسباب قاهرة، تغذّي المدّ الاغترابيّ وهاجس النزوح لدى اللبنانيّين. وعوض

١ - على ما ورد في مقدّمة البروفسور جان بواريه لنصّ الكتاب بالفرنسيّة.

أن يجابه هؤلاء الواقع ويتمسّكوا بأرضهم من أجل إنقاذها، كانوا يتذرّعون بالظروف للفرار من هذا الواقع والاستقرار، حيث تبدو فرص العيش أكثر ملاءمة لينصرفوا للنشاطات التجاريّة المجزية!

إنّ لبنان الذي تمزّقه الاضطرابات منذ أعوام طويلة، كان مسرحًا لموجات نزوح كثيفة تبرز أهميّتها بكون عدد المهاجرين اللبنانيّين والمتحدّرين منهم، يساوي أو يفوق عدد المقيمين فيه... وهذا ما يعلّل إنشاء "وزارة الشؤون الخارجيّة والمغتربين" ويبرّر الإلحاح في طلب إنشاء وزارة مستقلّة مهيّأة للاهتمام بالتراث الإنسانيّ اللبنانيّ، المنتشر في شتّى أنحاء العالَم. كما تتكاثر النداءات من أجل الحفاظ على وحدة شطري لبنان (المقيم والمغترب)، وذلك بنوع من التمثيل البرلمانيّ يتمّ عبر السفارات اللبنانيّة في الخارج.

إنّ قضيّة الهجرة كانت وستبقى محطّ أنظار الرواة وموضوع حكايات ملحميّة، كما أنّها موضوع بحوث جدّية؛ فهي ميدان غنيّ وفسيح، مجهول في بعض جوانبه. فالمهاجر الذي يبلغ أقاصي الأرض، يبني أمجادًا ويسطع نجمه حينًا، وتضيع أخباره أحيانًا في مجاهل الأقطار، تاركًا مغامرته تغوص في النسيان، وقد عانى الكثير و بذل أجسم التضحيات. إنّ المدّ الاغترابيّ، وأنا جزء منه، ينتزع من كلّ بيت في لبنان فردًا على الأقلّ. ويؤلمني أن أرى الاهتمام بالمهاجر، ينحصر في تنظيم رحلات في الوطن الأمّ أو في حفلات فولكلوريّة تُقام على شرفه تقديرًا لإسهامه في تنمية الدخل القوميّ. من هذا المنطلق نقدّم بحثنا هذا، المتمحور حول الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج، لعلّنا نستطيع في هذا البلد النائي أن نعوّض قليلاً من حبّ ذوينا ومودّتهم. ولن نألوَ جهدًا في مجابهة مختلف المصاعب والمشكلات ، التي تعترض سبيل تكيّف المهاجر واندماجه في عمليّة التكامل الاقتصاديّ، وهو الذي لا يقنع باستقرار نسبيّ، بل يتوق إلى الاعتراف به كمواطن عاجيّ، بكلّ ما للمواطَنة من معنى.

هذا الكتاب مبنيّ على أطروحة دكتوراه في علم الإجتماع البشريّ (Ethno-sociologie)، نوقشت عام ١٩٨٦ في كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة نيس – فرنسا. وهذا ما يفسّر توقّف البحث في عام ١٩٨٦ . وقد رأينا في نشرها باللغة العربيّة فائدة للدراسات المستقبليّة حول هجرة اللبنانيين إلى أفريقيا عامّةً، وإلى ساحل العاج خاصّةً.

هدفَ البحث إلى أمور ثلاثة:

أ – التحرّي عن الانتماء الجغرافيّ للبنانيين الموجودين في ساحل العاج. هذا الانتماء لا يزال حتى الآن في خانة المجهول، أو على الأقلّ ميدانًا بكرًا.

ب – بحث الوضع الحاليّ للهجرة اللبنانيّة، لتسليط الأضواء على الأوضاع المعيشيّة للمهاجرين الأوائل، الذين اندمجت غالبيّتهم في عمليّة التكامل الاقتصاديّ، ويعيشون بارتياح وانسجام في مجتمع غريب. كما سنسلّط الأضواء على أوضاع الوافدين الجدد الذين يشعر كلّ فرد منهم أنّه يواجه بمفرده حياة اجتماعيّة يجهل ماهيّتها، وظروف عمل يجهل مسالكها. فعليه إذًا أن يكتسب مهاراتٍ مهنيّة جديدة، وأن يسعى إلى تحسين وضعه الماديّ، وبالتالي عليه أن يؤسّس أسرة وأن يعيلها، وأن يؤمّن مستقبلاً أفضل بتحقيق نسب أعلى من الأرباح؛ وإلاّ يفوته القطار، فيغزوه اليأس ويتقوقع، محتملاً شظف العيش في الغربة على أن يخيّب أمل ذويه فيتعرّض لمذلّة العودة إلى قريته صفر اليدين كما نزح عنها.

ج – أمّا الهدف الثالث فهو التوصّل إلى صياغة مقترحات تنصبّ على تنظيم وزيادة الخدمات الاغترابيّة، والتي تضطلع بدورين أساسيّن، دور وقائيّ ودور ماديّ مساعد من أجل مواجهة المشكلات التي تعترض سبيل المهاجرين. يكفي أن يكون الانسان غريبًا كي تحفّ بطريقه المصاعب وليس اقلّها عدم التكيّف الاجتماعيّ والاقتصاديّ.

إستلزمت طبيعة هذه الدراسة منهجيّة، إعتمدت، في جانب منها، على التحليل الكميّ، وفي الجانب الآخر على التحليل النوعيّ، بالإضافة إلى إجراء تحقيق ذي ثلاثة وجوه: وجه كتبيّ، يتيح تتبّع المجرى التاريخيّ للهجرة التي تشكّل إحدى ثوابت التاريخ اللبنانيّ؛ ووجه وثائقيّ يتيح لنا أن نضع أيدينا على جذور التوطّن في ساحل العاج، فنهتدي إلى إيضاح حقيقة الحقبة المدروسة؛ ووجه ثالث تمّ عن طريق الاستمارة، التي اعتمدناها كعامل أساسيّ في سياق الدراسة، والتي تتكشّف منها وضع الهجرة في الحقبة المدروسة، وتتوضّح بها المشكلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، التي أفرزتها حركة الهجرة.

ولقد دفعت بنا ندرة المؤلّفات المهتمّة بشؤون اللبنانيّين في ساحل العاج إلى البحث والتنقيب في دفائن المحفوظات في المؤسّسات التالية، في ساحل العاج[٢]:

- الأرشيف الوطنيّ لساحل العاج، وينقسم إلى قسمين:

١ - الوثائق والميكروفيلم، العائدة للمرحلة السابقة للعام ١٩٢٥، حيث لا ذكر إلاّ للبنانيّين عبر وثائق ضئيلة غير ذات أهميّة، وهي عبارة عن رسائل من مصلحة الجمارك يعود تاريخها للعام ١٩٢٢، تشير إلى كتب وصحف باللغة العربيّة، مرسلة إلى حسين صعب ومحمّد برجي في "غران بسّام".

٢ - محفوظات وزارة الداخليّة، بدءًا من العام ١٩٢٥ حتّى أيّامنا هذه، علمًا بأنّ الوثائق العائدة لِمَا بعد الحرب العالميّة الثانية ليست في متناول القرّاء بعد. ويلاحظ أنّ أخبار اللبنانيّين تكثر في الجريدة الرسميّة وفي الصحافة المهتمّة بشؤون المستعمرَة.

- السفارة اللبنانيّة القائمة منذ الستّينات، تاريخ استقلال ساحل العاج. إنّ المعلومات والمحفوظات الموجودة في هذه السفارة على جانب كبير من الأهميّة، حتّى العام ١٩٧٥، وهو التاريخ الذي تكثّف فيه المدّ الاغترابيّ، نتيجة التسهيلات الممنوحة من قِبَل سلطات ساحل العاج للبنانيّين الهاربين من الحرب الأهليّة، السّاعين إلى إيجاد ملاذ آمن وعمل يعود عليهم وعلى البلد المضيف بالفائدة والكسب الماديّ.

- مركز الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم - فرع أبيدجان. وهي مؤسّسة عالميّة ترعى تراث لبنان الإنسانيّ في العالَم. وتعود أهميّة هذا الفرع إلى كثرة عدد اللبنانيّين في ساحل العاج، وإلى المكانة المرموقة التي يحتلّونها في اقتصاد البلد المضيف. إنّ غاية هذا التحقيق هي تحديد ظروف الهجرة إلى هذا البلد والإحاطة بها. وهي حركة تختلف في أسبابها ونتائجها عن حركة الهجرة إلى أميركا.

إضافة الى الاستمارة التي تضمّنت تسعة وخمسين سؤالاً، يحتمل بعض منها إجابات

٢- منذ عشر سنوات وبسبب الوضع القائم في لبنان، لم يَجرِ أيّ تحقيق يتعلّق بمصادر الهجرة في الوطن الأمّ.

حرّة، فلقد قمنا بإجراء مقابلات، عبر أسئلة حرّة، وُجّهت إلى عدد من الأشخاص، ممّا ساعدنا على تحديد التغييرات الضروريّة لطرح الاستمارة بشكلها النهائيّ. وكوني مراقبة مهاجرة، فذلك ساعدني، ولو في حدود ضيّقة، في مهمّتي هذه. فالمهاجر اللبنانيّ الذي يُظهر الحذر لدى مقابلته محقّقًا غريبًا عنه، قد اطمأنّ إلى مواطنته. لكنّ الصراحة المطلقة لم تتوافر، وظلّ الغموض يكتنف الأوضاع الاقتصاديّة والخاصّة لهذا المغترب.

إنّ غالبيّة الذين أجرينا معهم المقابلات، قد تكلّموا بإسهاب عن الصعوبات التي واجهوها لدى وصولهم، كما تحدّثوا عن فقدان وسائل الرفاهيّة بخاصّة في المناطق الداخليّة، وعن سوء المناخ الذي تسبّب بالوفاة المبكرة للعديد من أقاربهم وأصدقائهم وأبناء بلدهم.

لقد تعذّر علينا أن نسمع أيّ مهاجر يتحدّث عن ماضيه في المرحلة السابقة لوصوله إلى ساحل العاج. حتّى الوافدون من مالي ومن غينيا أو من السنغال... قد امتنعوا عن الإجابة. واستطعنا أن نكشف بواسطة أحد أصدقائهم أو أقاربهم أو جيرانهم عن البلد الذي جاؤوا منه وأسباب مجيئهم. وقد شكا اثنان من المتاعب الصحيّة التي تلازمهما من جرّاء طول الإقامة. وبالنظر إلى الوضع القائم في لبنان في أثناء إجراء البحث، فإنّ الكثيرين لم يروا أيّ أمل في العيش بعيدًا عن البلد المضيف، ولا يرون وجود أيّ ضير في البقاء على أرضه، مع كلّ ما يستتبع هذا البقاء من مخاوف على مستقبل الأولاد، الذين سوف يعانون نقصًا ثقافيًّا فادحًا لدى عودتهم إلى لبنان، كونهم يجهلون اللغة العربيّة. لذلك، لن تتاح لهم فرص العمل لا في القطاع العامّ ولا حتّى في القطاع الخاصّ. وفي ظلّ الأوضاع الراهنة في لبنان، يستحيل على المهاجر أن يعهد بأولاده إلى ذويه أو إلى المدارس الداخليّة. من هنا تبرز الحاجة الملحّة إلى إنشاء مدرسة لبنانيّة ثانويّة في ساحل العاج[٣].

دنيا فيّاض طعّان

٣- في ٥ تشرين الأوّل ١٩٨٤، فتحت أوّل مدرسة عاجيّة - لبنانيّة أبوابها أمام طلاّب المرحلة الابتدائيّة ولكنها لا تفي بالغرض، لأنّ المطلوب تأمين التعليم الثانويّ والجامعيّ أيضًا.

الفصل الأوّل

الأُسس النظريّة للدراسة

أوّلاً: لبنان... الوطنُ الأمّ

١ - توطئة

أن نعطي لمحة موجزة عن تاريخ لبنان، يعني أنّنا سنسرد باقتضاب، حكايات الفرح والأسى التي أسهمت أحيانًا، في بناء هذا البلد الصغير برقعته، الكبير بقيمته الإنسانيّة التي تجذب اهتمام العالم، وفي تدهور أوضاعه أحيانًا أُخرى.

إنّ لبنان الذي كان منذ فجر التاريخ مرفأ السلام وجوهرة المتوسّط، هو اليوم جحيم مُستعِرة تبتلع الإنسان والبنيان. والمؤسف أنّنا نسهم، عن قصد أو غير قصد، في تفتيت وحدتنا الوطنيّة. فإذا كان من اليسير إلقاء التبعة على التدخّلات الخارجيّة التي تستهدف سيادتنا، فالسؤال المطروح هو: ماذا فعلنا نحن للتصدّي لها؟ فالرغبة في الهيمنة والأطماع كانت دائمًا غاية المعتدين الذين يسعون للتدخّل حيث يجدون الفرص مؤاتية، لكنّهم لا ينجحون في تحقيق أهدافهم إلاّ لدى الشعوب التي يسعى أفرادها إلى تحقيق المكاسب الخاصّة، ويفسّرون الوطنيّة على أساس مصالحهم الشخصيّة. في حين أنّ المواطنيّة الحقّة تفرض على المواطن أن يضع نصب عينيه أنّ أُسس الوطن لا تتوطّد إلاّ برغبة صادقة في العيش على أرض واحدة، تحت ظلّ راية واحدة، وحِمى دستور واحد يساوي بين جميع المواطنين.

إنّ الكثيرين من اللبنانيّين يتفهّمون جوهر القضيّة (المشكلة أو المسألة) اللبنانيّة، ويرَون بأُمّ العين موجة الدمار التي تعصف بالوطن. لكنّهم والحالة هذه، لا يحرّكون ساكنًا، بل يستسلمون للقدر، لأنّ نهضة لبنان من كبوته هي أمر محتّم حسب رأيهم، لا بدّ أن تشهدها أجيالنا اللاحقة[١].

١- أوَلَيْس لبنان هو فينيقيا القديمة، البلد الذي اشتقّ اسمه من كلمة (فينيكس)، ومعناها الطائر الأسطوريّ الذي يحترق ثمّ لا يلبث أن ينبعث من رماده.

إنّ الاستسلام أمر غير مقبول على الإطلاق؛ فأين هي أماني الأجداد الذين أرادوا أن يضاهي لبنانُ اليوم وطن الأمس، الذي كانت مدنه العريقة أمثال بيبلوس وصيدون وصور، مفخرة التاريخ القديم.

أ - لمحة جغرافيّة

١ - الموقع

إنّ كلمة لبنان في اللغة الفينيقيّة تعني (الأبيض)، في إشارة إلى قممه التي تكلّلها الثلوج على الدوام، وإلى رائحة البخور التي تفوح من أرزه الدهريّ.

يقع لبنان بين الشرق والغرب على ملتقى الطريق بين آسيا والقارّة الأفريقيّة، بين درجتي العرض ٣٣ و٣٥ شمالَ خطّ الاستواء، ويتّجه بشكله المستطيل من الشمال الشرقيّ إلى الجنوب الغربيّ، ويحدّه من الشمال والشرق سوريا، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسّط، ومن الجنوب فلسطين.

٢ - السطح

تبلغ مساحة لبنان ١٠٤٠٠ كلم٢ (٣٢ مرّة أصغر من ساحل العاج). ويمتدّ بشكل حزام ضيّق بطول ٢٥٠ كلم تقريبًا، وعرض يتراوح بين ٤٠ إلى ٧٠ كلم. وهو ينقسم إلى أربع مناطق جغرافيّة، تتّجه بموازاة البحر: السهل الساحليّ الخصب. المنطقة الجبليّة التي تبلغ أعلى قمّة فيها ٣٠٨٣ مترًا. سهل البقاع وهو امتداد لسهل عكّار في الشمال، وأخيرًا المنطقة الشرقيّة الوعرة والجافّة المناخ.

٣ - الثروة المائيّة

في لبنان ستّة أنهر رئيسيّة: العاصي في شمال البقاع، الليطاني الذي يخترق سهل البقاع والجنوب ويسمّى عند مصبّه نهر القاسمية (١٤٥ كلم)، والحاصباني وهو أحد روافد نهر الأردن...

٤ - المناخ (الخريطة رقم ١)

ينعم لبنان بمناخ صحّيّ منشّط، معتدل على الساحل (٢٧ درجة مئويّة)، وقاريّ في الداخل. أمّا جباله فخلاّبة المناظر على تنوّعها.

٥ - الثروة النباتيّة

النباتات والزراعة اللبنانيّة متوسّطيّة. فالكروم والأشجار المثمرة (تفّاح، درّاق، مشمش، توت...) تنبت على المنحدرات وفي الأودية. أمّا في الأعالي، فتكثر الأدغال والصنوبريّات. وعلى خاصرة الجبال، بين الصنوبر والزيتون، تكثر النباتات والأعشاب. أمّا القمم الشاهقة الجرداء، فلا تزال تحتضن بعض أشجار الأرز.

٦ - السكّان

الشباب هو العنصر الغالب في مجموع السكّان.

إنّ ٥٢,٧٪ من هذا المجموع هم دون سنّ العشرين. يتّصف لبنان بسوء التوزيع الجغرافيّ للسكّان، وبعدم استقرار هؤلاء: إنّ واحدًا من كلّ اثنين من المقيمين الذكور مهيّأ لمغامرة النزوح ولو لمرّة في حياته.

إحصاءات عام ١٩٧٧ (أطلس العالَم الاقتصاديّ والسياسيّ لعام ١٩٧٨) تشير إلى الأرقام التالية:

مجموع السكّان ٢٩٦٠٠٠٠ نسمة، في بيروت العاصمة وحدها ٩٣٨٩٤٠ نسمة؛ فالكثافة السكّانيّة هي ٢٨٥ نسمة في الكلم٢ الواحد.

ولقد عرفت جميع مناطق لبنان حركة نزوح كثيفة باتّجاه بيروت.

(٢٠٪ من مجموع السكّان بين عاميّ ١٩٣٢ و١٩٦٠).

ممّا يفسّر ازدياد عدد سكّان العاصمة من ٢٠٠٠٠ عام ١٩٠٠ إلى أكثر من ٧٠٠٠٠٠ عام ١٩٧٠.

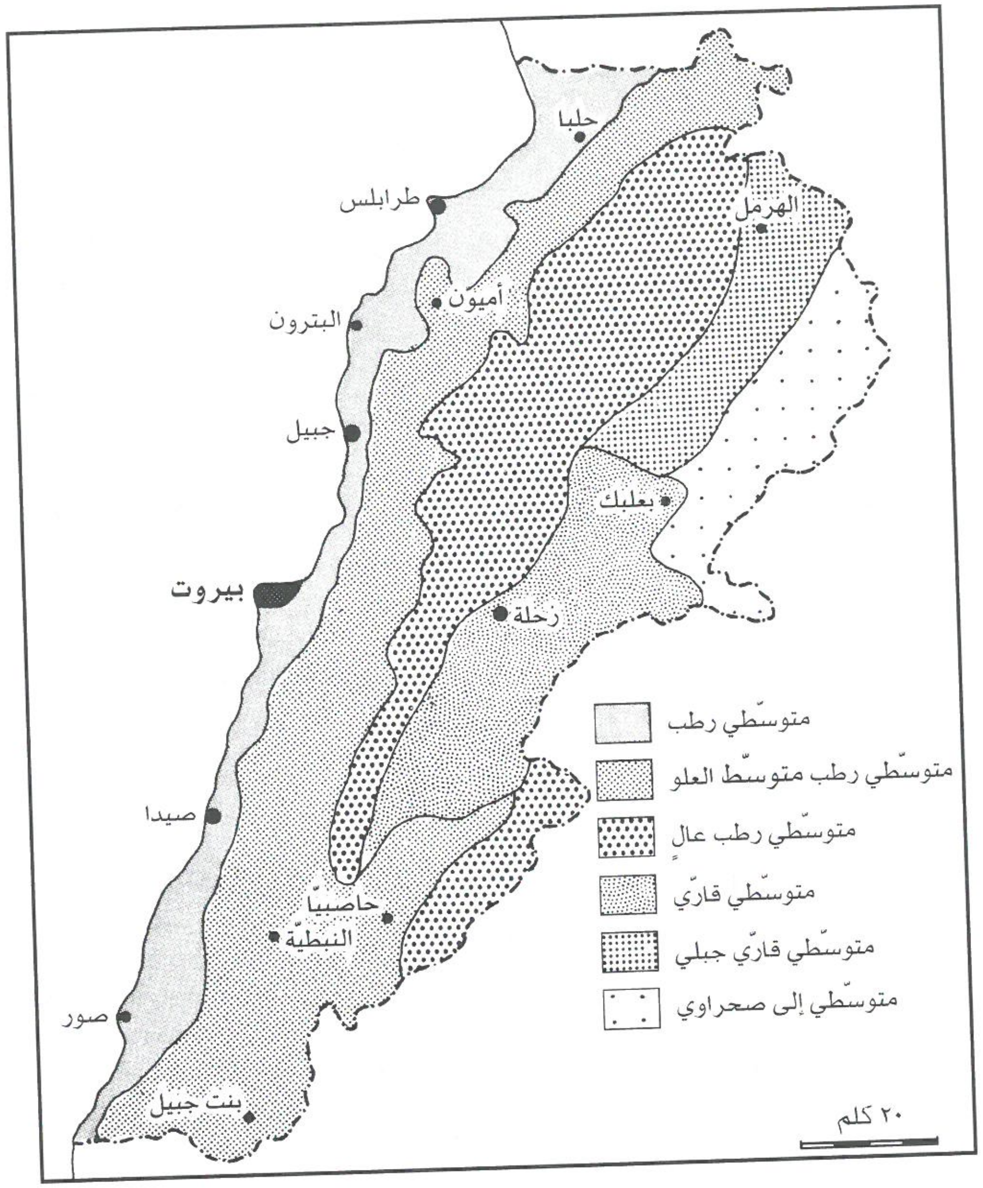

مصوّر رقم ١:
خارطة المناطق المناخيّة في لبنان.

٧ - الديانات والمذاهب

لبنان بلد متعدّد الديانات والمذاهب، فلا بدّ من قيام التوازن بين المسيحيّين والمسلمين. تحقيقًا لهذه الغاية، لم يجرِ أيّ إحصاء منذ العام ١٩٣٢. في أواخر الستّينات، قدّرت نسبة المسيحيّين بـ ٥٣٪ (غالبيّتهم من الموارنة) والمسلمين بـ٤٧٪ (٢١٪ سنة و٢٠٪ شيعة و٦٪ دروز). إلاّ أنّ هذه التقديرات لم تعد اليوم موضع اعتماد، لأنّ السنين الأخيرة حملت تغييرات جذريّة على الصعيد الديمغرافيّ للطوائف.

والدولة اللبنانيّة تضمّ على أرضها سبع عشرة طائفة:

- المسيحيّون: موارنة، روم كاثوليك، روم أرثوذكس، أرمن كاثوليك، أرمن أرثوذكس، سريان كاثوليك، سريان أرثوذكس، كلدان، نسطوريّون، لاتين، بروتستانت.
- المسلمون: سنّة، شيعة، دروز، علويّون، إسماعيليّون.
- اليهود.

٨ - اللغات

العربيّة هي لغة البلاد الرسميّة. إلاّ أنّ اللبنانيّين في غالبيّتهم يتكلّمون الفرنسيّة والإنكليزيّة بشكل عامّ إلى جانب اللغة العربيّة.

٩ - العاصمة والمدن الأُخرى (خريطة رقم ٢)

يقسم لبنان إداريًّا إلى خمس محافظات. بيروت هي عاصمة البلد، وفيها مرفأ ذو أهمّية بالغة على البحر المتوسّط.

تقلّ في لبنان المدن، ويكثر عدد القُرى الكبيرة.

ب - لمحة تاريخيّة

١ - لبنان ما قبل التاريخ

منذ عهد الفينيقيّين، نشر لبنان حضارته في الشرق الأدنى وفي بلدان حوض المتوسّط؛ ولنا في أسطورة "أوروبا" وأخيها "قدموس" خير شاهد على ذلك.

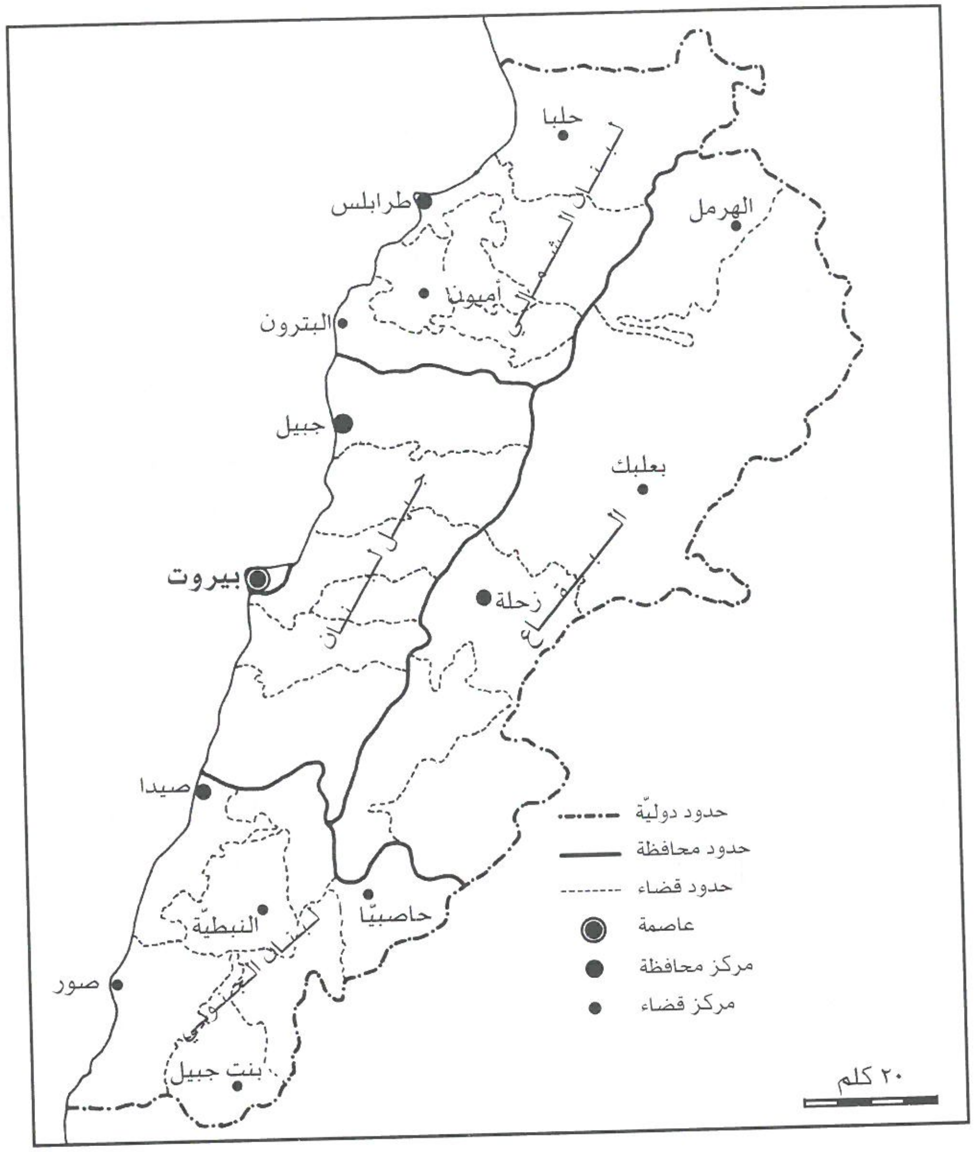

مصوّر رقم ٢:
خارطة التقسيمات الإداريّة في لبنان.

إنّ لبنان بلد الأرز المعمّر و القمم الشامخة، المجلّلة بالثلوج والمطلّة على شطآن رمليّة، سخيّة بشمسها ودفئها. هذا الفردوس الشرق أوسطيّ هو فينيقيا بالذات (الألف الرابع قبل المسيح)، وهو مهد الدول المدينيّة القديمة أمثال بيبلوس وصيدون وصور، مصدِّرة الحرف والصباغ الأرجوانيّ الملكيّ.

والفينيقيّون هم روّاد التجارة على حوض المتوسّط، وقد أسّسوا قرطاجة وقادس وأوتيقيا، فلامسوا أطراف العالَم في تجوالهم. ولدى مرورهم في أفريقيا، أدخلوا إليها الحديد، بالإضافة إلى عدد آخر من المنتجات "عُرِف الحديد في إثيوبيا بين عامي ٢٤٥ - ٢٢ قبل المسيح، في حين أنّ الفينيقيّين أدخلوا هذا المعدن إلى أفريقيا الغربيّة في الألفيّة الأولى قبل المسيح"[٢].

وإذا ما اطّلعنا على ما كتبه كونتينو عن فينيقيا، أدركنا المدى الذي بلغته أطماع المغامرين الفاتحين في هذا البلد الصغير، جوهرة المتوسّط دون منازع.

"تبدو فينيقيا كممرّ ضيّق بين أفريقيا وآسيا، حتّى تخوم لبنان، حيث تمتدّ الصحراء السوريّة التي يتعذّر عبورها. أمّا من الجنوب فتتّصل فينيقيا، عن طريق فلسطين، بسيناء ومصر، وتتّصل من ناحية الشمال بأعالي دجلة والفرات. لم تطق فينيقيا ان تظلّ معزولة وسط خضمّ المنازعات في العالَم القديم. فهي إمّا أن تشارك بها أو تخضع للطامعين. لأنّ امتلاكها ضروريٌّ لبناء إمبراطوريّة واسعة، وذلك لثرواتها وموقعها الاستراتيجيّ. من الواضح أنّ بناء إمبراطوريّة شاسعة يفتح الطريق واسعًا على أفريقيا أو على آسيا، بحيث تشكّل فينيقيا السور المنيع لها ونقطة الانطلاق لفتوحات مستقبليّة"[٣].

لقد ورث لبنان عن فينيقيا حبّ المغامرة والأسفار البحريّة. على أرض لبنان الحاليّ ازدهرت في الألف الثالث قبل المسيح، مرافئ صور وصيدا وجبيل. ومنذ القدم راح هذا البلد يمثّل دور الوسيط بين منطقة ما بين النهرين ومصر وحضارات المتوسّط. وإذ اتّجه صوب التجارة البحريّة، فقد واجه تهديد الممالك الكُبرى وغزواتها التي تعاقبت على الشرق: من مصريّة، آشوريّة، بابليّة، حثيّة، فارسيّة، يونانيّة، مقدونيّة، رومانيّة، بيزنطيّة،

٢- فيفيانا باك "شعوب أفريقيا" ص ١٠.

٣- ميشال شيحا "لبنان اليوم" منشورات تريدان، بيروت، ١٩٤٩.

عربيّة، صليبيّة ومنغوليّة، والتي توّجت بالسيطرة العثمانيّة على أرضنا وهي أطولها مدّة، إذ دامت أربعة قرون من الزمن (١٥١٦ - ١٩١٨).

٢ - لبنان تحت الحكم العثمانيّ

سنة ١٩١٦ ضُمّ لبنان إلى الإمبراطوريّة العثمانيّة. لكنّ الإدارة التركيّة لم تمارس سلطتها الفعليّة إلاّ في المدن الساحليّة، فخضع الجبل في بادئ الأمر لسلطة المعنيّين الدروز (١٥٤٤ - ١٦٩٧)، الذين كان حكمهم مقبولاً من الدروز والموارنة على حدّ سواء، وبلغت هذه السلطة ذروة مجدها بحكم فخر الدين الثاني الذي ثار على السلطان وأعدم في الآستانة عام ١٦٣٥.

توفيّ آخر أمير معنيّ عام ١٦٩٧، و كان بلا وريث، فخلفه الشهابيّون، وحكموا البلاد بين سنتي ١٦٩٨ - ١٨٤١، فنَعِم الجبل فعليًّا بالحكم الذاتيّ. ولدى حصار عكّا سنة ١٧٩٩، لم يكتفِ الأمير بشير الثاني برفض عروض بونابرت المغرية، بل تعاطف مع المصريّين بزعامة محمّد علي باشا. وعندما سيطرت الجيوش المصريّة على سوريا عام ١٨٣٣، رفض صراحةً الإذعان لتسلّط الباب العالي. غير أنّ ابتزاز الإدارة الجديدة لم يلبث أن سبّب نشوب عصيان شعبيّ مسلّح عام ١٨٤٠. فعُزِل بشير الثاني، واضطر خلفه بشير الثالث إلى الفرار بدوره. خضع لبنان في المرحلة اللاّحقة إلى الحكم العثمانيّ المباشر.

ثمّ ما لبثت العلاقات أن توتّرت بين الموارنة والدروز. فسعى الدروز لإعادة بسط سيطرتهم. فعمدت القسطنطينيّة إلى تأجيج الخلاف من أجل توطيد سلطتها على البلد. فانفجر النزاع الدامي بين الطائفتين عام ١٨٦٠. وجرّاء التدخّل الفرنسيّ، أقرّت تركيا "النظام الأساسي" لاتّفاقات ١٨٦١ و١٨٦٤، التي تمنح جبل لبنان حكمًا ذاتيًّا بضمانة القوى العظمى. وتنصّ على تعيين حاكم مسيحيّ غير لبنانيّ من رعايا الدولة العثمانيّة، يعاونه مجلس استشاريّ تتمثّل فيه الطوائف كافّة بصورة عادلة.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عرفت المنطقة الساحليّة نهضة كبيرة على الصعيدين التجاريّ والاقتصاديّ. فبيروت التي كانت قد خبت شُعلتها عام ١٨٥٠، عادت

إلى الحياة وأصبحت، بدءًا من العام ١٩٠٠، أحد أعظم مرافئ الشرق، ومركزًا ذا أهمّية دوليّة، على الصعيدين الفكريّ والتجاريّ.

٣ - الإنتداب الفرنسيّ

احتلّ الحلفاء لبنان عام ١٩١٨، بعد انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة. ولدى انعقاد مؤتمر السلام، سعى لبنان(٤) لكسب الاعتراف باستقلاله. في أيلول ١٩٢٠، أعلن الجنرال غورو ولادة دولة لبنان الكبير، فوُضِع تحت الانتداب الفرنسيّ، الذي أكّدته عصبة الأمم في تمّوز عام ١٩٢٢.

لم يتمتّع لبنان باستقلال حقيقيّ رغم وجود مجلس تمثيليّ (١٩٢٢) وسنّ دستور للبلاد عام ١٩٢٥.

٤ - لبنان الحاليّ

يعاني لبنان اليوم من تفكّك بنيته السياسيّة والاقتصاديّة، على الرغم من ماضيه الزاهر ودوره الحضاريّ الرائد وأمل بنيه في مستقبل مزدهر. فلبنان هو اليوم دولة فتيّة، أو بالحريّ لوحة فسيفسائيّة، متضاربة العناصر الاجتماعيّة، صارخة الألوان الطائفيّة. أمّا (الحلّ اللبنانيّ) الذي تمثّل فيما مضى بالميثاق الوطنيّ(٥) وتراءى كحلّ مثاليّ للعيش المشترك، فيُخشى عليه اليوم، وبالتحديد منذ أن غرق لبنان في دوّامة النزاعات الإقليميّة، من أن يصبح عديم الجدوى.

٥ - الإستقلال

في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣، حصل لبنان على استقلاله من الناحية القانونيّة. ولم يصبح هذا الاستقلال ناجزًا إلاّ عام ١٩٤٦.

منذ هذا التاريخ أصبح لبنان جمهوريّة برلمانيّة متعدّدة الطوائف. كان عليها أن تُقيم

٤- راجع مفكّرة المطران عبدالله خوري، منشورات جامعة سيّدة اللويزة.

٥- هو اتّفاق غير مكتوب يحدّد هويّة الدولة وكيفيّة توزيع السلطات الأساسيّة بين الطوائف، بشكل موقّت إلتماسًا للعدل والوفاق.

التوازن بين المسيحيّين والمسلمين بتطبيق الميثاق الوطنيّ الذي يتبوّأ بموجبه، مارونيّ سدّة رئاسة الجمهوريّة، وسنّيّ رئاسة الوزارة، وشيعيّ رئاسة مجلس النوّاب، وأرثوذكسيّ نيابة رئيس المجلس.

قام لبنان الحديث على أُسس دقيقة من التوازن الديمغرافيّ والدينيّ. وأصبح وهو الملتقى التجاريّ والماليّ لدول الشرق الأدنى، أكثر بلدان المنطقة ليبراليّةً وازدهارًا. لكنّه لم يستطع أن يظلّ بمنأى عن الأزمات التي عصفت بالعالَم العربيّ[6]، فهو جزء من هذا العالَم على الرغم من تميّزه بأمور معيّنة، مثل تعدّد اللغات والطوائف وقابليّته لتقبّل التيّارات الفكريّة الغربيّة.

ولبنان بلد جمهوريّ برلمانيّ، يلحظ دستوره وجود ثلاث سلطات، على رأسها رئيس الجمهوريّة الذي ينتخبه النوّاب لمدّة ستّ سنوات، وهذه السلطات هي:

– السلطة التشريعيّة، وتتمثّل بالبرلمان المكوّن من تسعة وتسعين نائبًا، ينتخبهم الشعب لمدّة أربع سنوات.

– السلطة التنفيذيّة، المتمثّلة بالحكومة، ويرأسها الوزير الأوّل (رئيس الوزارة) المسمّى من قِبَل رئيس الجمهوريّة.

– السلطة القضائيّة.

تعترف الدولة اللبنانيّة بوجود عدد كبير من التنظيمات والأحزاب السياسيّة. كما تضمن حريّة الصحافة (في لبنان حوالى مئة صحيفة ومجلّة).

التعليم في لبنان حرّ، رسميّ وخاصّ؛ وينقسم إلى مراحل ثلاث.

إنّ نسبة التعليم فيه هي أرفع نسبة في البلاد العربيّة؛ ففيه العديد من مؤسّسات التعليم العالي التي تؤمّن تطبيقًا شاملاً للمناهج باللغات الثلاث: العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة.

٦– حرب السويس عام ١٩٥٦. الحرب الإسرائيليّة العربيّة عام ١٩٦٧. بدأ لبنان يعاني انعكاسات هذه الحروب منذ العام ١٩٥٨ ولا يزال يعاني منها، مرورًا بالاعتداءات الإسرائيليّة المتكرّرة على الأرض اللبنانيّة، ومنها قصف مطار بيروت الدوليّ عام ١٩٦٩، والاعتداء على العاصمة بيروت في شباط عام ١٩٧٣، واجتياح الجنوب عام ١٩٧٨، وبيروت وجبل لبنان عام ١٩٨٢، الخ...

ومن الملاحظ أنّ مستوى التعليم في المؤسّسات الخاصّة يتجاوز إلى حدّ بعيد مستوى التعليم في المؤسّسات الرسميّة.

ولبنان عضو في أبرز المنظّمات الدوليّة المتخصّصة: فهو عضو مؤسّس في هيئة الأُمم المتّحدة وفي منظّمة الأونيسكو. وهو من الموقعيّن على بروتوكول الإسكندريّة (٧ تشرين الأوّل ١٩٤٤). كما هو عضو في جامعة الدول العربيّة منذ آذار ١٩٤٥. ويشارك في اجتماعات دول عدم الانحياز منذ مؤتمر باندونغ (١٨ نيسان ١٩٥٥).

ج - المصادر الاقتصاديّة

يرتكز الاقتصاد اللبنانيّ على عائدات التجارة والترانزيت والسياحة.

إنّ ثلثي عائداته مصدرها التجارة وقطاع الخدمات.

غير أنّه يُعاني من سوء توزيع القطاعات المنتجة بين مختلف المناطق. ففي بيروت وضواحيها تتركّز نسبة ٨٥٪ من الأعمال غير الزراعيّة وأكثر من ٩٠٪ من المصانع. وهذا ما يفسّر تخلّف المناطق اللبنانيّة الأُخرى.

١ - الزراعة (خريطة رقم ٣)

ينعم لبنان بمناخ معتدل. ثمّ إنّ خصوبة أرضه ووفرة ينابيعه تؤهّله لأن يكون بلدًا زراعيًّا على جانب كبير من الأهمّيّة.

لكنّ الغريب في الأمر والحالة هذه، هو أن يكون بلدًا إنتاجه الزراعيّ متواضعاً وميزانه الزراعيّ يميل سنويًّا إلى العجز؛ فمع كون القطاع الزراعيّ يستوعب ٥٠٪ من اليد العاملة اللبنانيّة، فإنّ الإنتاج الوطنيّ من الزراعة لا يتعدّى ٢٠٪.

ويعود هذا الخلل إلى أنّ الدولة لا تُولي قطاع الزراعة الأهمّيّة اللازمة.

فعلى سبيل المثال نرى نهر الليطاني، وهو أكثر أنهار المنطقة أهمّيّة، لا يُستثمر زراعيًّا، فلا يعطي بالتالي المردود المتوقَّع منه، إذ إنّ مياهه تصبّ هدرًا في البحر بعد أن تخترق الأراضي الخصبة الشاسعة ولا تروي إلاّ القليل منها.

أمّا زراعات لبنان الأساسيّة فهي:

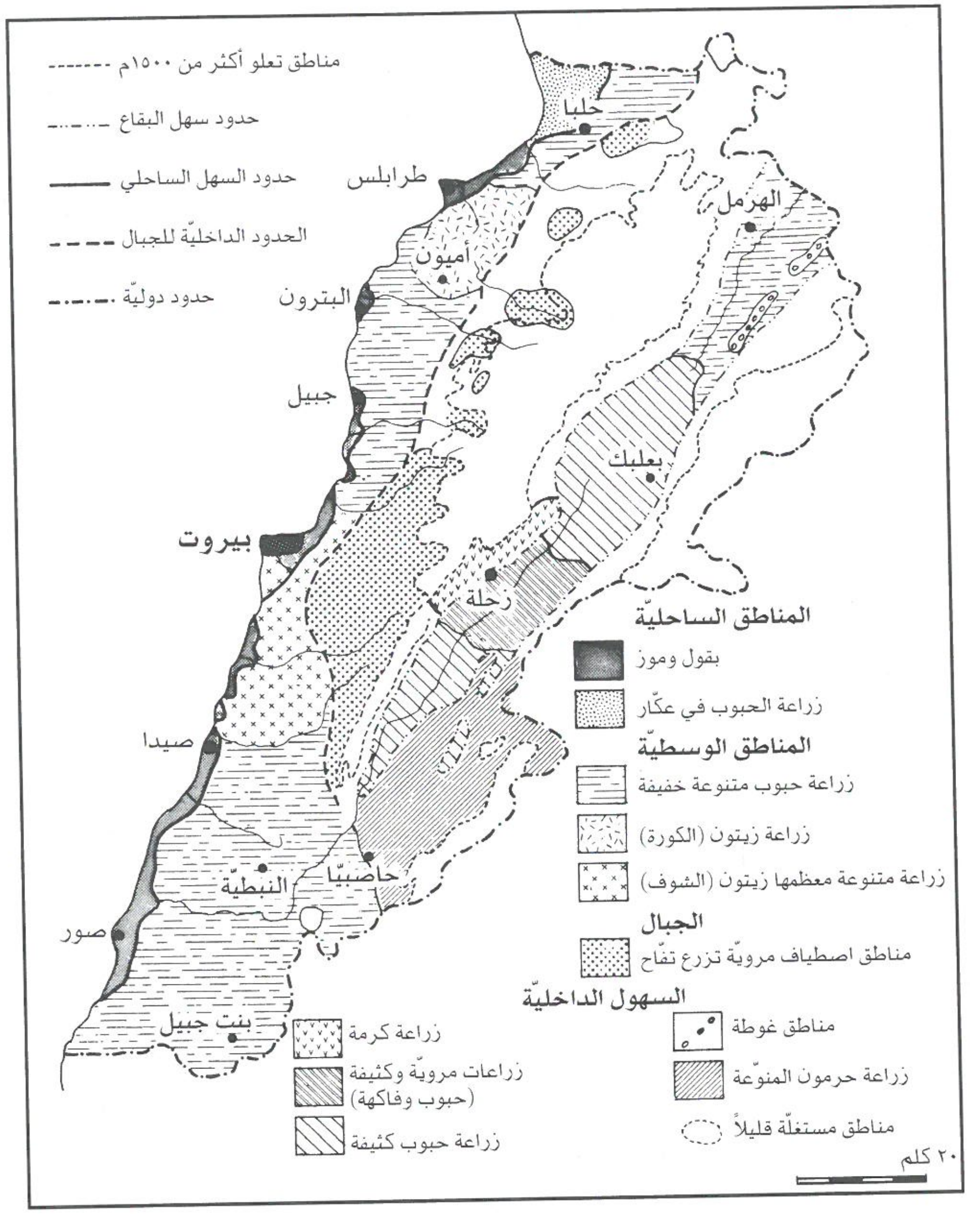

مصوّر رقم ٣:
خارطة المناطق الزراعيّة في لبنان.

- الحمضيّات: مصدرها السهول الساحليّة، وغالبيّتها في الجنوب.
- التبغ: إنّ ثلاثة أرباع المحصول العامّ هو من إنتاج الجنوب.
- الأثمار: مصدرها جبل لبنان وسهل البقاع.
- الحبوب، الشمندر الصناعيّ والخضار، تزرع أساسًا في سهل البقاع الذي يكوّن مركز الثقل في الإنتاج، لخصبه واتّساعه.

٢ - الصناعة

ليس في لبنان مناجم على الإطلاق، فباطن أرضه فقير، لا يوجد فيه سوى كميّات ضئيلة جدًّا من الفحم الحجريّ والليتييت (الخشب المتفحّم) والنضيد.

وقد اعتمد لبنان، في قسم من صناعاته على الموادّ الأوّليّة، وعلى النفط الذي يصبّ في مدينة طرابلس آتيًا من كركوك في العراق، والتابلاين الذي يصبّ في الزهراني قرب صيدا، حاملاً النفط السعوديّ، الذي خفّضت أحداث ١٩٧٥ نسبة ضخّه إلى النصف. في غضون ذلك، تنشط بعض المشاريع الصناعيّة الكُبرى، في قطاع إنتاج أو تصنيع موادّ البناء، كالإسمنت، والحديد والألومينيوم والزجاج... وعلى العموم فإنّ الصناعة اللبنانيّة، الفتيّة والقليلة التنوّع، تلاقي الآن صعوبات وعوائق جمّة، نتيجة هروب الرساميل وهجرة اليد العاملة.

تتركّز الصناعات في الأماكن التالية: صناعة الشمندر في مصنعين من المنطقة الوسطى باتّجاه البقاع. صناعة الألومينيوم والزجاج والنجارة والبلاستيك والجلد تتركّز في مجمّعات صناعيّة في ضاحية العاصمة (المكلّس والدورة). صناعة الصابون التقليديّة منتشرة في أنحاء البلاد، وبشكل خاصّ في طرابلس وصيدا وفي المنطقة الجبليّة. أمّا صناعة المشروبات من خمور وعرق فتزدهر في منطقة زحلة (البقاع).

٣ - التجارة

إنّ اقتصاد لبنان يرتكز في الثلثين منه على قطاع الخدمات. ويتوازن ميزان المدفوعات فيه بفضل عائدات التجارة والخدمات، والنقل والترانزيت والرساميل المتحرّكة، المعادة

إلى لبنان أو المستضافة (حريّة التنقّل)، ومصارفات اللاجئين (التي تسهم في تغذيتها بلدان عدّة). وعلاوة على ذلك، فإنّ لبنان يتقاضى جرّاء مرور أنابيب النفط العراقيّة والسعوديّة في أراضيه، رسومًا معيّنة تضاف إلى عائداته من المصافي في طرابلس والزهراني، حيث يمرّ ما يقارب ٧٪ من كميّة النفط في المنطقة. إنّ النقد الوطنيّ مغطّى مئة بالمئة[٧]. والخزينة تجد الدعم اللازم لها في عائدات الجمارك المرتفعة. على أنّ عائدات التجارة والخدمات السالفة الذكر تشكّل الجزء الأكبر من الدخل القوميّ الإجماليّ (٥٥,٣٪ عام ١٩٧٣). واقتصادنا المرتبط إلى حدّ بعيد بالعوامل الخارجيّة، يتأثّر مباشرة بحركة التضخّم العالميّ.

يبقى أنّ الأماكن الأثريّة والسياحيّة التي تظهر عظمة الحضارات التي توالت على هذه الأرض، هي مصدر أساسيّ من مصادر الدخل القوميّ، لكنّها معرّضة للاندثار نتيجة الدمار الذي تنعكس آثاره وبشكل مباشر على هذا القطاع.

٤ - شرخ اجتماعيّ واقتصاد على حافّة الهاوية

في معرض الحديث عن الاقتصاد اللبنانيّ، لا بدّ لنا من التذكير بتقرير "لجنة إيرفد" الذي وضعته إثر زيارة مبعوثيها للبنان عام ١٩٦٠، والذي جاء فيه أنّه "إذا ما استمرّت الهوّة بين الطبقات الاجتماعيّة في الاتّساع، فإنّ لبنان سائر لا محالة نحو ثورة الطبقات المحرومة"[٨].

وقد لحظ هذا التقرير التفاوت الكبير الحاصل بين مختلف الطبقات، حيث مستوى المعيشة يلامس طرفي النقيض، ويتراوح بين الثراء الفاحش والفقر المدقع. وهو يحذّر السلطات من مغبّة انقسام المجتمع إلى مجموعات متناحرة؛ " فلو استمرّ الوضع القائم على ما هو عليه ولم ينعم لبنان بأيّ إصلاح فكريّ وأخلاقيّ، فإنّه يسير نحو ثورة يغرق معها في المجهول وتجعله رهينة لدى جيرانه"[٩].

إنّ الجزء المعلن من هذا التقرير ركّز على خطأ شائع أصبح بلدنا أسيره اليوم، إذ قال

٧- بعد حرب عام ١٩٧٥، تغيّرت هذه المعطيات تغيّرًا جذريًّا.
٨- بيير فالّو "لبنان على فوهة البندقيّة" ص ٢٧.
٩- بيير فالّو المرجع السابق ص ٢٨.

بعض المحلّلين المضلّلين إنّ لبنان مرتهن لهذا الوضع، واقتصاده غير قابل للاستمرار إلاّ بهذه الصورة وهو غير قابل للتحليل وفق المعايير العلميّة، فيجب أن نقنع بالنتائج وأن ننظر إلى هذا الاقتصاد على أنّه مسألة مفروضة، وأنّه يعيش بفضل مقولة "المعجزة اللبنانيّة".

هذا الأسلوب الخاطئ في فهم الوضع الاقتصاديّ المترديّ دام خمس عشرة سنة، قبل أن يتحقّق تحذير (لجنة إيرفد) مع اندلاع أحداث عام ١٩٧٥، حيث انفجر الصراع السياسيّ - العسكريّ بين معسكر النظام اللبنانيّ وحلفائه من أهل اليمين، والمقاومة الفلسطينيّة وحلفائها من معسكر اليسار[١٠].

إنّ جذور ما يسمّى بـ "المعجزة اللبنانيّة"، تعود إلى القرن التاسع عشر. وقد تعمّقت هذه الجذور مع بدء عهد الاستقلال، حيث بقي الشرخ الاجتماعيّ يتوسّع في بلد أصبحت تسمية "سويسرا الشرق" ملازمة له. في ظلّ هذه الأوضاع تكاثرت المصارف وأصبح عددها ثلاثة وعشرين عام ١٩٥٠، ثمّ مئة مصرف عام ١٩٧٠، ومئة وثلاثين في الوقت الحاضر.

من المؤكّد أنّ لبنان أفاد من الظروف الخارجيّة على الصعيد الماليّ: منها وجود العديد من الأثرياء بين اللاجئين الفلسطينيّين الذين دخلوا لبنان عام ١٩٤٨، وإغلاق ميناء حيفا، وتدفّق الرساميل من مصر بين عامي (١٩٥٢ - ١٩٥٦)، ومن سوريا عام ١٩٦٣.

كما أفاد بصورة خاصّة من اكتشاف واستخراج البترول في بلدان الخليج العربيّ حيث لم يكن هنالك بنية نقديّة واقتصاديّة تدير بجدارة دورة النقد الناتج عن تسويق البترول. إلاّ أنّه من خلال الظروف المؤاتية لاقتصاد البلد، برزت نتائج اجتماعيّة سلبيّة، ذلك أنّ البورجوازيّة التي تستمدّ قوّتها الماليّة من دور الوساطة بين المنطقة والغرب، لم تولِ مشكلة التنمية الداخليّة أيّ اهتمام، ولم تسعَ لإيجاد أسس سليمة للاقتصاد الوطنيّ اللبنانيّ.

لكنّ أحدًا لا يستطيع إنكار دور هذه الفئة التي وفّرت للعاصمة، من خلال هاجس الإثراء، جهازًا متخصّصًا، مؤهّلاً للقيام بعمليّات تبادل نقديّة، ذات مستوى دوليّ.

هذا الرأسمال التقنيّ النادر على صعيد المنطقة العربيّة، يتوقّف بقاؤه على حركة

١٠- هذا الوضع كان قبل انتظام غالبيّة الشيعة في حركة أمل التي أسّسها الإمام الصدر عام ١٩٧٤، انطلاقًا من حركة المحرومين.

الظروف الخارجيّة، ولا يستنفد سوى جزء يسير من الطاقات اللبنانيّة. لذا، فإنّه قد تراجع الآن بفعل الأوضاع العالميّة وبفعل الحرب اللبنانيّة الطاحنة.

ممّا تقدّم يمكننا دحض النظريّة القائلة بأنّ تفتّت لبنان تمّ لأسبابٍ طائفيّة.

الواقع أنّ المجابهات الطائفيّة والسياسيّة تنضوي أساسًا تحت سطح التناقض الاجتماعيّ الذي تستغلّه القوى العظمى وعملاؤها من أجل شرذمة المنطقة وتقسيمها إلى دويلات طائفيّة متناحرة. وقد بات جليًّا أنّ السلام في لبنان لن يتوطّد ولن يكتب له الاستمرار إلاّ في إطار تسوية شاملة لمشكلة الشرق الأوسط، تسير بمحاذاة تعديل الميثاق الوطنيّ لعام ١٩٤٣، وإعادة النظر في الأُسس الاقتصاديّة والاجتماعيّة الراهنة. فبعد عشر سنوات من الحرب في لبنان، يجب إعادة النظر في كلّ شيء، مع الأخذ في الاعتبار أسباب الركود الاقتصاديّ وتدنّي قيمة الليرة اللبنانيّة، التي تساوي اليوم ١٣٪ من قيمتها عام ١٩٧٤، وذلك بعد أن بقيت لمدّة طويلة بمنأى عن الأحداث، محافِظةً على قيمتها النقديّة.

منذ العام ١٩٨٤، تبدّل كلّ شيء في لبنان الذي نُكب في اقتصاده ولم يجد مفرًّا من الاستنجاد بصندوق النقد الدوليّ لتعويمه.

إنّ بيروت التي كانت إلى وقت قريب العاصمة الماليّة للشرق الأوسط، فقدت مُكرهة مكانتها التي احتلّتها عواصم عربيّة أُخرى[١١].

ومن الأسباب الرئيسيّة لتدهور الوضع الحاليّ في لبنان:

- الاجتياح الإسرائيليّ الذي أتلف الزراعة في جنوب لبنان وسدّ منافذ تصدير المنتوجات الزراعيّة، بخاصّة الحمضيّات إلى البلدان العربيّة.

- إخراج منظّمة التحرير الفلسطينيّة من لبنان، التي كانت تنفق حوالى عشرة ملايين دولار كمصارفات شهريّة، والتي قد تعوّض من مصادر أُخرى فيما لو استتبّ السلام في لبنان.

١١- ريمون باكارد "الاقتصاد في طريق الضياع، مقالة في جريدة صباح الأخوّة في ساحل العاج ص ٣٠.

- إنخفاض العائدات الجمركيّة بنسبة ٦٠٪ عام ١٩٨٤، لمصلحة الموانئ الخاصّة التي تستثمرها الميليشيات الحزبيّة.

- فرار عدد كبير من اللبنانيّين مع رساميلهم هربًا من جحيم الحرب، وأملاً في توظيفات مجدية وأكثر أمانًا في الخارج.

"ففي كلّ أزمة، كان البعض يفرّون باتّجاه قبرص إنْ قَصُرَت مدّة الأزمة، وباتّجاه أوروبا إذا كانت طويلة الأمد. خلال تسع سنوات من الكرّ والفرّ، تناقصت إلى حدّ بعيد أموال اللبنانيّين متوسِّطي الحال وتضاءلت قدرتهم على الصمود. وفي شتاء عام ١٩٨٤، تلاشى ما تبقّى لديهم من آمال"[١٢].

- وإذا كانت هِبات المهاجرين إلى ذويهم لم تتناقص، فإنّهم قد أوقفوا توظيف أموالهم، ولم تبلغ قيمة الأموال التي أرسلوها إلى لبنان في نهاية عام ١٩٨٤، سوى خمسة وعشرين مليون دولارًا، في حين أنّها بلغت عام ١٩٨٢ مئة وثلاثين مليونًا[١٣].

- خروج رساميل الخليج العربيّ من المصارف اللبنانيّة نحو مصارف بلدان أكثر أمانًا.

إنّ الاقتصاد اللبنانيّ يتّجه نحو الضياع وهو يتخبّط في أزمة، تغذّيها حرب طويلة شرسة. فالديون المترتّبة على الخزينة تفوق الناتج الوطنيّ الصافي والميزانيّة تعاني من العجز الدائم (أكثر من عشرة مليارات ليرة لبنانيّة).

١٢- وكالة الصحافة الفرنسيّة.

١٣- ريمون باكار المرجع السابق ص ٣٠.

ثانيًا: ساحل العاج

٢ - التعريف بالبلد المضيف: ساحل العاج

أ - لمحة جغرافيّة

١ - الموقع

يقع ساحل العاج في منتصف الطريق بين أوروبا وأفريقيا الجنوبيّة، ويشكّل نقطة وصل بين البحر والمناطق الداخليّة. شكله مربّع الزوايا، يقع بين الدرجتين الخامسة والحادية عشرة من خطوط العرض شمالَ خطّ الاستواء، والدرجتين الثالثة والتاسعة من خطوط الطول شرقَ غرينتش. وتبلغ مساحته ٣٢٢٤٦٣ كلم٢. يحدّه من الغرب ليبريا وغينيا، ومن الشمال مالي وفولتا العليا، ومن الشرق غانا ومن الجنوب خليج غينيا (ساحل بطول ٥٠٠ كلم على المحيط الأطلسيّ). وليس له حدود طبيعيّة إلاّ مع ليبريا (نهر كافالّي).

٢ - السطح

يتكوّن ساحل العاج من سطح متّسق، قليل التفاوت في تضاريسه ونتوءاته، التي تزداد ارتفاعًا من الجنوب الشرقي باتّجاه الشمال الغربي في منطقة مان وأودينيّه، بالقرب من الحدود مع غينيا حيث يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠م (مرتفعات تونكوي).

أمّا في الشرق والجنوب الغربيّ فتكثر سلاسل الجبال الصغيرة، حيث يبلغ ارتفاع جبل نمبا - وهو أعلى مرتفع بينها - ١٧٥٣م، على الحدود العاجيّة - الليبريّة. ثمّ تبدأ بالانحدار جنوبًا، باتّجاه السهل الساحليّ المنخفض الكثير المستنقعات، والذي تحدّه بعض البحيرات، لتشكّل فاصلاً بينه وبين البحر.

٣ - الأنهار

في ساحل العاج أربعة أنهار كبيرة، وعدد من الأنهر الساحليّة التي تخترق البلاد عمومًا. كلّها تصبّ في المحيط الأطلسيّ. وأهمّها من الغرب إلى الشرق:

- نهر كافالّي (٧٠٠ كلم) الذي ينبع من غينيا شمالَ جبل نمبا.

- نهر ساساندرا (٦٥٠ كلم) وينبع هو الآخر من غينيا في منطقة بيلا، ويصبّ فيه رافدان كبيران.

- نهر بانداما (٩٥٠ كلم) الذي ينبع بالقرب من بونديالي، ويصبّ فيه رافدان كبيران.

- نهر كومويه (٩٠٠ كلم) وينبع من فولتا العليا في منطقة بانفورا.

هذه الأنهر قلّما تصلح للملاحة، بسبب التيّارات السريعة ومساقط المياه، وإنّما هي تستخدم لتعويم الخشب ودفعه باتّجاه ساحل البحر.

٤ - المناخ (خريطة رقم ٤)

يتمتّع ساحل العاج بحكم موقعه الجغرافيّ، بين الدرجتين الخامسة والحادية عشرة من خطوط العرض شمالاً، بمناخ يتميّز بالخصائص التالية:

- درجات الحرارة فيه متقاربة، يتراوح معدّلها السنويّ بين ٢٦ و٢٧ درجة مئويّة.

- نسبة الرطوبة تتعدّى الـ٧٠٪.

- سقوط كميّة كبيرة من الأمطار، تتناقص من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق. والأمطار هي معيار تمايز بين مختلف المناطق.

وعلى هذا الأساس، فإنّ أبرز المناطق المناخيّة هي:

أ - المناخ شبه الاستوائيّ (المسمّى attiéen)، السائد في الجنوب على طول المنطقة الساحليّة وهو شديد الرطوبة؛ درجات الحرارة فيه مرتفعة وثابتة (من ٢٦ إلى ٢٨ درجة مئويّة).

وتنقسم دورة هذا المناخ إلى أربع مراحل: المرحلة الأولى، وهي موسم الأمطار الغزيرة، ترافقها الأعاصير وتمتدّ من نيسان إلى آب؛ المرحلة الثانية، وهي موسم الأمطار الممتدّ من أيلول إلى تشرين الثاني؛ المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الجفاف الطويلة، من نهاية تشرين الثاني حتّى نيسان؛ وأخيرًا مدّة الجفاف القصيرة في شهر آب.

من الملاحظ أنّ نسبة الرطوبة تظلّ مرتفعة حتّى في وقت الجفاف.

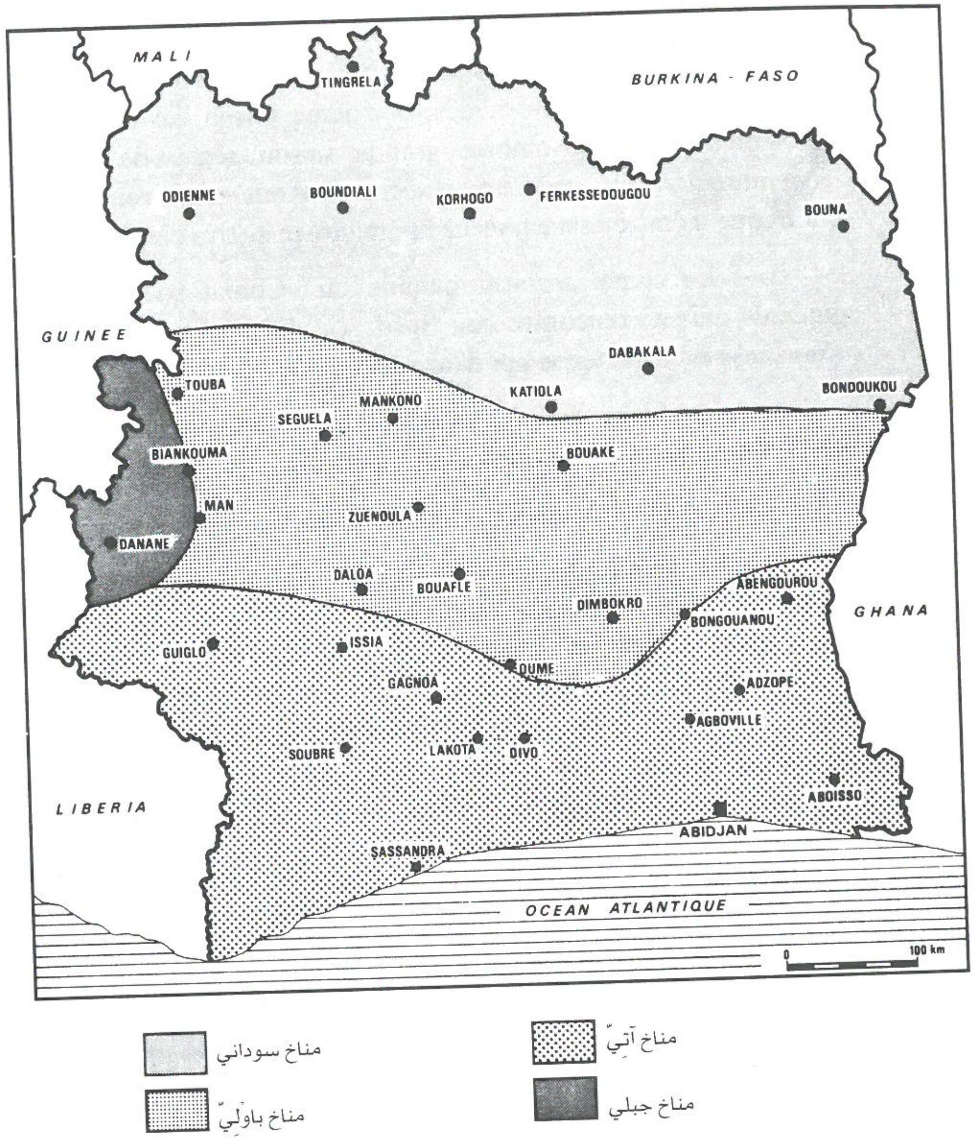

مصوّر رقم ٤:
ساحل العاج: خارطة المناطق المناخيّة.

ب - المناخ الاستوائيّ الرطب أو المناخ (السودانيّ - الغينيّ Guineen) السائد في الشمال، ويشمل فصلين مختلفين:

- فصل جافّ، من خمسة إلى ستّة أشهر، تهبّ فيه الحَرَور، وهي ريح قاريّة، حارّة وجافّة.

- فصل الأمطار، ويمتدّ من ستّة إلى سبعة أشهر.

ج - المناخ الداخليّ (baoulé)، السائد في الرقعة الممتدّة بين منطقتي المناخ الاستوائيّ وشبه الاستوائيّ، وتتميّز بمناخ أشدّ قسوة وبارتفاع كبير في درجات الحرارة، خاصّة في فصل الجفاف وموسم الأمطار الغزيرة، تنعكس آثاره - بما فيها آثار الريح القاريّة الجافّة - أضرارًا ظاهرة على مناطق الوسط.

٥ - الزراعات

إنّ وجود ثلاث مناطق مناخيّة في البلاد، يستتبع وجود ثلاث مناطق زراعيّة مختلفة:

أ - لسان رمليّ ضيّق، غرينيّ التربة، يعزل البحر عن منطقة البحيرات، في وسط الساحل الشرقيّ. يمتدّ إلى عمق ثلاثين كيلومترًا، ويتميّز بمناخ شبه قاريّ. وهو منبت جوز الهند، النخيل الزيتيّ وشجر المطّاط.

ب - الشمال حيث تكثر البراري، التي تتخلّل مداخلها الأدغال، وتكثر فيها السهول المعشوشبة. وهي منطقة قاريّة المناخ، تصلح لتربية الحيوانات وزراعة الذرة البيضاء والقطن والأرز.

ج - في الوسط، تمتدّ الغابات الاستوائيّة إلى عمق ٣٠٠ كلم، وتغطّي مساحة ١٢٠.٠٠٠ كلم٢. يُزرع في هذه المنطقة ذات المناخ الباولي (الوسطيّ) البنّ والكاكاو بمحاذاة الأناناس والإينيام والمنيهوك.

٦ - السكّان

يبلغ عدد سكّان ساحل العاج، وفقًا لإحصاء سنة ١٩٧٥، ٦.٦٧٠.٠٠٠ نسمة (أمّا

تقديرات سنة ١٩٧٩ فتشير إلى ثمانية ملايين نسمة). وينتسب السكّان إلى خمسة أعراق أساسيّة تضمّ ستّين فرعًا، يعيشون على أرض ساحل العاج.

العرق المسمّى Akan، ويمثّل ٤١٪ من مجموع السكّان؛ العرق المسمّى Krou: ١٦,٥٪؛ العرق المسمّى Mandé الشمال أو Malinké ١٥,٢٪؛ العرق المسمّى مانديه الجنوب ١٠,١٪؛ وأخيرًا العرق Voltaïque (Burkinabé) ١٦٪.

ويضاف إلى هؤلاء السكّان الأصليّين، مجموعات سكّانيّة كبيرة من أفارقة وأُوروبيّين، غالبيّتهم فرنسيّون. وأخيرًا اللبنانيّون الذين يوجد ثلثاهم على الأقلّ في العاصمة.

التوزّع السكّانيّ

عام ١٩٧٥، كانت غالبيّة العاجيّين (٦٧,٦٪) تسكن في القرى والأرياف. غير أنّ سكّان المدن ازدادوا بشكل سريع وملحوظ (٣٢,٤٪ عام ١٩٧٥ مقابل ٢٠٪ عام ١٩٦٠). ويعاني ساحل العاج من سوء التوزّع السكّانيّ، فمناطق الشمال الشرقيّ والشمال الغربيّ شبه خالية وكثافتها السكّانيّة أقلّ من عشرة أشخاص في الكيلومتر المربّع الواحد؛ على النقيض من مناطق الغرب والوسط الغربيّ وجنوب شرق أبيدجان وبواكيه وكوروغو التي تشهد كثافة شديدة تتراوح بين ٩٨ شخصًا في الكلم٢ (أبيدجان)، و٤٠ شخصًا في الكلم٢ (محافظة Man).

بينما تبلغ الكثافة السكّانيّة على التوالي ٦ أشخاص في Odiénné، و٤ أشخاص في Bouna في الكلم٢ الواحد. وتقدّر الزيادة ٤٪ في السنة، منها ٢,٦٪ ولادات، و١,٤٪ بسبب عامل الهجرة. والملاحظ أنّ ٥٠٪ من السكّان هم دون سنّ العشرين.

٧ - الديانات

يعتنق ثلثا سكّان ساحل العاج الديانات الأفريقيّة. وتبلغ نسبة المسلمين ٢٣٪ غالبيّتهم في المناطق الشماليّة، والمسيحيين ١٣,٥٪ وهم من المناطق الجنوبيّة وغالبيّتهم من الكاثوليك.

٨ - اللغات

في ساحل العاج ستّون لهجة محلّية تعادل عدد القبائل في البلاد. أهمّها ثلاث: Dioula في الشمال، Baoulé في الوسط، والـ Bété في الوسط الغربيّ.

الفرنسيّة هي اللغة الرسميّة ولغة التعامل الأساسيّة، أمّا لغة التعامل بين تجّار الشمال المتحدّرين من السودان فهي البامبارا.

٩ - المدن الرئيسيّة

أ - أبيدجان: كانت غران بسّام[١٤] عاصمة البلاد السياسيّة بين عامي ١٨٩٣ - ١٨٩٩، ثمّ بنجرفيل بين عامي ١٩٠٠ - ١٩٣٤. منذ عام ١٩٣٤ أصبحت أبيدجان العاصمة السياسيّة والاقتصاديّة لساحل العاج، حتّى عام ١٩٨٣ (وهو التاريخ الذي أُعلنت فيه ياموسوكرو عاصمة سياسيّة). وأبيدجان هي مركز المحافظة التي تحمل اسمها، والمرفأ الأوّل على خليج غينيا، وحاضرة يناهز عدد سكّانها مليون ونصف المليون نسمة (١٣٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٨). يقطنها بالإضافة إلى مجموعات تمثّل الأجناس المحلّية كافّة، أعداد كبيرة من الغرباء النازحين من بلدان أفريقيّة ناطقة بالفرنسيّة، وعلى الأخصّ من الدول المتاخمة.

تقدّر نسبة هؤلاء الغرباء بـ ٥٠٪، بالإضافة إلى وجود أعداد كبيرة من الأوروبيّين واللبنانيّين. نذكّر بأنّ نهر (الأبربيه) الذي يخترق أبيدجان هو اسم يطلق على صيّادي الأسماك، الذين كانوا يقطنون بعض القرى قبل ولادة المدينة، والذين ذابوا اليوم في خضمّ الغرباء.

أبيدجان اليوم هي مدينة المؤتمرات ومركز تجاريّ دوليّ مهمّ.

---

١٤ - عام ١٨٩٩، ضرب وباء الحمّى الصفراء القاتلة مدينة غران بسّام، عاصمة البلاد. فقرّرت السلطات الإداريّة التخلّي عنها عام ١٩٠٠ لسوء مناخها وأصبحت أدجامي العاصمة الإداريّة. وهي قرية صغيرة يقطنها صيّادو (الابربيه)، ثمّ استبدل اسم ادجامي ببنجرفيل، تقديرًا للسيّد بنجر، أوّل حاكم للبلاد عام ١٩٣٤. ونظرًا لصعوبة الوصول إلى العاصمة الجديدة، وعلى الأخصّ في موسم الأمطار، اختيرت أبيدجان عاصمةً للبلاد.

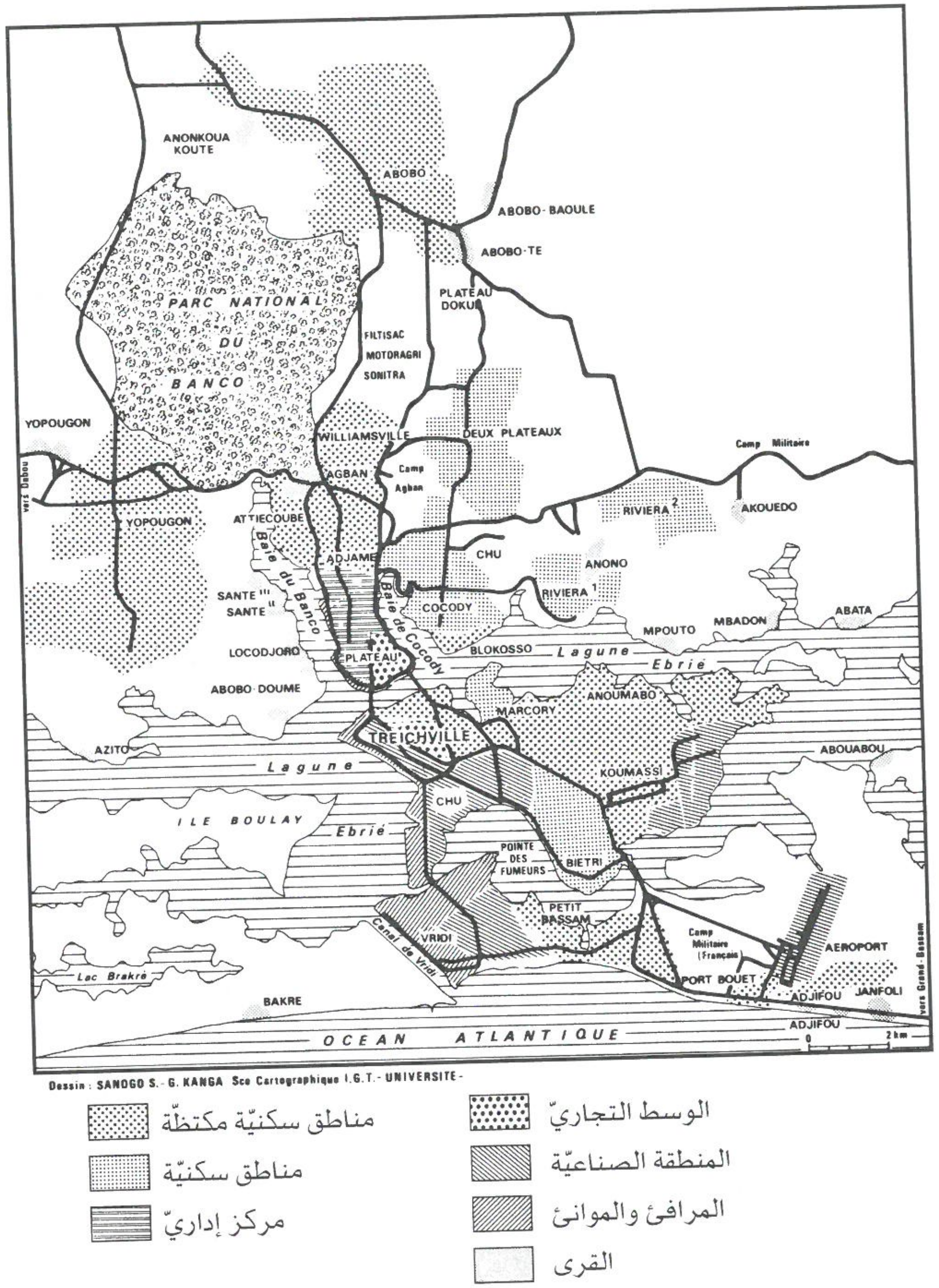

مصوّر رقم ٥:
خارطة مدينة أبيدجان.

ب - ياموسوكرو (العاصمة السياسيّة)

هي في الأصل قرية داخليّة صغيرة، تقع على مشارف السافان، وتبعد ٢٤٨ كلم عن أبيدجان.

ياموسوكرو، مسقط رأس رئيس الجمهوريّة هوفيبه بوانيي ومقرّ إقامته، أصبحت منذ العام ١٩٨٣، عاصمة البلاد السياسيّة، وهي الآن مركز جامعيّ بالغ الأهمّية.

ج - المدن الأخرى

كان عدد المدن أقلّ من ثلاثين عام ١٩٦٥، ثمّ ارتفع إلى سبعة وستّين عام ١٩٧٥. في غضون ذلك، ازداد عدد سكّان هذه المدن بشكل ملحوظ، ففي عام ١٩٨٠ تجاوز عدد سكّان ستّة مدن منها الخمسين ألفًا.

وتُظهر خارطة المدن الرئيسة سوء توزّعها في ساحل العاج، العائد إلى عدم التوازن الاقتصاديّ، بين مختلف المناطق. لذا تكثر التجمّعات السكّانيّة في منطقة الغابات، الغنيّة بالزراعات الصناعيّة.

ب - لمحة تاريخيّة

١ - ساحل العاج مدّة ما قبل التاريخ

لا يزال في ساحل العاج آثار تعود إلى حضارات العصر (النيوليتي) الحجريّ الأخير، كالفؤوس المصقولة والأدوات المصنوعة من الحجر، الضروريّة لحياة الشعوب الزنجيّة القديمة في الغابات. غير أنّنا لا نملك أيّ أثر لوجود الأقزام البدائيّين، الذين كانوا، وفقًا لزعم بعضهم، أوّل من عاش على أرض ساحل العاج.

في نهاية عصر ما قبل التاريخ، غداة ظهور المسيحيّة، طُرِدَ الزنوج القدماء بفعل المدّ السكّانيّ الآتي من سهول الشمال، الذي طُرِد بدوره باتّجاه الجنوب على يد المزارعين القادمين من الصحارى. وما لبثت موجات أُخرى أن قدمت من الشرق.

ونورد هنا ما كتب إمّانويل أفيس عن المرحلة التي سبقت مباشرة تاريخ[١٥] ساحل العاج.

١٥- هي المدّة الزمنيّة الواقعة بين بداية التاريخ وما قبل التاريخ..

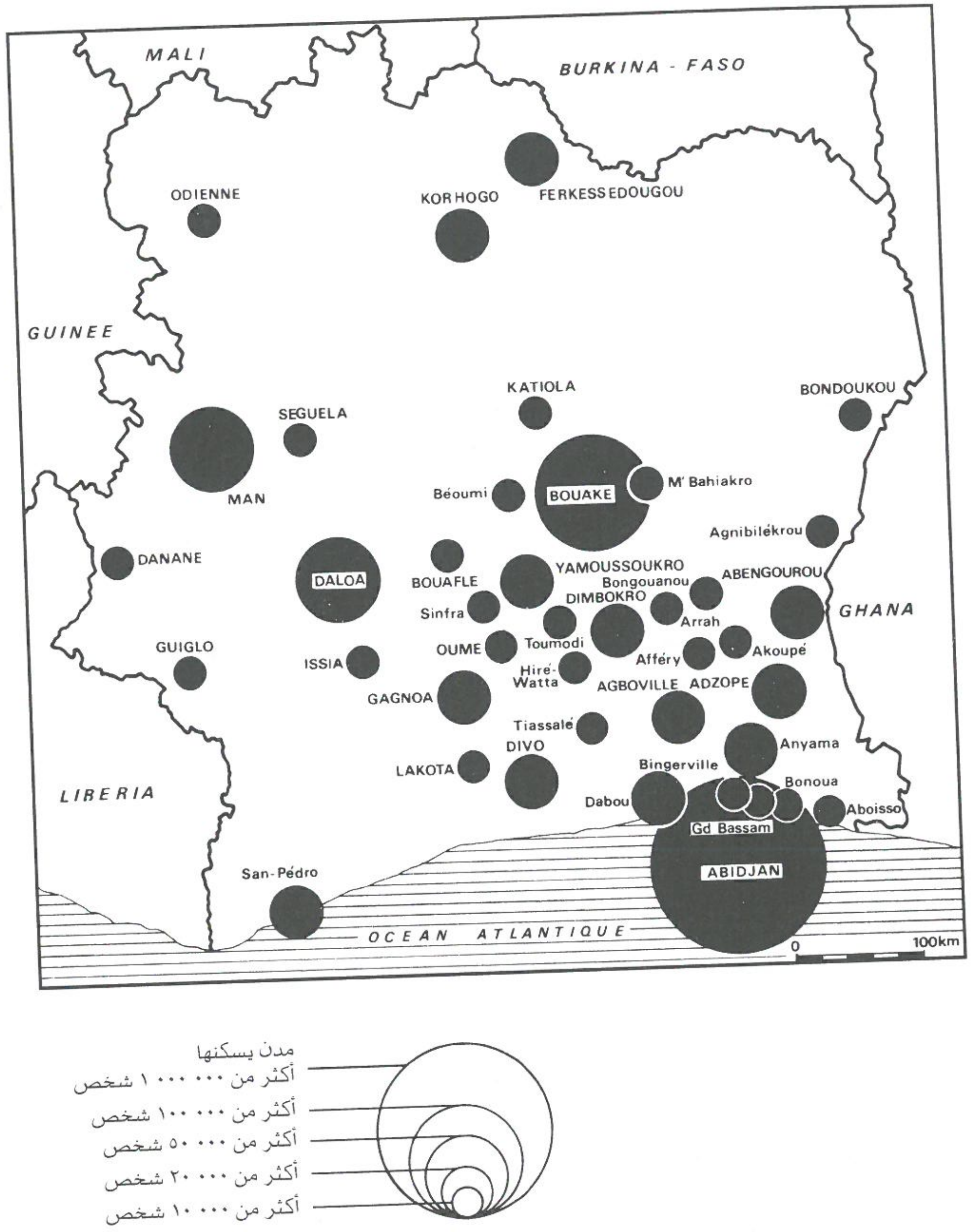

مصوّر رقم ٦:
ساحل العاج: خارطة المدن الرئيسيّة قبل العام ١٩٨٠.

"إنّنا نجهل المرحلة اللصيقة بتاريخ ساحل العاج، كما نجهل مرحلة ما قبل التاريخ فيه. فالزنوج لم يكتبوا شيئًا عن هذه المرحلة. ليس بين أيدينا سوى بعض الكتابات العربيّة، العائدة إلى القرن السادس عشر، والتي تعتمد في معظمها على الأساطير. في المقابل، تكثر الروايات المتناقَلة، المتناقِضة حينًا والمفتقِرة إلى الدقّة أحيانًا. أمّا المعلومات المتوافرة عن خليج غينيا وشعوب المتوسّط، فهي ضئيلة جدًّا بل نادرة. وقد حيكت الروايات الكثيرة حول رحلة حنّون الشهيرة. إلاّ أنّه مهما بلغ شأن المنشآت الفينيقيّة والقرطاجيّة، فإنّ مؤرّخيها يجهلون كلّ شيء عن تلك الأراضي النائية، التي قال بطليموس إنّها مناطق إثيوبيا الداخليّة. في هذا الصدد، نكتفي بالتذكير بنظريّة موريس دي لافوس: "في الأصل كان الزنوج الأقزام يقطنون دون سواهم موطن الزنوج الأفارقة اليوم، في عصر يرجّح أنّه عصر الحجر المصقول.

في هذا الوقت وصل الزنوج الأوائل من الجنس المسمّى (Bantou)، قادمين من الجنوب الشرقيّ، فدحروا الأقزام باتّجاه المناطق الحرجيّة. ثمّ تدفّقت موجة أُخرى باتّجاه الشمال والشرق، إلى السودان الجنوبيّ على طول خليج غينيا، واختلطت بجماعات الأقزام، فنتج عن هذا الاختلاط الأرومة التي انبثقت منها مختلف الأجناس المحلّية، الموجودة في أيّامنا"[١٦].

٢ - رحلة ما قبل الاستعمار

بين دلتا النيجر وساحل العاج، قامت بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر، حضارات متقدّمة على صورة ممالك منظّمة، ذات بنى قويّة، نذكر منها مملكة أنيي وباوليه في القرن الثامن عشر في شرقيّ البلاد، ومملكة كونغ في بوندوكو في القرن التاسع عشر. ومنذ أواخر القرن الخامس عشر بدأ بحّارة برتغاليّون وفرنسيّون (دييبوا) في إقامة علاقات تجاريّة مع سكّان السواحل. أمّا في القرن السادس عشر، فقد انتشر على امتداد ساحل أفريقيا الغربيّة تهريب الرقيق. ومع نهاية القرن السابع عشر، دخل المبعوثون الفرنسيّون إلى مملكة أسيني في جنوب شرق البلاد، واستقرّوا فيها. عام ١٨٤٣ أنشأت بعثة فرنسيّة بأمرة

١٦- إيمّانويل أفيس (ساحل العاج) ص ٢٢.

الأميرال بُويه – فيلوميز، بالاتّفاق مع زعماء قبائل الساحل، مركزين تجاريّين: الأوّل في أسيني فوردي جوان فيل، والآخر في غران بسّام فوردي نيمور (أعلنت فيما بعد عاصمة البلاد). عام ١٨٧٠، أصبحت هاتان المؤسّستان ملكًا لفرنسيّ من أصحاب السفن.

٣ – الاستعمار

عام ١٨٧٠، اكتشف نفر من الفرنسيّين المناطق الداخليّة، وأُعلن البلد بتاريخ ١٠ آذار ١٨٩٣، مستعمرة فرنسيّة، باسم ساحل العاج. رسم (بنجر) أوّل حاكم للبلاد، الحدود الشرقيّة والغربيّة، بالتفاهم مع إنكلترا وليبيريا.

استهلّ الاحتلال الفرنسيّ عهده مسالمًا، لكنّه ما لبث أن اصطدم بمقاومة مقاتلي ساموراي في الشمال، التي استمرّت حتّى عام ١٨٩٨. ولدى ارتباط ساحل العاج عام ١٩٠٢، بأسرة أفريقيا الغربيّة، انتعش اقتصاده بشكل ملحوظ بعد الحرب العالميّة الأولى إثر إنشاء المرفأ (الوُرْف) وشبكة مواصلات أتاحت تصدير منتجات البلد، المتمثّلة أساسًا بالخشب والمحاصيل الزراعيّة.

عام ١٩٤٤، أنشأ الطبيب فيليكس هوفوييه بوانيي (بالتعاون مع ستّة مزارعين) النقابة الأفريقيّة للزراعة، وأسّس هذا الفريق الحزب الديمقراطيّ الافريقيّ (الحزب الديمقراطيّ لساحل العاج)، بعد التصويت على القانون الأساسيّ للبلاد، نَعِم ساحل العاج بوجود مجلس حكوميّ وأُعلن جمهوريّة بتاريخ الرابع من كانون الأوّل ١٩٥٨، وأصبح فيليكس هوفييه بوانيي الوزير الأوّل في البلاد بتاريخ الأوّل من أيّار عام ١٩٥٩.

٤ – الاستقلال

نال ساحل العاج استقلاله بتاريخ ٧ آب ١٩٦٠. وفي ٢٧ من تشرين الثاني ١٩٦٠، انتُخب فيليكس هوفويه بوانيي رئيسًا للجمهوريّة، وجُدّدت ولايته خمس مرّات متتالية، أعوام: ١٩٦٥، ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥...

ساحل العاج بلد ذو نظام رئاسيّ، تُنتخب فيه الجمعيّة الوطنيّة بالاقتراع العامّ، وفيه حزب واحد (هو الحزب الديمقراطيّ لساحل العاج). يُنتخب رئيس الجمهوريّة لمدّة خمس سنوات بالاقتراع العامّ، وهو الرأس الوحيد للسلطة التنفيذيّة.

يُقسم ساحل العاج حاليًا إلى ٣٤ محافظة، على رأس كلّ منها حاكم، وتنقسم بدورها إلى ١٦٤ قضاء (الخارطة رقم ٧).

حافظت جمهوريّة ساحل العاج على روابطها المتينة مع الوجود الفرنسيّ في أفريقيا. فهي عضو في مجلس التحالف، أو المنظّمة السياسيّة – الاقتصاديّة المنشأة في أيّار ١٩٥٩ مع فولتا العليا، النيجر، الداهومي والتوغو. كما أنّها عضو في الوحدة الاقتصاديّة لأفريقيا الغربيّة، وفي منظّمة الوحدة الأفريقيّة.

ج – المعطيات الاقتصاديّة.

عرف اقتصاد ساحل العاج تطوّرًا سريعًا منذ الاستقلال، ويبدو اليوم البلد الأكثر ديناميّة والأكثر ازدهارًا في أفريقيا الغربيّة بأسرها.

يعتمد اقتصاد البلد على الزراعة، التي توفّر محاصيلها للدولة والسكّان على حدّ سواء، الجزء الأساسيّ من مداخيلهم. غير أنّ القطاع الصناعيّ آخذ بدوره في التقدّم. يمتلك العاجيّون ٤٥٪ من الرساميل الموظّفة في هذا القطاع.

لقطاع الخدمات أهمّيته؛ ففي ساحل العاج مرفأ يُعدُّ من أكبر مرافئ أفريقيا السوداء، وشبكة طرق من أفضل شبكاتها.

والعملة الرسميّة هي الفرنك الأفريقيّ، الذي يعادل ٠,٠٢٪ من الفرنك الفرنسيّ.

١ – الزراعة

"المعجزة العاجيّة"، تتجسّد أساسًا في سرعة تطوّر الإنتاج الزراعيّ، دعامة الاقتصاد الأولى؛ فالنشاطات الريفيّة تُشغّل نسبة ٨٩٪ من طبقة العمّال، والمحاصيل الزراعيّة تغطّي ٧٥٪ من الصادرات.

إنّ الأحوال الطبيعيّة من تربة ومناخ تغذّي وتنمّي قطاع الزراعة، كما ينمّيه ويغذّيه سهر السلطات ورعايتها. في ما يلي، نورد ما قاله رئيس الجمهوريّة غداة توزيع الجوائز الوطنيّة لمجلس التحالف على أفضل ثلاثة مزارعين للعام ١٩٨٤: "... إنّ الطبقة الريفيّة قد عانت كثيرًا في الماضي، واليوم تُتاح الفرصة لتكريمها. الواقع أنّ هذه الطبقة كانت وراء النموّ

مصوّر رقم ٧:
خارطة المحافظات والأقضية.

الاقتصاديّ الذي نلمسه، وهي باقية وراء هذا التطوّر طالما ارتبطت حاجاتنا الأساسيّة بالزراعة. هدفنا هو وضع الفلاّحين في المكان اللائق بهم، كي نتيح لهم القيام بدور المحرّك لعمليّة التنمية خير قيام".

أ - المحاصيل الزراعيّة

في ساحل العاج ثلاثة ميادين زراعيّة، تقابل ثلاثة أنواع من المحاصيل.

أ - المحاصيل المعيشيّة، المستهلكة في قوت سكّان الأرياف والمدن المحليّين، والمرتبطة على تنوّعها، بأنظمة التغذية الشعبيّة. تعتمد الزراعة في غالبيّتها على الطرق التقليديّة، (الوقيد: حرق الشجر للإفادة من مساحات زراعيّة). وفي مناطق الغابات يعمد المزارعون أحياناً إلى الجمع بين الطرق التقليديّة ووسائل إنتاج محاصيل التصدير.

أهمّ المنتجات هي:

- الأرزّ غير المقشور: يزرع على نطاق واسع في محافظات الغرب والوسط الغربيّ (مان، دانانيه، داكوا، وساساندرا) التي تنتج ما يزيد على ٧٠٪ من هذا المحصول. هذا الأرزّ هو من نوعيّة سيّئة. والكميّة المنتجة منه لم تعد تفي بالحاجة، لأنّه غذاء السكّان الأساسيّ. لذا، تستورد الحكومة من آسيا وأميركا ما يغطّي حاجتها الإجماليّة.

- الذرة: تتركّز زراعتها بشكل خاصّ في محافظة كوروغو.

- الإنيام: تكثر زراعته في مناطق بواكيه، دمبوكرو، بندوكو، كوروغو، وبوافليه.

- المنيهوك: ينمو بشكل خاصّ في محافظات أبيدجان، بواكيه، دمبوكرو ودانانيه.

- الموز البرّيّ: تتميّز بإنتاجه، إضافة إلى القلقاس، المنطقة الحرجيّة على الأخصّ ديفو، أبنغورو وأبيدجان.

الملاحظ أنّ هذه المحاصيل المعيشيّة على كثرتها لا تلبّي حاجات البلاد الاستهلاكيّة.

ب - المحاصيل نصف - الصناعيّة والمحاصيل الزراعيّة - الصناعيّة.

١ - المحاصيل نصف - الصناعيّة:

- الموز: ساحل العاج هو خامس بلد منتج للموز في العالَم. يزرع أساسًا في المناطق الساحليّة.

يختلف إنتاجه باختلاف العوامل الجويّة، ويتطلّب توظيفات ماليّة طائلة. زراعة الموز والأناناس هي الزراعة الوحيدة التي يمارسها الأوروبيّون والعاجيّون على حدّ سواء.

أكثر المناطق إنتاجًا لهذه المحاصيل هي أبيدجان، أغبوفيل، وأبواسّو.

- الأناناس: يباع للاستهلاك، إمّا ثمرًا طبيعيًّا من إنتاج مناطق أبيدجان، ياموسكرو وأغبوفيل، وإمّا مصنّعًا ومعلّبًا، من إنتاج أقضية بونوا وتياساليه.

- القطن والتبغ: تتركّز زراعة هذين المحصولين في منطقة السافان، وهي زراعة مكمّلة، تزيد في دخل فلاّحي هذه المنطقة.

- الكولا: ينبت شجر الكولا تلقائيًّا في المناطق الحرجيّة، ويزرع في جوار ديفو، أغبوفيل وأدزوبيه. يتجاوز المحصول السنوي ثلاثين ألف طنّ، يصدَّر القسم الأكبر منه إلى السودان وسواحل البلدان الصحراويّة.

٢ - المحاصيل الزيتيّة (الزراعيّة - الصناعيّة)

تكثر هذه المحاصيل في المنطقة الساحليّة، فالنخيل الزيتيّ يزرع إلى جانب جوز الهند في مناطق غران بسّام، دابو وأسيني، بينما يزرع شجر الخروَع في منطقتي بواكيه وكوروغو، في مناطق الشمال تنبت الكاريته أو "شجرة الزبدة"، إلى جانب كميّات قليلة من الفستق.

ج - محاصيل التصدير (محاصيل المضاربة التجاريّة)

هي أكبر مصدر للدخل، منذ عهد الاستعمار. إنّ تنوّعها يتيح إلى حدّ ما تجاوز المحاذير الناتجة عن تقلّب الأسعار الماليّة.

١ - الزراعات التقليديّة

إنّ زراعة البنّ والكاكاو هي أكثر الزراعات انتشارًا وقدمًا وأهمّية في ساحل العاج. فهي تغطّي مساحة ٢٤٠٠٠٠٠ هكتارًا من الأراضي، يقوم بزراعتها ٦٠٠٠٠٠ مزارع، وتوفّر مصدر العيش بمردودها الكبير لأكثر من أربعة ملايين شخص، كما أنّها تمثّل ٦٠٪ من صادرات ساحل العاج.

- البنّ: يتراوح محصول البنّ السنوي في ساحل العاج بين ٢٤٠٠٠٠ و٣٠٠٠٠٠ طنّ، وهو ثالث بلد منتج للبنّ في العالَم، وأوّل منتج للبنّ من نوع روبستا، المعدّ لتحضير القهوة، السريعة الذوبان.

يستثمر صغار المزارعين البنّ بنسبة ٩٠٪، أمّا مناطق الإنتاج الكُبرى فهي: الوسط الغربيّ (بوافليه، دالوا، ديفو، غنوا، وسيغيلا)، الشرق والجنوب الشرقيّ (أدزوبية، أبنغورو، بندوكو، أبيدجان، أبواسو وأغبوفيل) ومناطق الغرب (دانانيه، غيغلو، ومان). وينخفض الإنتاج في مناطق الوسط ودمبكرو وبواكيه. منذ العام ١٩٧٩ يشتري الوسطاء البنّ، حبيبات طبيعيّة ثمّ تقشر في معامل متطوّرة، منشأة من مناطق الإنتاج الأساسيّة، يملكها المستورد وصندوق استقرار ودعم أسعار المحاصيل.

- الكاكاو: - أدخل زراعة الكاكاو إلى البلاد نفر من البحارة الإيبريين (برتغال وإسبان) في أواخر القرن التاسع عشر. ولم تنتشر إلاّ في وقت متأخّر، بعد تداعي استثمار المطّاط الطبيعيّ في المناطق الحرجيّة، خاصّة في الجنوب الشرقيّ، على حدود غانا. وإذ اتّجه المزارعون نحو زراعة البنّ بعد الحرب العالميّة الثانية، نظرًا لمردوده المرتفع، فقد أُهمِلَت زراعة الكاكاو نسبيًّا، لكنّها عادت ونشطت بشكل ملحوظ بعد الاستقلال، إذ يتراوح محصولها حاليًّا بين ٤٠٠٠٠ و٥٠٠٠٠ طنّ سنويًّا.

يحتلّ ساحل العاج، منذ سنة ١٩٧٩، مكان الصدارة في العالَم في إنتاج الكاكاو، بفضل سياسة التجديد والتحديث التي ينتهجها منذ العام ١٩٦٣، وهكذا سجّل الكاكاو تفوّقًا إنتاجيًّا على البنّ. في تشرين الأوّل من كلّ عام، يحدّد صندوق استقرار ودعم الأسعار سعر شراء البنّ والكاكاو، ويشرف على تصديره.

٢ - محصول المطّاط: - ساحل العاج منتج صغير للمطّاط في الوقت الحاضر، وقد

بلغ إنتاجه من هذه المادّة ٢١٠٠٠ طنّ عام ١٩٨١، على مساحة ٣١٠٠٠ هكتار. غير أنّ برامج الزراعات الريفيّة والصناعيّة قيد التنفيذ تسمح بتوقّع زيادات ملموسة في الإنتاج، وعلى الأخصّ في مناطق: (بونغو، دابو، وسان بدرو).

٣ - الإنتاج السكّريّ

إنّ ازدياد الحاجة إلى استيراد السكّر، حدا بسلطات ساحل العاج عام ١٩٧٣ إلى إعداد وتطبيق برنامج خاصّ لإنتاج السكّر. تتركّز هذه الزراعة في منطقة السافان، وترمي إلى تذويب الفوارق الطبقيّة بين مختلف المناطق. ففي عام ١٩٨٠، بلغ محصول السكّر ١٥٠ ألف طنّ، على مساحة ٢٣ ألف هكتار.

٤ - إستثمار الخشب

تجني المناطق الجنوبيّة ثروات طائلة من استثمار الغابات. يكثر الخشب النفيس كالأكاجو والماكوريه والايروكو، في منطقة غابة الأمطار والغابة الاستوائيّة الرطبة.

بدأ استثمار الخشب في أواخر القرن التاسع عشر وبقي حتّى عام ١٩٤٠ المصدر الأوّل لثروة ساحل العاج. وقد تطوّرت هذه الصناعة بعد الاستقلال بشكل ملحوظ، نتيجة المكننة وتطوير وسائل النقل، المتمثّلة في جودة الطرق، وإيجاد مراكز متخصّصة في مرفأ أبيدجان لتخزين ونقل الخشب، المعدّ للتصدير.

أمّا مناطق إنتاج الخشب الرئيسة فهي: غران بسام، ساساندرا، أبيدجان وأغبوفيل.

ومنذ ذلك الحين أُنشِئ في ساحل العاج عدد كبير من الصناعات الخشبيّة.

الخلاصة

إذا كانت الزراعة العاجيّة، قد حقّقت تقدّمًا ملموسًا منذ عهد الاستقلال، "فإنّ سياسة ساحل العاج الزراعيّة المتكاملة قد أعطت نتائج مشجّعة؛ على دول القارة بأسرها أن تسير على هديها"[١٧]. على أنّ ذلك لا يخلو من متاعب أخطرها المشكلة الناتجة عن تقلّب الأسعار

١٧- إدوار صوما - المدير العامّ للفاو (منظّمة الأغذية والزراعة).

العالميّة، وفائض المحاصيل، الذي ينعكس سلبًا على أسعار الكاكاو والبنّ. كما تعاني الزراعة نقصًا في اليد العاملة، مع أنّ ساحل العاج يستضيف عددًا كبيرًا من عمّال الريف الموسميّين، القادمين من فولتا العليا، مالي والنيجر.

٢ - تربية الحيوانات والصيد

يعاني ساحل العاج ككلّ البلدان الحرجيّة، مشكلة عدم الاكتفاء الذاتيّ باللحوم. ولمّا كان استيراد الماشية من بلدان الساحل الصحراويّ قد تضاءل إلى حدّ بعيد، فقد عمدت السلطات إلى اتّخاذ الإجراءين التاليين:

- إستيراد اللحوم بشكل مكثّف من مختلف بلدان العالَم المنتجة.
- البدء في تنفيذ برنامج إنتاج محلّيّ يفي بحاجات السكّان الاستهلاكيّة.

أ - تربية الحيوانات

المواشي:

- ٦٠٠٠٠٠ عجل، غالبيّتها في الشمال والسافان (كوروغو وأوديَنّيه).
- ١٠٠٠٠٠٠ رأس غنم وماعز في قرى الوسط والجنوب الشرقيّ (ساسّاندرا).

أمّا تربية الخنازير والدواجن فتتركّز حول المدن (أبيدجان وبواكيه).

ب - الصيد

مياه ساحل العاج فقيرة نسبيًّا بالثروة السمكيّة. إلاّ أنّ صيد سمك التونة على جانب كبير من الأهمّيّة، ممّا جعل من مرفأ أبيدجان أكبر منتج في أفريقيا الغربيّة لهذا النوع من السمك (١٤٠٠٠ طنّ عام ١٩٧٩).

نظرًا للاستهلاك المتزايد للأسماك، فإنّ الإنتاج المحلّيّ لم يعد يفي بالحاجة، ممّا حدا السلطات إلى توقيع اتّفاقيات صيد مع السنغال وغينيا.

٣ - الطاقة والمناجم

في ساحل العاج ثلاثة مصادر للطاقة:

- الحطب المستهلك في التدفئة، إمّا قبل أو بعد تحويله إلى فحم.

- الكهرباء، بلغ إنتاج ساحل العاج ١.٢١١ مليون كيلوات/ساعة عام ١٩٧٧. ويعتبر هذا البلد من أكبر منتجي الطاقة الكهربائيّة في أفريقيا الغربيّة، بفضل مولّدات أبيدجان - فريدي الحراريّة والمولّدات الكهربائيّة على سدّ بيا، كوسّو - وباندااما. والمتوقّع أن تؤمّن السدود المقامة في بيو، سوبريه وتابو لدى الانتهاء منها فائضًا في إنتاج الطاقة.

- النفط: إنّ استثمار آبار النفط قبالة ساحل غران بسّام وغران لاهو، قد يؤمّن لساحل العاج اكتفاءه من النفط خلال السنين القليلة القادمة.

- اكتُشف في ساحل العاج بعض المناجم التي لم تستثمر حتّى هذه الساعة: منها الماس في تورتيا وسيغيلا، والذهب في حوض لوبو. أمّا النيكل فموطنه بانفينغ، والمانغانيز في أودينيّة والحديد في بانغولو.

٤ - الصناعة: جميع صناعات ساحل العاج حديثة العهد، انطلقت عام ١٩٥٠، غداة افتتاح خطوط ملاحيّة في مرفأ أبيدجان، أدّت مع اتّساع رقعة التصدير، إلى تراكم الرأسمال العاجيّ، واستيراد كمّيات كبيرة من مواد التجهيز. منذ الاستقلال، نشطت الصناعات التحويليّة بفضل الاستقرار السياسيّ وإقرار قانون التوظيفات عام ١٩٥٩، وهو قانون ليبراليّ للغاية، يمنح موظّفي الأموال ميزات ضريبيّة وجمركيّة عديدةً ممّا يشجّع على تدفّق الرساميل الغريبة، من أفريقيّة وفرنسيّة ولبنانيّة.

٥ - المنشآت الصناعيّة

أكثر المنشآت أهمّية هي المتخصّصة في تصنيع المحاصيل الزراعيّة. تحتلّ الصناعات الغذائيّة بينها مرتبة الصدارة وتكثر في منطقة أبيدجان، أكبر مركز استهلاكي في البلاد، نذكر منها: المطاحن الكُبرى، صناعة البسكويت والأرز، تجفيف وتعليب الفاكهة، معامل تهيئة البنّ والكاكاو، صناعة المشروبات الروحيّة والغازيّة وعصير الفاكهة.

- الصناعات النسيجيّة التي عرفت وثبتها الكُبرى عام ١٩٦٠، يتركّز أكثرها أهمّية في بواكيه وكوروغو، بمحاذاة منطقة زراعة القطن.

- الصناعات الخشبيّة، في ساحل العاج أكثر من ستّين منشرة، بالإضافة إلى أربعة مصانع لصناعة الخشب المعاكس ومصنع للورق.

- صناعة الجلد والمطاط والمواد البلاستيكيّة، تنمو حاليًّا بصورة سريعة وملحوظة.

- قطاع الصناعات الكيميائيّة والموادّ الزيتيّة، ويضمّ حوالى أربعين منشأة لإنتاج الزيوت، الصابون، السماد الكيميائيّ، المنظّفات، مبيدات الحشرات، وعلب الكبريت.

- الصناعات الميكانيكيّة والكهربائيّة، وهي في حدود العشرين نذكر منها:

صناعة السفن، تجميع السيّارات (رينو، ستيروين، بيجو،...) تصنيع وتهيئة الأجهزة الزراعيّة والكهربائيّة.

- الصناعة السياحيّة، وتعدّ من النشاطات العاجيّة المهمّة، الحديثة العهد. والواقع أنّ سياسة السلطات العاجيّة تجاه هذا القطاع، ناشطة منذ عدّة سنوات، وقد برزت نتائجها في بناء مجمّعات فندقيّة، ومراكز استجمام. كما برزت في تطوّر الفن والصناعة الحرفيّة.

كما أنّ جودة الطرقات تسمح بالتعرّف إلى البلاد دونما مشقّة.

منذ عام ١٩٦٨، تقوم عدّة شركات سياحيّة، بحريّة وجويّة، بتنظيم رحلات من أوروبا، وأميركا الشماليّة، لزيارة ساحل العاج.

٦ - التجارة: النقل والمواصلات

أ - بنية النقل

شبكة الطرق: في الأوّل من كانون الثاني عام ١٩٨٠، كان طول هذه الشبكة ٤٥٣٥٧ كلم، منها ٣٠٧٧ كلم طرقات رئيسة معبّدة.

- السكك الحديديّة: تنحصر في الخط الحديديّ الوحيد بين أبيدجان وواغادوغو، بطول ١١٥٤ كلم[١٨].

١٨ - يؤمّن هذا الخطّ وصول اليد العاملة من فولتا العليا إلى ساحل العاج، كما يفسّر سبب ارتباط فولتا العليا الوثيق بساحل العاج بين عامي ١٩٣٢ و١٩٧٤.

الخلاصة

إنّ نموّ القطاع الزراعيّ في ساحل العاج أتاح توفير الموارد الضروريّة لانتهاج سياسة اقتصاديّة سليمة. غير أنّ ارتهان ساحل العاج للبلدان المصنّعة هو عائق جوهريّ بحدّ ذاته، إذ يجعل الصناعة، المرتبطة إلى حدّ بعيد بصناعة الغرب، عرضة للهزّات التي تعصف بوسائل الإنتاج.

لقد اختار ساحل العاج سياسة التصنيع الجزئيّ، لموادّه الزراعيّة الأوّليّة. وعليه أن يبيع المحاصيل التي ينجز تصنيعها وأن يبذل قصارى الجهد على الصعيدين الوطنيّ والإقليميّ، ليخفّف من وطأة التبعيّة الاقتصاديّة وتدهور سعر عملته الوطنيّة، ويحقّق بالنتيجة انطلاقة متوازنة لبُنْيَةٍ اجتماعيّة – سياسيّة، في أمّة حديثة العهد تاريخيًّا.

الفصل الثاني

الهجرة

أوّلاً: لمحة تاريخيّة عن الهجرة اللبنانيّة

ثانيًا: تسمية اللبنانيّين: تركيّ، لبنانيّ – سوريّ أم لبنانيّ؟

ثالثًا: أسباب الهجرة اللبنانيّة

رابعًا: الخصائص العامّة لحركة الاغتراب اللبنانيّة

خامسًا: تاريخ وصول اللبنانيّين إلى أفريقيا الغربيّة

أوّلاً: لمحة تاريخيّة عن الاغتراب اللبنانيّ

بحكم موقعه الجغرافيّ في نقطة الالتقاء بين قارّات ثلاث، وبسبب عذوبة مناخه، ومناعة جباله، اجتذب لبنان منذ القدم، الأقليّات الهاربة من الظلم والتسلّط؛ فأصبح في فترة معيّنة من تاريخه مرفأ أمانٍ للاّجئين وملاذًا للمغلوبين على أمرهم "فالخوارج – المنشقّون عن الإسلام – وأتباع الطوائف المستجدّة وفدوا إلى شمالِ لبنان وجنوبه، كما دخلوا إلى سوريا؛ وأقامت كلّ طائفة منهم في معقل آمن. وهذه الأقليّات التي كانت مهدّدة بوجودها ومضطهدة، كالإسماعيليّين، والنصيريّين، والدروز والشيعة، احتمت كلّ طائفة منها بجبل منيع؛ كما فعل ذلك المسيحيّون قبلهم.

والملاحظ أنّ الجبال هي موطن الأقلّيّات في بلادنا كما في البلاد المحيطة بنا. وهذه ظاهرة في غاية الوضوح، سهلة التعليل تكمن في طلب الأمان"[1].

إذا كانت جبال لبنان قد جعلته ملاذًا للمنبوذين، فإنّ انفتاح واجهته على البحر قد قرنَت اسمه بالخيرالوفير والثراء حتّى قيل فيه عن حقّ: "إبّان القرن الخامس عشر ولدى خروج

١ – ميشال شيحا (لبنان اليوم) ص ٣٢.

جحافل تيمورلنك، أصبحت بيروت، كما يقول لامنس، ملتقى شعوب حوض المتوسّط كافّة، كما أصبحت خليطًا من البشر يصعب وصفه، فيها كلّ لغات المتوسّط وكلّ أجناسه البشريّة... زبد الحضارات المتنافسة وأفضلها، تتدافع إلى هذه الزاوية من الساحل الفينيقيّ، بفعل حاجات ملحّة، تتجاوز عوامل اختلاف العرق والدين"[٢].

هذه الأرض المضيافة، نقطة التلاقي التي اجتذبت الغرباء في أصعب الظروف وأحلكها، هي اليوم، ويا للمفارقة، أرض ينزح عنها اللبنانيّون، وهم ما انفكّوا عبر تاريخهم، يجوبون الأرض، لكأنّ هذا البلد يمسك بقطبي الهجرة، ويضع يده على أسرارها: القطب الموجب والقطب السالب، أوّلهما لاستقطاب الغرباء، المتعطّشين إلى الأمان، وثانيهما لدفع أبنائه الذين يعتقدون، لسبب أو لآخر، أنّهم باغترابهم، ربّما ينعمون بحياة أفضل وظروف أنسب.

لمع نجم اللبنانيّ في بلاد الاغتراب وتميّز بنجاحه على الصعيد الفرديّ، لأنّه مثل حبّة الرمل ذات السطوح المصقولة، التي تكمد ألوانها وتفقد قيمتها إن هي جمعت إلى حبّات أُخرى بقصد الحصول على شكل متجانس. والإنسان العربيّ يشبّه بالقصيدة العربيّة إذ إنّه مثلها يستمدّ كماله من ذاته (الفرديّة)، بعكس الشعوب الأُخرى التي يُشبَّه الفرد فيها بنوتة موسيقيّة تستمدّ إيقاعها وكمالها من تكامل اللحن (الحسّ الجماعيّ).

فمنذ القِدَم، صدَّر الفينيقيّون الحرف إلى أوروبا؛ أدخلوا النحاس إلى مرسيليا وقادس، وحافظوا على شهرتهم التجاريّة في العهدين اليونانيّ والرومانيّ، على الرغم من إهمال المؤرّخين ذكر منجزاتهم الفذّة. لقد أسَّسوا مستعمرات تجاريّة في حوض المتوسّط مثل يوتيقيه وقرطاجة.

وفي مرحلة لاحقة، بلغ السوريّون إسبانيا وفرنسا وسويسرا، حيث ازدهرت مؤسّسات المقايضة والتجارة التي أنشأوها. ثمّ استوردوا الخمر والزيت من جبل لبنان ووادي العاصي، والزجاج واللؤلؤ والصباغ الأرجوانيّ من صور وصيدا، كما استوردوا

٢- ميشال شيحا، المرجع السابق ص ٣٣.

الحرير الطبيعيّ والصوف من فلسطين، والقطن والمنتجات المعدنيّة من بيروت وجبيل، والفاكهة من دمشق[٣].

أثبت السوريّون فيما بعد أنّهم أسياد الاغتراب في القرون الوسطى، فرحل الكثيرون منهم إلى إيطاليا (مركز العالَم التجاريّ)، ليستقرّوا في البندقيّة وجنوى ويصبحوا وسطاء تجاريّين بين موانئ إيطاليا وموانئ سوريا.

أمّا اليوم فقد أثبت اللبنانيّ أنّه مثال المغترب المتفوّق بلا منازع، فبلغ تخوم العالَم، من الاسكا إلى أستراليا، كأنّ قدره يتمثّل في القول المأثور: "ليس بلدٌ أحقّ بك من بلد، خيرُ البلاد ما حملك".

على الرّغم ممّا يعلّقه العرب، وفقًا لتقاليدهم المتوارثة، من أهمّية كُبرى على التمسّك بمنزلهم الأبويّ، مسقط رأسهم، ومصدر فخرهم، وقد تغنّى الشاعر العربيّ بكلّ ذلك، بوجدانيّة قلّ مثيلها:

نقّل فؤادَك حيثُ شئتَ من الهوى ... فما الحبُّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفتى ... وحنينُه أبدًا لأوّل منزلِ[٤]

ثانيًا: تركيّ، لبنانيّ - سوريّ أم لبنانيّ؟

عُرف اللبنانيّون لمدّة طويلة بإسم التركو، في البلاد التي استضافت الموجات الاغترابيّة الأولى منهم كالبرازيل والأرجنتين والولايات المتّحدة، حيث كان اسم "تركو"، يُطلق على العربيّ، الأرمنيّ، المصريّ وجميع رعايا الإمبراطوريّة العثمانيّة.

في مطلع القرن العشرين، لم يكن العالَم يُفرِّق بين لبنانيّ وسوريّ، لأنّ لبنان كان آنذاك جزءًا من" سوريا الكُبرى". غير أنّ تسمية لبنانيّ - سوريّ برزت إلى الوجود غداة إعلان الانتداب الفرنسيّ على البلدين. أمّا بعد الاستقلال فصار المغتربون اللبنانيّون معروفين بوصفهم لبنانيّين.

٣- فيليب حتّي مقدّمة كتاب سلّوم مكرزل، ص ٦.
٤- أبو تمّام، شاعر عربيّ (٧٨٨-٨٤٥)

ولا ننسى أنّ للوجود السوري مكانةً في بلاد الاغتراب، وإن بنسبة ضئيلة.

"لبنانيّون، سوريّون، مشرقيّون، أتراك، آسيويّون، قادمون من آسيا الصغرى، يابانيّون: هكذا سمّاهم "قاموس" المستعمر، وأحصاهم مع الأوروبيّين في ساحل العاج كما في أفريقيا السوداء بأسرها، في الربع الأوّل من القرن العشرين"[٥].

ثالثًا: أسباب الهجرة اللبنانيّة

يصعب تحديد أسباب الهجرة اللبنانيّة وتصنيفها في أبواب مستقلّة، واضحة المعالِم، لأنّ الهجرة عبارة عن حركة تلقائيّة ترتبط بردّات الفعل الفرديّة، ساعة يواجه المرء ظروفًا معيّنة، بصرف النظر عن أيّ سلطة سياسيّة أو خطّة مرسومة يراد تطبيقها[٦].

جلّ ما نستطيع فعله هو تعداد الدوافع العامّة التي تبدو جليّةً في أساس حركة الاغتراب الأولى، بانتظار تحديد الأسباب القائمة، عن طريق الاستقصاء الذي نقوم به بين اللبنانيّين في ساحل العاج.

٥- آلان تيرفور "اللبنانيّ أو غير المحبوب"، مجلّة (HAAA)، أبيدجان ١٩٨١، عدد ٧ ص ٥٩.

٦- هذا الحقّ النابع من حقّ الإنسان الطبيعيّ، تقرُّهُ الأخلاق والأديان. وفقًا لرأي لويس دولّو:

"حقّ الهجرة هو حقّ ملازم للإنسان، في حرّية الذهاب والإياب، ويطرح أمامنا فكرتين متناقضتين، علينا التوفيق بينهما: حرّية الفرد في التصرّف بشخصه، وحقّ الدولة في منع إفراغ أرضها. **حقّ الفرد هو المقدّم،** كرّسه الإعلان الفرنسيّ لحقوق الإنسان والمواطن، ثمّ الإعلان العالَميّ لشرعة حقوق الإنسان ليرسّخ المفهوم السابق ويوسّع نطاقه.

ثمّ أكّدت الرسائل البابويّة بجلاء على حقّ الإنسان في الاغتراب.

مشاكل الهجرة تأتي اليوم في طليعة اهتمامات حكومات العالَم، واهتمامات هيئة الأُمم المتّحدة ووكالاتها المتخصّصة، لمعالجة مشكلة موجات اللاجئين السياسيّين المتواصلة.

تنبيهًا للرأي العامّ العالَميّ حيال جديَّة الموضوع، فقد أُنشئ ما يسمّى بـ"يوم المهاجر". و"عام اللاجئ".

أ - الأسباب المهمّة

١ - الأسباب ذات الطابع الاقتصاديّ

بدأت مرحلة الكفاح الاغترابيّ اللبنانيّ في ظلّ الإمبراطوريّة العثمانيّة، التي سلخت مدن الساحل وسهل البقاع الخصب عن لبنان، فحجّمته لتنحصر رقعته في الجبل والجنوب، حيث التربة تبخل بالعطاء والأرض الزراعيّة صغيرة الرقعة؛ فهناك كثافة سكّانيّة مرتفعة في مقابل زراعة بدائيّة وصناعة حرفيّة محدودة[٧]، بالإضافة إلى تجارة هشّة، مرتهنة للخارج. أمّا الضريبة التي كانت تثقل كاهل الفلاّحين، فكانت رصاصة الرحمة التي تقضي على أيّ أمل بتحسين أوضاعهم: "الرزيّة الأولى هي الضريبة. وهي ككرة الثلج، تتدحرج، بدءًا من الباب العالي والباشاوات، والأُمراء والمشايخ، لتهوي في نهاية المطاف على هام الفلاّحين المساكين، وقد تضخّم حجمها إلى الضعفين أو الثلاثة أو الأربعة أضعاف وربّما أكثر من ذلك. كما أنّ بشير الثاني، كان يجبي من رعاياه، لتوطيد حكمه، ما ينوف على أربعة أضعاف الضريبة التي فرضتها مصر"[٨].

٢ - الأسباب ذات الطابع الاجتماعيّ - السياسيّ - الدينيّ

رغبة منها في تدمير هيكليّة الحكم الذاتيّ (الذي ضمنته تركيا بموجب اتفاقيّات الامتيازات الأجنبيّة التي أقرّتها القوى الأوروبيّة العُظمى)، ومن أجل إظهار عجز اللبنانيّين عن حكم أنفسهم؛ عمدت السلطات العثمانيّة إلى إزكاء حدّة الخلافات بين طبقتي المجتمع: طبقة الأعيان التي تمتلك كلّ شيء، وطبقة الفلاّحين المحرومين من كلّ شيء والذين يعانون الإذلال ويتحمّلون الأعباء الثقيلة. هذا الوضع المتفجّر أدّى إلى إثارة عامّة الناس. أمّا السلطات الدينيّة فقد عمدت بموقفها إلى دمغ الأحداث النابعة من الشرخ الاجتماعيّ بالطابع الطائفيّ، ممّا أسقط مبدأ التعايش الإثنيّ - الاجتماعيّ في بلد كان منذ القِدَم ملاذًا للمضطهدين واحتضن بسلام فِرَق مختلف الطوائف الدينيّة:

٧- ليس في لبنان حديد ولا فحم حجريّ لإنشاء صناعة متطوّرة، في حين أنّ هذين المعدنين هما في أساس ثورة القرن التاسع عشر الصناعيّة. أضف إلى ذلك أنّ الحرير المحليّ كان يواجه منافسَيْن قويّين: حرير ليون وحرير اليابان.

٨- إيلي صفا "الهجرة اللبنانيّة" ص ١٦١.

كان النظام الإقطاعيّ يتأثّر إلى حدّ ما بطبيعة الأرض، وبخاصّة الوضع الزراعيّ القائم... وكان في البلاد طبقتان أساسيّتان: السادة والفلاّحون، تتطوّران وتنموان باضطراد، الأولى منهما في مجال الرفاه والأُخرى في مجال البؤس، حتّى أنّ الهوّة الفاصلة بينهما كانت تزداد اتّساعًا في كلّ لحظة.

... وعلى وجه العموم، جُرِّد الفلاّحون من ملكيّة الأرض فأذلّهم حكم السادة وأرهقهم بما فرض عليهم من أعباء، ولا سيّما إلزامهم تقبيل أيدي السادة.

في ظلّ هذه الأوضاع لم يجرؤ الفلاّحون على الثورة ضدّ هذه القيود، لكن مع مرور الزمن فقدت الإقطاعيّة شيئًا من هيبتها فأدّى الصراع ضدّ المصريّين إلى اصطفاف السادة والفلاّحين، في نهاية المطاف، جنبًا إلى جنب. تلخّصت تطلّعات الفلاّحين الديمقراطيّة بكلمتَي المساواة والحرّية: المساواة في تأدية الضرائب، والتحرّر من الطوق الخانق المتمثّل في عدم المساواة في ملكيّة الأرض... كما برز عاملان رئيسان أضفيا صبغة دينيّة على النزاع، إذ بدأ النزاع في منطقة كسروان المسيحيّة، حيث كان السادة يمارسون سلطتهم بلا حدود عن طريق "الوكلاء" المنتخبين في القرى ذات الطوائف المختلطة. ثمّ وما لبث الصراع أن امتدّ إلى منطقة المتن المسيحيّة.

أمّا في الجنوب فقد ترافق التراتب الدينيّ مع التراتب الإقطاعيّ، حيث غالبيّة السادة دروز وغالبيّة الفلاّحين من المسيحيّين.

هذه المجابهات التي كان يغذّيها الباب العالي تطبيقًا لمبدأ "فرِّق تَسُد"؛ كانت الدافع الحقيقيّ لرحيل آلاف اللبنانيّين نحو آفاق جديدة، أكثر رحمة وأمانًا، فتوجّهوا بادئ الأمر نحو مصر غداة وصول بعثة بونابرت، ثمّ باتّجاه العالَم الجديد، وأخيرًا يمّموا شطر أفريقيا الغربيّة.

٣ - وصول الأقلّيات

إنّ وصول الأقلّيات إلى لبنان مع بداية القرن العشرين، وعلى الأخصّ في نهاية الحرب العالميّة الأولى، اعتُبر سببًا اغترابيًّا جديرًا بالذكر؛ إذ إنّ هذه الأقلّيات العرقيّة الغريبة من

أرمن وأكراد، راحت تعمل بأُجور أدنى من أُجور اليد العاملة الوطنيّة، فنازعت بذلك العامل والحرفيّ اللبنانيّ مكانهما في العمل.

هذه الموجات الاغترابيّة هي في نظر البعض، عامل تعويض، يملأ الفراغ الذي خلّفه رحيل اليد العاملة اللبنانيّة طوال قرن من الزمن. نورد هنا لمحة عن الموجات الاغترابيّة، الوافدة إلى لبنان خلال القرن العشرين:

- هجرة الأرمن، بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، وتكثّفت عام ١٩٣٩، إثر الاضطهاد التركيّ. يشكّل الأرمن في الوقت الحاضر ستّة بالمئة[٩] من الشعب اللبنانيّ. حصلوا عام ١٩٢٤، على الجنسيّة اللبنانيّة ويمثّلهم خمسة نواب في البرلمان.

- هجرة الأكراد، الذين بدأوا بالتسلّل إلى لبنان عام ١٩١٥. بعضهم كان يحمل الجنسيّة الإيرانيّة، أو التركيّة، أو العراقيّة أو السوريّة، غير أنّ الكثيرين منهم كانوا بلا هويّة ويعيشون في وضع غير قانونيّ. لم يستطع الأكراد، على عكس الأرمن، الحصول على الجنسيّة اللبنانيّة، لأسباب طائفيّة وسياسيّة.

- شكّل الفلسطينيّون الموجة الثالثة التي وصلت إلى لبنان، إبّان الحرب الإسرائيليّة - العربيّة الأولى عام ١٩٤٨. حوالى مئة وخمسين ألف فلسطينيّ دخلوا لبنان، غالبيّتهم استقرّت في مخيّمات اللاجئين التي أُعِدَّت لهم والأقليّة منهم استقرّت في بيروت وانصرفت للعمل في قطاع الخدمات، بفضل الرساميل التي كانت تحملها.

- عام ١٩٥٢، بدأ آلاف اللبنانيّين الذين استقرّ أجدادهم في مصر منذ القرن التاسع عشر بالعودة إلى لبنان بعد تأميم الاقتصاد المصريّ.

- استقرّ عدد من السوريّين في لبنان، البعض بدافع التسهيلات التي يمنحها النظام الاقتصاديّ الليبراليّ اللبنانيّ، والبعض الآخر بحثًا عن عمل.

هذه الموجات المتدفّقة على لبنان، هي جزء من تاريخه، منذ القِدَم وحتّى يومنا هذا، وما قِيل في الاغتراب اللبنانيّ في القرن التاسع عشر، لا يزال ساريًا حاليًّا: "أصبحت أرضنا

٩- معين حدّاد "لبنان أرض وشعب" ص ٢٣٧.

ملاذًا وملجأً للمضطهدين والمبعدين وفي ذلك نتائج سلبيّة وأعباء، تستتبعها طبيعة هذا الأمر وتتضمّن بعض المفارقات.

وكلّما ضاق لبنان بالوافدين، واجه مشكلة نزوح ناشئة، لأنّ أرضه ضيّقة وجباله لا تستطيع إيواء ملايين الناس واستضافتهم، وبالمقابل فإنّ جيرانه في الشمال والشرق ليسوا بحاجة إلى أرض، وكثافتهم السكّانيّة ضئيلة جدًّا.

هكذا هو لبنان منذ القدم. فالفينيقيّون قد أسهموا منذ ثلاثة آلاف عام في إعمار قبرص وسيسيليا والأرخبيل اليونانيّ، وصولاً إلى إيلاّد(١٠)، وقد وصلوا آنذاك إلى أطراف المعمورة. إنّ تلك الأسباب هي التي دفعت باللبنانيّين منذ مئة عام نحو مصر وأرجاء العالَم كافّة"(١١).

ب - الأسباب الثانويّة

إنّ العوامل التالية، رغم كونها ثانويّة، قد غذت المدّ الاغترابيّ الذي انطلق أساسًا من الأسباب الآنفة الذكر.

١ - وساطة مالكي السفن وشركات الملاحة البحريّة ومساعيهم

كان مالكو السفن يبعثون بالوسطاء إلى قُرى لبنان النائية، ليحثّوا الشبّان فيها على الهجرة. فيقدّمون لهم التسهيلات والوعود المعسولة بالإثراء السريع.

فالفلاّح اللبنانيّ الذي كان يعاني من صروف الدهر الأمرّين، يودّ أن يجرّب حظّه في بلادٍ أرأف به من بلده، فيعمد إلى بيع أو رهن قطعة الأرض التي يمتلكها أو البيت بأبخس الأثمان، متكبّدًا مصارفات الرهن والفوائد... وأحيانًا كان الفلاّح الذي لا يملك شيئًا، يستدين المبلغ الضروريّ لسفره، بإعطاء تعهّد خطّي أو شفويّ، بتسديد الدين والفائدة، لدى تحصيله الثروة في المغترَب(١٢).

١٠- إيلاد (Hellade) اسم كان يطلق على اليونان في العصر البرونزيّ.

١١- ميشال شيحا - المرجع السابق، ص ١٠.

١٢- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ١٧٩.

لعب وسطاء الشركة الفرنسيّة للنقل البحريّ ووسطاء شركات الملاحة البحريّة الأُخرى، دورًا مهمًّا في بثّ روح المغامرة، بين جماعاتٍ معدمة، تسعى للفرار من البؤس وشظف العيش.

على أنّ الوعود الخادعة قد خيّبت آمال بعض هؤلاء الفلاّحين الذين اكتشفوا لدى وصولهم إلى مرسيليا، افتقارهم للشروط الصحيّة المطلوبة للدخول إلى أميركا، فأُسيئت معاملة البعض منهم وأُعيدوا إلى وطنهم(١٣) في حالٍ يرثى لها، ودُفع البعض الآخر، كراهية أو طواعية، لتغيير وجهة سفره نحو سواحل أفريقيا الغربيّة.

٢ - دور الإرساليّات الدينيّة

كان للإرساليّات، الأميركيّة خاصّة (البروتستانت)، دور غير مباشر في تغذية فكرة الهجرة من خلال تعليم اللغة الإنكليزيّة وآدابها بالإضافة إلى تاريخ أميركا وجغرافيّتها. إذ فتحوا آفاقًا جديدة أمام اللبنانيّين وحثّوهم على الذهاب إلى العالَم الجديد الذي فتنتهم أخباره. ونورد هنا تصريحًا لراهب سوري مبتدئ في نيسان ١٩٠٣ لصحيفة (الأندبندنت).

"كان لدى أُستاذي في المدرسة الأميركيّة في لبنان مجموعة صور تمثّل الحياة في أميركا، وتعطي فكرة عن طبيعتها وأسواقها. حين اطّلعت عليها عرفت بوضوح أنّ الحياة هنالك تختلف عن حياتنا، وأنّ في العالَم ما هو أفضل من حياة الدير"(١٤).

٣ - السياحة

تأثّر اللبنانيّون بالسيّاح الأميركيّين الوافدين إلى الأراضي المقدّسة، ونذكر أنّ طانيوس البشعلاني(١٥) قام برحلته إلى الولايات المتّحدة، بمساعدة عائلة أميركيّة من السيّاح يحدوه حماس وطموح شديدَين إلى الاغتراب.

١٣- لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع، أُنظر فهرس المراجع حول "القوافل البشريّة في طريقها نحو آفاق أُخرى"، بقلم يوسف إبراهيم يزبك.

١٤- فيليب حتّي، المرجع السابق، ص ١١.

١٥- هو أوّل مغترب لبنانيّ هاجر إلى الولايات المتّحدة.

٤ - نداء الأخوّة

يتكيّف المغترب مع مناخ الحرّية في البلد المضيف، ويكسب شيئًا من المال، ثمّ لا يلبث أن يطلب من أخيه أو ابن عمّه أو صديقه أو زوجته الالتحاق به، بقصد التخفيف من حدّة شعوره بالوحدة ومؤازرته في أعماله التجاريّة.

٥ - المراسلة وإمداد الأهل بالمال

رسائل المغترب اللبنانيّ التي تروي إنجازاته، والرخاء الذي يتمتّع به في المجتمع الأميركي الليبرالي(١٦)، بالإضافة إلى العون المادّي الوفير الذي يرسله إلى ذويه، والذي يتيح لهم شراء الملبوسات الفاخرة وبناء بيوت القرميد ممّا يساهم في تحسين وضعهم المعيشيّ... كلّ هذا غذّى لدى الشبّان المعدمين أحلامًا أسطوريّة، حرّكت في نفوسهم الرغبة الجامحة في الفرار من البؤس والالتحاق بأقاربهم، لعلّ الحظّ يحالفهم في مغامراتهم.

٦ - زيارات إمبراطور البرازيل

يرى البعض أنّ زيارات إمبراطور البرازيل، دون بدْرو الثاني، إلى الأراضي المقدّسة بين عامي ١٨٧٧ و١٨٨٧، نشّطت حركة الاغتراب اللبنانيّ - السوريّ.

ويرى أوغست أديب باشا في كتابه "لبنان ما بعد الحرب"، أنّ المدّ الاغترابيّ نحو العالَم الجديد، قد تعاظم في نفوس اللبنانيّين في مصر، غداة ثورة عرابي.

٧ - أسباب نفسيّة أُخرى

من بين الأسباب النفسيّة الدافعة إلى اغتراب اللبنانيّين، الخلاف مع الأهل أو الزوجة أو الجيران، أو رفض طلب زواج، أو بوار الموسم الزراعيّ أو نفوق قسم من الماشية.

ج - أسباب معاصرة مضافة إلى الأسباب السالفة الذكر

إنّ روح الهجرة المتأصّلة، في طباع اللبنانيّ، والتي عزّزها في القرن التاسع عشر

١٦ - أخفى المغتربون تضحياتهم الجسيمة، ومكابدتهم في ممارسة تجارة الكشّة، وهو أوّل عمل مارسه المغتربون في أميركا.

استبداد الباب العالي، وأحداث سنة ١٨٦٠ الدامية، ثمّ اقتطاع الأرض التعسّفيّ عام ١٨٦٤، وما تلاه من مضايقات قامت بها سلطات الانتداب، أدّى إلى حركة اغترابيّة ناشطة، دائمة التجدّد والاندفاع، هائلة الأبعاد، "فالهجرة كما يُقال تستدعي الهجرة".

"بدأ بنيان المعنيّين يتداعى بسبب: منازعات محلّية، تدخّل مصريّ، ردّة فعل العثمانيّين، تدخّل القوى العظمى، ممّا أدّى إلى تهاوي الإمارة اللبنانيّة، ثمّ عزل جبل لبنان، وفصل المسيحيّين عن الدروز في عهد القائمقاميّتين (١٨٤٢ - ١٨٦٠).

لم تكن تجربة القائمقاميّتين ناجحة، وانتهت بمجابهات سنة ١٨٦٠ الدامية: فنشبت حرب مرعبة ذات أسباب سياسيّة بقدر ما هي اجتماعيّة، ما لبثت أن تحوّلت إلى حرب طائفيّة صرفة. واليوم نجد عناصر الحرب عينها تبرز في أحداث ١٩٧٥ - ١٩٧٦. فنستشرف على الفور ما سوف تُحدثه من مآس(١٧).

١ - عجز النظام السياسيّ

إنّ الأسباب التي هيّأت لحركة الاغتراب اللبنانيّ وغذّتها، هي أسباب ذات طابع سياسيّ، اقتصاديّ، نفسيّ ودينيّ، في آنٍ واحد. وهي على تنوّعها ليست حاسمة بحدّ ذاتها، ولم يكن بوسعها أن تخلق هذا التيّار الاغترابيّ الجارف، الدائم التدفّق، لو تحلّى القيّمون على السلطة بروح الإنصاف وأمّنوا مزيدًا من الأمان والحرّية لرعاياهم؛ فالعلّة تكمن في النفوس لا في النصوص:

إنّ المادّة ١٢، من الدستور اللبنانيّ التي تضمن الحرّيات لكلّ المواطنين دونما تمييز بينهم، قد جُمّدت(١٨) لمصلحة المادّة ٩٥، والميثاق الوطنيّ، وهو اتّفاق طارئ أخذ به السياسيّون، في توزيع السلطات الأساسيّة وفق أُسس طائفيّة، وهو يوزّع الامتيازات على

١٧ - رنيه شاموسي، ١٩٧٨، "زمن الحرب"، لبنان، ١٩٧٥ - ١٩٧٧، ص ١٢.

١٨ - نصّ المادّة ١٢ من الدستور: "لكلّ لبناني الحقّ في تولّي الوظائف العامّة، لا ميزة لأحد على الآخر، إلاّ من حيث الاستحقاق والجدارة، حسب الشروط التي ينصّ عليها القانون".
وقد جُمِّد العمل بها، بموجب المادّة ٩٥، التالي نصّها: "بصورة موقّتة والتماسًا للعدل والوفاق تُمثَّل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامّة وتشكيل الوزارة من دون أن يؤول ذلك إلى الإضرار بمصلحة الدولة".

رؤساء الأحزاب، "بارونات الحرب" الذين يتجاوز تأثيرهم على الجماهير تأثير القادة الروحيّين. الذين ينادون اليوم؛ بالتعايش بين الطوائف كافّة، في إطار وطنيّ عادل[١٩].

حروب ١٩٧٥ - ١٩٨٦

إنّ عجز النظام السياسيّ والميثاق الوطنيّ (فالأنظمة السياسيّة والحكومات تفرز بنفسها نقاط قوّتها وضعفها)[٢٠]، بالإضافة إلى موقع لبنان في قلب منطقة تغلي بالأحداث، وقابليّته لتقبل التيّارات الغربيّة، بفعل اعتناق كلّ فئة أفكارًا سياسيّة أو إيديولوجيّة غريبة، تتقدّم على الحسّ الوطنيّ، ثمّ تعدّد القوى على الساحة وتقاسم السلطات حتّى ضمن الطائفة الواحدة؛ وأخيرًا بسبب الاستقواء بالخارج، كلّ ذلك جعل لبنان أتونًا يحوّل البشر والحجر إلى رماد، فلا يبقى في الساحة غير الفئات المتحاربة التي تؤجّج النار للإفادة من الوضع القائم والذين تمنعهم ظروفهم المترديّة عن الرحيل. فالهجرة هي اليوم هاجس اللبنانيّين الملحّ، العاجزين عن فعل أيّ شيء، إزاء حرب الإبادة التي تروّع بلد الأرز، منذ أحد عشر عامًا، في غياب الحوار والمنطق، وسيطرة الفعل وردّة الفعل والفوضى.

"منذ نيسان ١٩٧٥ بالذات، أصبحت بيروت مسرحًا لأسوأ البشاعات: مجازر، خطف، تصفيات، قصف عشوائيّ أو نسقيّ، للأحياء السكنيّة بصورة متتالية"[٢١].

جرّاء حرب لا تنتهي، يتزايد عدد اللبنانيّين، الذين يسعون للرحيل إلى بلاد أُخرى، أكثر أمانًا ورأفة بهم. هذا الوضع المتردّي خلق موجة اغترابيّة كثيفة، من شأنها لو استمرّت أن تفرغ البلد من طاقاته البشريّة وتتركه تحت رحمة هذه الميليشيات، أو تلك. لأنّ المدّ الاغترابيّ اللبنانيّ إلى أفريقيا الغربيّة الذي أقلق كامل مروّه[٢٢] منذ ثمانية وأربعين عامًا، قد تجاوزته الأحداث فتضاعفت أعداد المغتربين، وأصبح الرحيل ردّة الفعل والجواب الوحيد المقنع، عندما يثار الجدل حول المعضلة اللبنانيّة.

١٩- أُنظر فهرس المراجع، مقالة حافظ إبراهيم خير اللّه.

٢٠- جان بيير آييه. مجلّة صباح الأخوّة، عدد ٢٧/١٠/١٩٨٢.

٢١- معين حدّاد، المرجع السالف، ص ٣٢٦.

٢٢- كتب كامل مروّه عام ١٩٣٨: "بين عامي ١٩٠٧ و١٩٢٧، اضطرّ ١٣٠٠٠٠ لبنانيّ و٢٢٠٠٠٠ سوريّ للرحيل طلبًا للأمان والثروة. ضَعُفَ هذا المدّ الاغترابي بين عامي ١٩٣١ - ١٩٣٢، نتيجة

الواقع أنّ أسباب الحرب الداخليّة تبدو مستعصية على الفهم، ونحن نتساءل إذا كان كافيًا وعاملاً منقذًا اعتبار أنفسنا ضحايا الآخرين على أرضنا، في ظلّ حرّية هي أقرب إلى الفوضى!

"هل يكون لبنان "مكسر العصا" في الشرق الأدنى، بحكم تنوّع تكوينه الطائفيّ؟

كلّ ما يجري في هذه المنطقة الصاخبة ينعكس إسقاطات على لبنان، لا مجال لتداركها. غير أنّني أُسارع إلى القول إنّ لبنان هو قبل كلّ شيء هيكل الحرّية. لذا حدث فيه كلّ ما حدث.

كلّ ما لا يمكن قوله في هذه المنطقة، قيل ويُقال في لبنان.

كلّ ما لا يمكن أن يُذاع في هذه المنطقة، قد أُذيع ويذاع في لبنان.

كلّ ما لا يمكن أن يُكتب في هذه المنطقة، كُتب ويُكتب هنا في لبنان.

الإيديولوجيّات الغربيّة تتصارع في لبنان، والتناقضات العربيّة تتصارع هي الأُخرى على أرضنا.

الحرب الأهليّة في لبنان هي أهليّة فقط بضحاياها.

ولم تكن طائفيّة إلاّ في تصوّر صحافة معيّنة، تبحث عن الإثارة. وهي لم تكن حربًا طبقيّة على الإطلاق، كما زعم بعضهم"[٢٣].

ومع ذلك فالمدنيّون ينخرطون بلا وازع في صفوف الميليشيات. بإسم الحرّية (أهمّ أسباب وجودنا)، ترتكب الفظاعات؛ والحرب تكتسي اليوم وبكلّ أسف، مظهرًا طائفيًّا صرفًا، يشعل أوارها تفسّخ اجتماعيّ صارخ. فلو لم تكن أرضنا تربة

الأزمة الصناعيّة العالميّة، في حين بلغت الهجرة بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٧، ذروتها، باغتراب أربعة آلاف شخص.

٢٣- من مقال للأمير فاروق أبي اللمع في مجلّة "الشرق الأدنى والعالَم الثالث - لبنان". بمناسبة الذكرى السنويّة الأولى لانتخاب الرئيس أمين الجميّل، ١٩٨٣، ص ٨٠.

خصبة للنزاعات، لذهبت كلّ أشكال التدخّل الخارجيّ أدراج الرياح، ولظلّت الحرّية في بلادنا نعمة خيّرة، لا نقمة مدمّرة.

جدول إجماليّ لأسباب الاغتراب اللبنانيّ منذ القِدم وحتى اليوم

أسباب الاغتراب	الأسباب الدافعة (المنفّرة)	- الأحداث الدامية التي تعصف دومًا بلبنان. - الأسباب ذات الطابع الاقتصاديّ. - الأسباب ذات الطابع السياسيّ - الاضطهاد الدينيّ. - وصول الأقليّات العرقيّة إلى لبنان
		تسهيلات وإعانات ماليّة من شركات السفر البحريّ. - المراسلات والإعانات المرسلة إلى الأهل. - السياحة ودور الإرساليّات. - نداء الإخوة. - المجاعة عامَي ١٩١٦ - ١٩١٧ . الملاريا والحمىّ الصفراء.
	الأسباب الجاذبة	- أصداء النجاح والثروة الآتية من بلاد الاغتراب. - الأسباب النفسيّة: من رغبة في تحسين الوضع الماليّ السيّء. - هروب نتيجة خيبة أمل عاطفيّة.

رابعًا: الخصائص العامّة لحركة الاغتراب اللبنانيّ

١ - لم تكن الهجرة في القرن التاسع عشر حركة مستقلّة بذاتها أو مستجدّة في تاريخ لبنان.

إنّ جذورها راسخة لدى الشعوب الأُخرى (كالإيطاليّين والألمان والأميركيّين).

لقد ورث اللبنانيّ عن أجداده، ميلاً طبيعيًّا واستعدادًا للاغتراب، كما لو أنّ قدره هو الترحال الدائم!

"اليوم أكثر من أيّ وقت مضى، يرتسم مستقبل اللبنانيّين ضمن إطار التنقّل والترحال... لكأنّ مهنتنا الأصليّة هي الحركة الدائمة، لا نكاد ننهي دورة العالَم لنبدأها من جديد، ونستقرّ في نهاية المطاف، بعيدًا عن أرضنا. فالاغتراب نشر الوجود اللبنانيّ في كلّ أرض وتحت كلّ سماء.

لا يوجد بلد في الدنيا إلاّ واستقرّ فيه لبنانيّون، وهذا أمر قديم قدم التاريخ نفسه. غير أنّ المستقبل يعدنا بمزيد من جولات الهجرة، إذ أنّه ليس باستطاعتنا أن نحجّم طاقاتنا ضمن أرضنا الصغيرة الضيّقة، من دون أن نختنق[٢٤]. فاللبنانيّ وهو أبعد ما يكون عن الشوفينيّة، اقتبس عن العرب ملاحم التغنّي بالماضي المجيد. في هذا السياق نورد ما كتبه جان - لويس فودوايبه عن نشاطات أجدادنا الفينيقيّين في كتابه "روعة بروفنسيا":

"كانوا يمسكون بزمام الأُمور، في البحار المعروفة وغير المعروفة على حدّ سواء. ينشئون مؤسّساتهم التجاريّة الزاهرة في الأماكن المناسبة. فيأتون ويذهبون ثمّ يعودون. إنّهم ليسوا مستعمِرين، وإنّما تجّار وسطاء ومستوردون يجوبون البحار كما يجوب البائعون الجوّالون أريافنا... كانوا مسالمين، مرنين، ويعملون بتكتّم شديد. **لقد كانت مصادر ثروة صور في أقاصي العالَم**".

إنّ من أسباب حركة الاغتراب اللبنانيّ، عوامل سياسيّة ودينيّة، فهي ليست اقتصاديّة صرفة. وهي تكتسي طابعًا عائليًّا، لأنّ اللبنانيّ يحمل معه تقاليده وعاداته وديانته وطرق معيشته. كما أنّ المغترب الذي ينطلق بمفرده، سعيًا وراء الثروة، يتكيّف بسهولة مع أُسلوب الحياة في البلد المضيف، ويستقرّ فيه بشكل نهائيّ[٢٥]...

خامسًا: تاريخ وصول اللبنانيّين إلى أفريقيا الغربيّة

أ - السنغال: باب الولوج إلى أفريقيا الغربيّة

لأسباب سبق ذكرها:

٢٤- ميشال شيحا، المرجع السابق، ص ١٣٧ - ١٣٨.

٢٥- رغم أنّ المهاجر لا ينفكّ يحلم بالعودة المظفّرة إلى وطنه، ولو في أواخر أيّامه.

- جدب الأرض.
- الإفلات من الذلّ والاضطهاد العثمانيّ ثمّ من تعسّف الدولة المنتدبة.
- الاستجابة إلى الميل التجاريّ المتوارث.

بدأت حركة الهجرة نحو العالَم الجديد، تظهر في لبنان وتنشط منذ عام ١٨٦٣. غير أنّ الشروط الصحّية المطلوبة للدخول إلى الولايات المتّحدة مع نهاية القرن التاسع عشر حوّلت مسار هذه الحركة ودفعتها، عن طريق مرسيليا، نحو أفريقيا الغربيّة، وخاصّة في اتّجاه السنغال، الذي اعتبر بوابّة عبور اللبنانيّين إلى القارّة الأفريقيّة.

"ففي أواخر القرن التاسع عشر، كان بعض اللبنانيّين في طريقهم إلى أميركا، عندما توقّفوا في مرسيليا، إمّا لعجزهم عن تأدية تكاليف السفر الباهظة إلى أميركا، وإمّا لعدم استيفائهم الشروط الصحّية التي فرضتها السلطات الأميركيّة على المسافرين إليها. ومنهم من عدلوا عن رحلتهم الطويلة، إذ أقنعهم وسطاء فرنسيّون وشرقيّون، بإيعاز من شركات الملاحة البحريّة، بمتابعة سفرهم إلى أفريقيا الغربيّة، خاصّة دكار، سان لويس وكوناكري. ومن المعروف أنّ نجاحهم في تجارة الكشة أبقاهم هناك وضاعف أعدادهم، كما كان سببًا في انتشارهم في مختلف بلدان القارّة الأفريقيّة ، ولا سيّما المنطقة الغربيّة منها"[٢٦].

أمّا الزعم القائل بأنّ نفرًا من اللبنانيّين قد هبطوا وعاشوا في سان لويس على أنّها أميركا، فهو نابع على ما يبدو من خيال مجنّح، ساعد في إيجاد ملحمة الاغتراب اللبنانيّة، التي لا تزال تُحاك الروايات حولها.

ولا نخال أنّ السبب الوحيد لوصول اللبنانيّين إلى أفريقيا، هو استحالة ذهابهم إلى أميركا. فالسلطات الفرنسيّة المستعمرة، كانت تشجّع الهجرة إليها، بقصد تنمية العمل في قطاع المحاصيل الزراعيّة المعدّة للتصدير: مثل جني الفستق في السنغال، وجمع البنّ والكاكاو في ساحل العاج.

وحين وُضع لبنان تحت الانتداب الفرنسيّ من قِبَل عصبة الأمم، صدّر إلى أفريقيا الغربيّة الكثير من الطاقات البشريّة، التي تحتاجها. لذا عَمَدَت القنصليّة الفرنسيّة في بيروت

٢٦- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ١٠.

ولمدّة طويلة، إلى إعطاء المزيد من التسهيلات، دعمًا لحركة الهجرة، ممّا لاقى صدىً إيجابيًّا في نفوس اللبنانيّين، المفطورين على حبّ الاغتراب.

ولئن ظلّ التاريخ الدقيق لبدء الهجرة المشرقيّة إلى أفريقيا مجهولاً، فإنّ كامل مروّه يؤكّد أنّها بدأت حوالى عام ١٨٨٠، وهو تاريخ نرجّح صحّته. كما يذكر أنّ عدد المغتربين كان أربعمائة عام ١٩٠٠، منهم مئتان وستّة وسبعون في السنغال وغينيا والسودان الفرنسيّ، وقدّر أن يكون العدد قد تجاوز العشرة آلاف عام ١٩٣٨، انتشروا في أفريقيا الغربيّة[٢٧]، وفقًا للجدول التالي[٢٨].

البلد					
مستعمرات فرنسيّة		**مستعمرات إنجليزيّة**		**مستعمرات أخرى**	
السنغال	٤٤٠٠	غامبيا	٣٥٠	غينيا البرتغاليّة	٤٠٠
السودان الفرنسي	٤٠٠	سيراليون	١٠٠٠	ليبيريا	١٠٠
غينيا	١٦٠٠	غانا	١٠٠٠	توغو	٨٠
ساحل العاج	٧٠٠	نيجيريا	٧٠٠		
داهومي (بنين)	٤٠				
نيجر	١٠				
موريتانيا	٢٠				
المجموع	**٧١٧٠**	**المجموع**	**٣٠٥٠**	**المجموع**	**٥٨٠**
المجموع الكلّي: ١٠٨٠٠					

على الرغم من الجهود التي بذلتها السلطات المحلّية للحدّ من المدّ الاغترابيّ، إضافة إلى الشروط التعجيزيّة التي فُرضت على من يرغب في السفر إلى أميركا، فالرغبة في الهجرة ظلّت ملحّة في نفوس اللبنانيّين، الذين سرعان ما غيّروا وجهة سفرهم.

"كنّا على علم بالأسباب الاقتصاديّة العامّة التي تدفع بأحفاد التجّار والبحّارة الصوريّين

٢٧- كامل مروّه، "نحن في أفريقيا"، ص ١٩٣.

٢٨- يقارن بالانتشار الحاليّ للبنانيّين، وفقًا للخارطة رقم ٨.

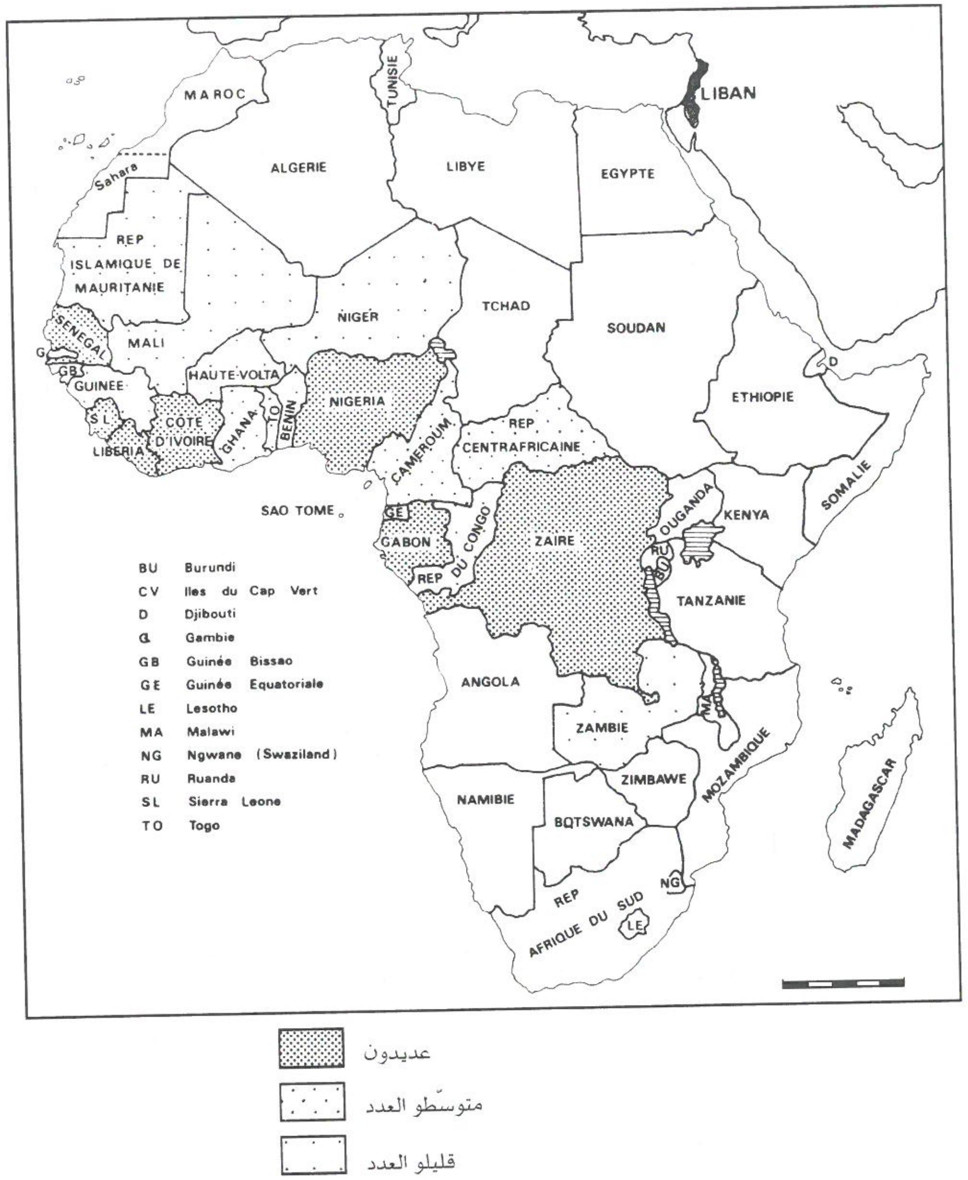

مصوّر رقم ٨:
خارطة انتشار اللبنانيّين في أفريقيا الغربيّة والوسطى.

والصيداويّين إلى الاغتراب... إلاّ أنّ وجودهم في السنغال في مطلع القرن عائد في الغالب إلى نداءات حكّام هذا البلد، ولا سيّما نداء الحاكم العامّ "روم"، صاحب الاهتمام الأوّل بتوسيع قطاع جني الفستق في السنغال. حالما نقلت السفارة الفرنسيّة في بيروت هذه النداءات إلى اللبنانيّين، عمد بعض تجّار المحاصيل إلى توجيه حركة الاغتراب نحو أفريقيا"[٢٩].

وفقًا لرأي رينيه شاربونّو، وصل اللبنانيّون - السوريّون مطلع القرن العشرين إلى السنغال من دون غيره من بلدان أفريقيا، وازداد عددهم هنالك وفقًا للجدول التالي:

اللبنانيّون في السنغال

السنة	العدد
١٩٠٠	٩٩
١٩٠٩	٢١١
١٩١٤	٥٠٠
١٩٢٩	٢٠٨٨

ب - شروط الدخول إلى افريقيا الغربيّة الفرنسيّة

في مطلع عهد الاستعمار وحينما كان الحكّام منصرفين إلى توطيد السلام ورسم الحدود، كانت القارّة الأفريقيّة مفتوحة أمام القادمين من جميع الاتجاهات.

غير أنّ السلطات المستعمِرة، وفي مرحلة الحكم الإداريّ، فرضت شروطًا مقيّدة على دخول البلاد، فانعكس تأثيرها سلبًا على اللبنانيّين - السوريّين الذين كانوا أكثريّة آنذاك.

عام ١٩١٧، حرّمت نصوص القانون رقم ١٧٢٧ - الذي أصدره لويس الرابع عشر - على الغرباء ممارسة التجارة في مستعمرات فرنسا الأميركيّة، وطُبّق هذا القانون في المستعمرات الفرنسيّة في أفريقيا الغربيّة حتّى عام ١٩٢٥[٣٠] حيث أُلغي، ليحلّ محلّه

٢٩- رينيه شاربونّو، اللبنانيّون السوريّون في أفريقيا السوداء، ص ٥٨.
٣٠- كامل مروّه، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

قانون آخر يضمن للمغتربين ممارسة كلّ حقوقهم المدنيّة، بما فيها حقّ تعاطي التجارة. ومنذ ذلك الحين لا تزال قيودٌ تُفرض أو تُلغى وفقًا للحالة القائمة.

ويمكن الإطّلاع في محاضر غرفة التجارة في مستعمرة ساحل العاج، على تظلّمات تطلب الحدّ من وصول الغرباء، بخاصّة اللبنانيّين منهم. ومنذ العام ١٩١٠، اعتُمِدَت شروط أُخرى للحدّ من موجة الاغتراب.

كما صدر قرار مؤرَّخ في السابع من كانون الأوّل عام ١٩١٠، وقّعه الحاكم غي، وصادق عليه الحاكم العامّ بونتي، يحدّد بصورة نهائيّة الإجراءات الفعّالة الواجب اتّباعها، لإحاطة دخول المغترب بالضمانات الضروريّة. ونورد هنا نصّ القرار المذكور.

المادّة الأولى: لا يُسمح بدخول أيّ مهاجر إلى المستعمرة إلاّ بعد إبراز وثيقة ولادة وسجلّ عدليّ يثبت أنّه غير محكوم، وإنْ تعذّر فيُستعاض عن هذا السجل بوثيقة صادرة عن السلطة الدبلوماسيّة يعود تاريخها إلى أقلّ من سنة. ولا يعتدّ بهذه الوثائق ما لم تكن رسميّة، مترجمة إلى اللغة الفرنسيّة مصدَّقة، ومرفقة بصورة شمسيّة مصدّقة لصاحب العلاقة.

المادّة الثانية: يمنع نزول أيّ مهاجر إلى المستعمرة ما لم يعاينه الطبيب المحلّيّ المختصّ. ويزوّده بشهادة تثبت خلوّه من الأمراض المنصوص عليها في المادّة الأولى من القرار الصادر في ٢٤ تشرين الأوّل ١٩١٠، ومن أيّ مرض جلديّ مُسبّب للعدوى.

المادّة الثالثة: على كلّ مهاجر يصل إلى المستعمرة، أن يودِع لدى الموظّف الإداري المنتدب لهذه الغاية، المبلغ الكافي لتأمين عودته إلى أوروبا.

كلّ مخالفة لأحكام هذا القرار تعرِّض المخالف لعقوبة السجن من يوم إلى خمسة أيّام...".

إنّ تفحّص جوانب التشدّد في هذا القرار، يدفعنا إلى التساؤل عن طبيعة الإجراءات التعسّفيّة التي طبّقتها السلطات الأميركيّة مطلع هذا القرن، والتي غيّرت مسار الاغتراب، باتّجاه أفريقيا الغربيّة.

لسنا بحاجة للتذكير بمدى تأثير هذه المضايقات التي أثارت مخاوف اللبنانيّين في بادئ الأمر، الذين ما لبثوا أن اعتادوا عليها كواقع. غير أنّ هذه الإجراءات قد تضاءلت، بعد

الحرب العالميّة الأولى، ولم يعد الوافد الجديد، مجبرًا على تأمين مبلغ يضمن عودته إلى الوطن الأُمّ، بل يكفي أن يقدّم أحد التجّار كفالة لمصلحته. إنّ قوانين الهجرة إلى أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة، قد طالها الكثير من التعديلات، تارة لتشجيع وصول الغرباء، وطورًا لإيقاف تدفّقهم أو للحدّ منه.

الفصل الثالث

وصول اللبنانيّين إلى ساحل العاج

يُشكِّل الوجود اللبنانيّ في أفريقيا الغربيّة، على ما كتب جان بواريه، مسألة نموذجيّة في علم الاجتماع، هي مسألة التعايش بين أقليّة وافدة من منطقة الشرق الأوسط، مهد الفن الحرفيّ والحضارة التقنيّة والتجارة، وبين أكثريّة غرب أفريقيّة عرفت بلادها، لأربعة عقودٍ خلت، نموًّا مضطردًا يسترعي الاهتمام...

وإذا ما كان البحث في تاريخ الهجرة اللبنانيّة إلى أفريقيا الغربيّة بشكل عامّ يتعدّى نطاق هذا البحث المحدّد ميدانيًّا وجغرافيًّا، فلا بدّ من الاكتفاء بالإضاءة على واقع الهجرة اللبنانيّة في أحد أهمّ مغتربات اللبنانيين في أفريقيا الغربيّة: ساحل العاج.

١ - لمحة تاريخيّة.

٢ - الإنتماء الجغرافيّ للّبنانيّين.

٣ - الإستقرار والتضامن.

١ - لمحة تاريخيّة

"إنّ ازدياد الطلب العالميّ على المحاصيل الاستوائيّة ووجود الوصاية الفرنسيّة، بالإضافة إلى تحديد النِّسب السنويّة للمهاجرين إلى الولايات المتّحدة منذ العام ١٩٢١، حرّكت باعث الهجرة ودفعته قُدمًا باتّجاه المستعمرات الفرنسيّة والإنجليزيّة في أفريقيا الغربيّة. وكان ساحل العاج من بين هذه المستعمرات التي عرفت منذ العام ١٩٢٤، نموًّا مضطردًا لا سابق له، وعكست صورة روضٍ جميلٍ حافلٍ بأغنى البشائر"[١].

ويؤكّد بعضهم أنّ نفرًا من اللبنانيّين كانوا قد وصلوا قبل هذا التاريخ إلى ساحل العاج[٢]،

١ - ألان تيرفور، "الزمن الطيّب"، ص ٥٩.

٢- "ذكريات من الأدغال"، ل.م. سيمون، مدير المستعمرات. وفيها أنّ خليل شاوول هو السوريّ الوحيد في المستعمرة عام ١٩٠٧.

ومن بين هؤلاء سعيد وأسعد منصور، المتحدّرَين من قرية لبنانيّة[٣] صغيرة في منطقة الشويفات، وقد نزحا عام ١٩٠٧ من السنغال وأسّسا في ساحل العاج شركة تُعرف باسم "الشركة التجاريّة الأفريقيّة". وكان أحدهما فرنسيًّا بالتجنّس، لذا لم يُطرد من ساحل العاج حين حرّمت سلطات الاستعمار على الغرباء من غير الفرنسيّين الإقامة في هذا البلد[٤].

في أعقاب الأزمة الاقتصاديّة العالميّة، ابتداءً من العام ١٩٣٠، فُتحت أبواب الهجرة في هذه المستعمرة أمام الغرباء، فوفد إليها اللبنانيّون بأعداد كبيرة من مختلف بلدان أفريقيا الغربيّة، مثل السنغال، غانا، غينيا والسودان الفرنسي إلخ... تُبيِّن الجداول التالية ازدياد عدد المهاجرين إلى هذه المستعمرات في التواريخ المبيَّنة في محاذاتها:

السنة	عدد اللبنانيّين	عدد الأوربيّين غير الفرنسيّين
١٩٠٨[٥]	٣	٩٧
١٩٠٩	٤	١٠٠
١٩٢٣	٥٦	---
١٩٢٩	١٨٣	٥٣٥
١٩٣٠	٢٤٣	٥٢٩
١٩٣١	١٤٨	٥٢٤
١٩٣٢	١٧٤	٣٥٥
١٩٣٣	٢٥٠	٥٣٠
١٩٣٦	٤٥٤	٥٩٩
١٩٣٨	٧٠٠	٩٠٠

عن كامل مروّه

٣- دير قوبل.

٤- كامل مروّه، المرجع السابق، ص ٢١٨.

٥- آلان تيرفور: عام ١٩٠٥ لم يكن في سجلاّت نفوس "غران بسّام" سوى وثيقة ولادة واحدة، لابن قدري عبدول (وهو تاجر محاصيل عمره ٣٠ سنة).

إزدياد عدد أفراد الجالية اللبنانيّة - السوريّة في ساحل العاج

السنة	العدد الإجماليّ للّبنانيّين	رجال	نساء	أطفال	نسبة اللبنانيّين المئويّة إلى الفرنسيّين
١٩٠٤	لا شيء				٠ ٪
١٩٠٨	٣				
١٩٠٩	٤				
١٩١٧	٢				٠,٣٪
١٩٢١	٢ أو أكثر				
١٩٢٣	٥٦				
١٩٢٦	٧١	٥٣	١٤	٤	٥٪
١٩٢٩	١٨٣	١٤٧	١٧	١٩	
١٩٣٠	٢٤٣	١٩٠	٢٧	٢٦	
١٩٣١	١٤٨				٧,٢٪
١٩٣٢	١٧٤				
١٩٣٣	٢٥٠	١٨١	٣٢	٣٧	١٠,٨٪
١٩٣٤	١٩٦	١٢٧	٣٢	٣٧	
١٩٣٥	٣٢٢				١٢,٣٪
١٩٣٦	٥٤				
١٩٣٧	٥٨٨				
١٩٣٨	٥١٣[٦]				١٧,٣٪
١٩٣٩	٦٧٨				١٩,٥٪
١٩٤٠	٨٣٥				٢٢,٥٪

عن الأرشيف الوطنّي لساحل العاج

٦- يعطي كامل مروّه الرقم ٧٠٠ لعدد المهاجرين سنة ١٩٣٨ فيما الأرشيف الوطنيّ لساحل العاج يثبت أنّ العدد هو ٥١٣ في السنة نفسها .

من الملاحظ أنّه منذ فجر الهجرة، كانت غالبيّة القادمين إلى هذا البلد من الشبّان والعازبين. ففي المستعمرة بأكملها، كان عدد النساء ستّاً وخمسين فقط.

إن تفحّص هذه الجداول يظهر بوضوح أنّ ٤٠٩ فقط من أصل الـ ٧٠٠ لبنانيّ الموجودين في ساحل العاج عام ١٩٣٨، قد استقرّوا وتحدّدت أوضاعهم في أماكن معيّنة. لأنّ تكتّم المهاجر وامتناعه عن تحديد وضعه ومكان إقامته عبر استمارات الدولة، لا يزال قائمًا حتّى يومنا هذا، ولسوف يزداد بنسبة ازدياد تدهور الوضع في لبنان. تعليل هذا التكتّم هو تخوّف اللبنانيّ من احتمال وجود قوانين تحدّد عدد الوافدين إليها (كوتا). وبالتالي ،فإنّ هاجس الإبعاد يبقى نصب عينيه، على الدوام.

وإذا كانت الأرقام المذكورة قابلة للنقاش أو يشوبها احتمال الخطأ، فإنّ التواريخ المقابلة لها مثبتة بمجموعة من الشواهد والبيّنات:

أ - البيّنات الشفويّة

أثبتت المقابلات التي أجريناها مع عدد من مُسنّي الجاليتين اللبنانيّة[٧] والفرنسيّة[٨]، **أنّ اللبنانيّين قدموا في مطلع هذا القرن إلى ساحل العاج،** الذي كان يعرف فيما مضى

٧- منهم: عبد اللطيف فخري (المتوفّى عام ١٩٨٢)، والذي قدم من دكار عام ١٩٢٦، وعقيل برّو القادم من السودان الفرنسيّ عام ١٩٣٠، اللذان صرّحا بأنّهما عرفا عددًا من اللبنانيّين الذين أقاموا في ساحل العاج قبل مجيئهما بمدّة طويلة (غنمي، صعب، برجي) إلخ...

٨- صرّح السيّد ماسيي خلال مقابلة أجريناها معه في مكتبه بشركة ساسي التي كان يرئس مجلس إدارتها في أبيدجان بتاريخ ١٩٨٢/٤/١٤ "إنّني هنا منذ ستّين سنة. لقد بدأت حياتي العمليّة موظّفًا لدى ميشال نعمه عام ١٩٢٣"، الذي كان يعمل بين مرسيليا في فرنسا وبواكيه في ساحل العاج. وماسيي يرى أنّ اللبنانيّين هم مثل رعايا كلّ البلدان ذات المساحات الضيّقة توّاقون للنزوح، وأنّهم لم يجدوا صعوبة ليستقرّوا في أفريقيا الغربيّة، ويؤمّنوا حاجة المواطنين الأفارقة وإقامة علاقات وثيقة معهم.

- كما يؤكّد السيّد فيرّاس أنّه التقى بعدد كبير من اللبنانيّين المقيمين في ساحل العاج لدى وصوله إلى هذا البلد عام ١٩٣٣، ومن هؤلاء سبيريدون حدّاد وشريكه نعمان قبطي في أبيدجان، وأبو ضاهر الذي كان صلة الوصل بين بواكيه وباماكو (السودان الفرنسي). وخليل السبع في أوميه، الذي كان أشهر قنّاص للفيَلة بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٤٥، ثمّ أبو جودة في غنوا، ومحمّد مكّي، وهو أوّل

باسم "الجبهة"، وكان مقصد المعدمين. أمّا مناخ هذه الأرض، الغنيّة بالوعود، فكان ضارًّا للغاية، إذ أنّ عددًا كبيرًا من الوافدين الذين أُصيبوا بالملاريا والحمّى الصفراء المسمّاة (فوميتو نغرو)، قد قضوا قبل أن يتمكّن الطبّ الاستوائيّ من اكتشاف مضادات الأمراض المستنقعيّة. وبما أنّ مناعة الجسم الطبيعيّة كانت تتناقص نتيجة التأثير الوبيل للحرارة اللاهبة والرطوبة الشديدة، حاول المهاجر اللبنانيّ وقاية نفسه، بوضع قبّعة واسعة من الفلّين على رأسه بصورة دائمة وارتداء الثياب الفضفاضة، كما كان يخفي عينيه أحيانًا خلف نظّارات سوداء، على غرار الأوروبيّين.

برزت بعض العوامل الطبيعيّة، لتضاف إلى عامل سوء المناخ، وترسخ الانطباع بالاستقبال العدائيّ في ذهن الوافد الجديد.

"إنّ كثبان الرمال التي تسدّ مصبّات الأنهر ووجود مساقط المياه والشلاّلات السريعة الانحدار التي تعيق الملاحة النهريّة وتكاد تغلق منافذها على الأوقيانوس، قد أسهمت في ترسيخ صفة (العدائيّة) واستحالة الولوج إلى منطقة ساحل العاج المنخفض. إنّ أيًّا من هذه الأنهر الصغيرة لا يفتح عبر الغابات طريقًا يُؤمل سلوكه. وفي حين كان يجب أن تسهّل هذه المجاري التنقل في الغابات فإنّها بوضعها الرّاهن، تزيد من صعوبة ارتيادها. وهكذا نشأت في تصوّر العالَم المدينيّ أسطورة جنائزيّة، جعلت من ساحل العاج أرض الهلاك، حيث لو تجاسر بعضهم بالبقاء هناك، فإنّهم يسعون حتمًا إلى حتفهم المشؤوم"[٩].

مغترب أقام في بلدة أغبوفيل، والياس حدّاد في أبواسّو، وريمون أبو خليل في داوكرو، وعتيّق في فركيه الذي أنشأ أوّل مزرعة لتربية الخنازير في البلد. وكان في ساحل العاج، وهو أكبر مصدّر للكولا، مركزان رئيسيّان لهذه التجارة، أحدهما في دالوا والآخر في أغبوفيل، ونقابة يرأسها اللبنانيّ محمّد مكّي، ذلك قبل أن يضع تجّار الـ(ديولا) يدهم على هذه التجارة. كان هذا المنبّه الذي يستهلكه مسلمو أفريقيا بكثرة يُنقل بالشاحنات إلى باماكو ودكار وغينيا... ردًّا على سؤال، نفى السيّد فيرّاس معرفته بأيّ لبنانيّ تعاطى تجارة الكشّة، التي كانت واسعة الانتشار في أوساط المسلمين الأفارقة (ديولا). وفقًا لرواية فيرّاس نفسه، كان بعض اللبنانيّين يجوبون المناطق الداخليّة أيّام الآحاد، بشاحناتهم المحمّلة بالبضائع الرائجة، الكثيرة الاستهلاك. **وهذا ما يميّز بدايات الهجرة اللبنانيّة في ساحل العاج، عنها في أميركا والسنغال حيث تعاطى المهاجرون الأوائل تجارة الكشّة.**

٩- آلان تيرفور، المرجع السالف، ص ٢٢.

ب - المعلومات الرسميّة

لدى الإطّلاع على المحاضر الرسميّة لغرفة التجارة في أبيدجان، والتي يعود تاريخها إلى مطلع القرن العشرين، تبيّن لنا أنّ هذه المحاضر تحتوي في غير مكان منها على كلمة سوريّ وكلمة لبنانيّ - سوريّ.

٢ - لدى الكشف على الأرشيف الوطنيّ لساحل العاج الذي يؤرّخ لمرحلة ما قبل سنة ١٩٢٥، عثرنا على معلومات عن بعض اللبنانيّين يعود تاريخها إلى العام ١٩٢٢:

"بسّام في ١١ كانون الثاني ١٩٢٢. لي الشرف أن أرسل لكم ستّة كتب باللغة العربيّة، أُخذت من خمسة طرود بريديّة مرسلة إلى السيّد حسين صعب، وذلك لإجراء الرقابة الخاصّة بها".

"لي الشرف أن أحيطكم علمًا أنّ عشرين طردًا بريديًّا تحتوي على مؤلّفات كتبت باللغة العربيّة، قد وصلت إلى بسّام على عنوان المدعوّ محمّد برجي".

٢ - الإنتماء الجغرافيّ للّبنانيّين

تعميمًا للفائدة وعلى خطٍّ موازٍ لنتائج ٣٠٠ إستمارة من بحثنا تشير إلى الانتماء الجغرافيّ لأفراد الجالية اللبنانيّة حاليًّا، نودّ أن نذكّر بالنتائج التي توصّل إليها آلان تيرفور لدى إطّلاعه على سجلاّت الأحوال الشخصيّة للّبنانيّين بين العامين ١٩٤٥ - ١٩٦٠، في أربعة مراكز كبيرة من ساحل العاج.

في بنجرفيل بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٦٠: عدد أفراد الجالية اللبنانيّة ضئيل جدًّا ينتمون بأصلهم (١٠٠٪) إلى الجنوب اللبنانيّ، ٦٦٪ منهم من صيدا و٣٣,٣٪ منهم نازحون من صور[١٠]. في غران بسّام: كان اللبنانيّون أكثر عددًا خلال المرحلة نفسها، ٦٦٪ منهم نازحون من صيدا وصور و٢٧٪ منهم من قرى الوسط. أمّا الباقون منهم فقادمون من الشمال ٤,٨٪ ومن شرقي لبنان (البقاع) ١,٥٪. في بواكيه كان عدد اللبنانيّين ٦٣ شخصًا بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٤٦ وهي نسبة مرتفعة، يعود أصلها إلى منطقة الشمال (البترون) بنسبة

١٠ - آلان تيرفور، يضمّ جميع قرى لبنان الجنوبيّ إلى مدينتي صيدا وصور.

٤٨,٩٪ وبالنسب: ٤٢,٥٪ إلى الوسط (المتن)، ٢,٢٪ فقط إلى الجنوب، و٦,٤٪ لم يحدّد انتماؤهم بسبب عدم استقرارهم.

أخيرًا في مان وفي المرحلة عينها، كانت نسب اللبنانيّين كما يلي:

٥٠٪ ينتمون إلى مناطق الوسط, ٤١,٦٪ إلى الجنوب و٨,٤٪ فقط إلى الشمال.

إنّ الأرقام الآنفة الذكر تستدعي تدوين الملاحظات التالية:

١ - لو استثنينا بواكيه، نلاحظ أنّ هذه المدن تستوعب نسبة عالية من الوافدين، الجنوبيّين. وتعليل هذا الأمر أنّ الجنوب منطقة فقيرة، يقطنها المسلمون الشيعة. فالفئة الأكثر حرمانًا هي دومًا الأكثر عرضة للمغامرة والهجرة.

٢ - أمّا بواكيه فقد عرفت في عهد الاستعمار سيلاً من مهاجري الشمال والوسط (وهي مناطق تقطنها غالبيّة مسيحيّة). فبدت بواكيه وكأنّها مدينة اللبنانيّين المسيحيّين[١١] التي تعكس وضع الهجرة اللبنانيّة في القرن التاسع عشر إلى العالم الجديد حيث "كانت الدوافع ذات الطابع الدينيّ تضفي على الهجرة لونًا طائفيًّا معيّنًا، بمعنى أنّ غالبيّة المهاجرين اللبنانيّين في ذلك العصر كانوا من المسيحيّين الموارنة"[١٢].

٣ - إنّ وجود غالبيّة من المهاجرين في هذه المدينة أو تلك من ساحل العاج، سواء كانوا من الجنوب أو الشمال يعود إلى وجود نوع من التضامُن المناطقيّ بين أبناء هذه المنطقة أو تلك، وكان الوافدون الأوائل من المهاجرين إلى ساحل العاج يستدعون ذويهم أو أصدقائهم، المنتمين بالضرورة إلى بلدتهم أو منطقتهم. على سبيل المثال، فالمسيحيّ الذي يغادر لبنان، كان يسمع هذا النداء لدى وصوله إلى ساحل العاج: تعال واستقرّ في بواكيه، فإنّك لا شكّ واجد فيها أخًا مسيحيًّا لك[١٣].

١١ - هذه الحقيقة لا تزال سارية حتّى أيّامنا وهي تنطبق على مدينة دالوا.

١٢ - إيلي صفا، المرجع السابق، ص ١٥٨.

١٣ - ناكي بوازو، (اللبنانيّون في ساحل العاج)، ص ٣١، هامش ص، ١٥٤.

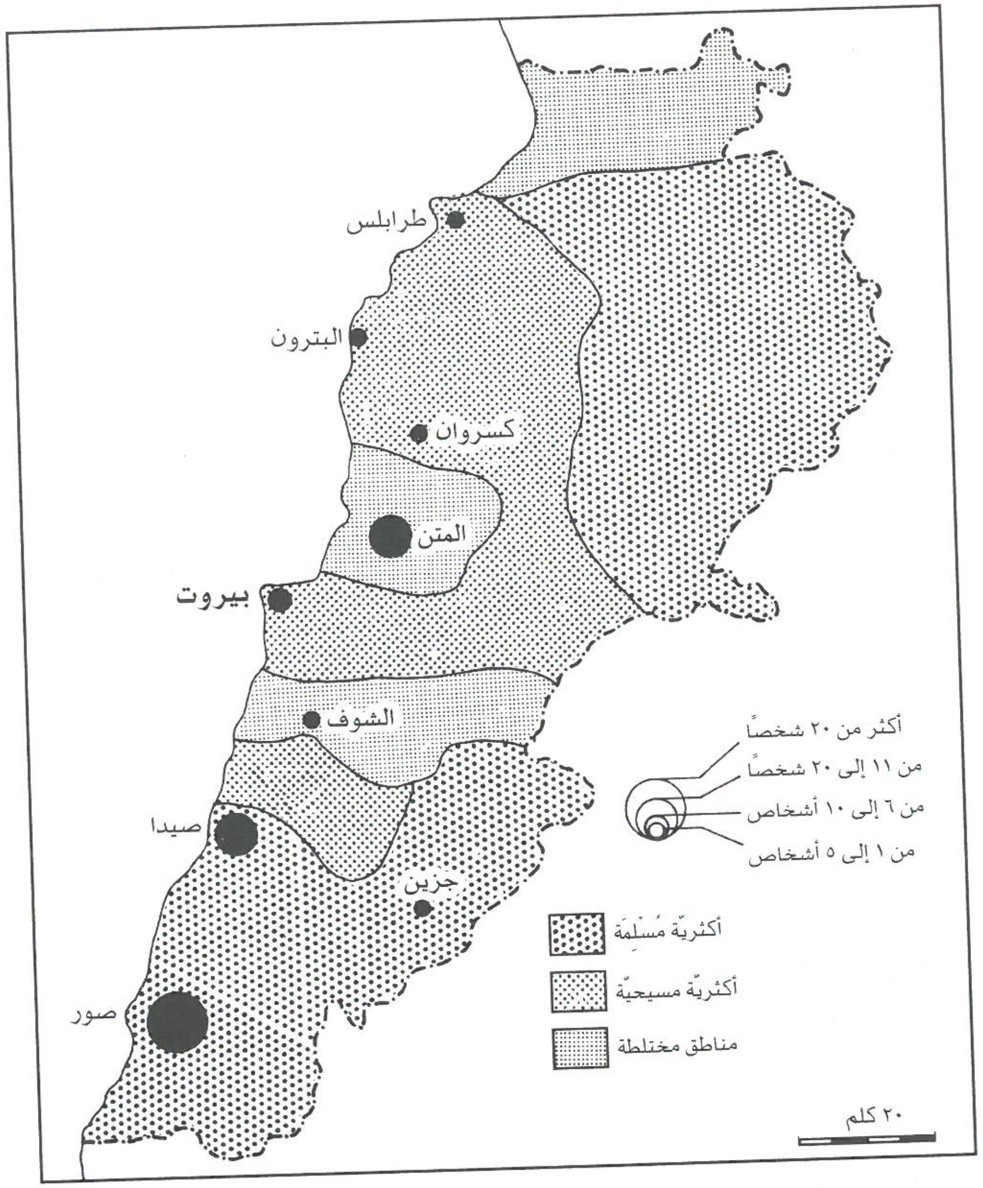

مصوّر رقم ٩:
خارطة الانتماء الجغرافيّ للبنانيّين في أبيدجان (١٩٤٥ - ١٩٦٠).

٣ - الإستقرار والتضامن

كان المهاجر يصل بمفرده سعيًا وراء المال، وحالما يلمس أيّ تحسّن في وضعه الاقتصاديّ، كان يستدعي زوجته أو أخاه أو ابن عمّه لمؤازرته في عمله.

والمساعدات الماليّة التي كان يرسلها المهاجر إلى ذويه، بالإضافة إلى الرسائل التي تروي حكايات ارتقائه سلّم النجاح، كانت تثير في نفوس الجيران والأصدقاء الرغبة الجامحة في النزوح. لدى وصول هؤلاء إلى ديار الهجرة، كانوا يتلقّون على الفور المساعدة من إخوانهم المنتمين إلى البلدة نفسها.

وهذا المسار العفويّ للأمور أدّى إلى خلق تكتّلات إقليميّة، حدت بالرعايا الوافدين من القرية نفسها إلى التجمّع في البلد نفسه أو حتّى في المدينة نفسها من ديار الغربة.

الانتماء الجغرافيّ	البلد المضيف
الزرارية / جنوب لبنان	السنغال وساحل العاج
قانا / جنوب لبنان	السنغال وساحل العاج
جويا / جنوب لبنان	نيجيريا وغينيا
طرابلس / شمال لبنان	غانا (ساحل الذهب)
مزياره / شمال لبنان	نيجيريا
صور / جنوب لبنان	السنغال وسيراليون
النبطيّة / جنوب لبنان	السنغال وساحل العاج - وهم حاليًّا أكثريّة في الغابون
حاريص / جنوب لبنان	سيراليون وحاليًّا زائير
أنصار / جنوب لبنان	ليبيريا مع قلّة منهم بدأت تفد إلى ساحل العاج

على الرغم من المساعدات الوفيرة المقدّمة إلى الوافدين الجدد، فإنّ استقرار المغترب لم يكن بالأمر اليسير، ولم يتسنّ له ذلك إلاّ بعد تضحيات جسيمة، قوامها حرمان النفس والجَلَد والشجاعة في المواجهة، التي تشكّل الوسائل الوحيدة المتاحة لاستكشاف الأماكن النائية...

لم يصبح اللبنانيّ الوسيط التجاريّ الذي لا غنى عنه بين الأوربيّين والسكّان الأصليّين

إلاّ بعد جهود مضنية، اضطرَّ معها أن يسكن أقاصي الأدغال الأفريقيّة، حيث تنعدم وسائل الرفاه وتبلغ ظروف المعيشة أقسى درجاتها. وفي رأي ر. شاربونّو، فإنّ تاريخ اللبنانيّين في أفريقيا يمكن تقسيمه إلى مراحل ثلاث، تقابل في إطارها العامّ ثلاثة أجيال من المهاجرين[١٤]:

"مرحلة الكفاح ثمّ مرحلة النصر وأخيرًا مرحلة المصاعب والتحوّلات وهي المرحلة الراهنة (١٩٦٨).

– مرحلة الكفاح بدأت مع مطلع القرن الماضي واستمرّت حتّى حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥. فاللبنانيّون، وقد أضناهم الكدّ والإيغال في الأدغال الإفريقيّة، أسهموا من الناحية العمليّة في تحسين الوضع الماديّ والمعيشيّ لهذه الأدغال أكثر ممّا فعله الأوروبيّون.

وهكذا عُقدت راية النصر لأبناء هؤلاء المكافحين وقطفوا ثمار جهود الآباء في مرحلة ما بعد الحرب حيث كان العالم متعطّشًا للمحاصيل الزيتيّة والبنّ والكاكاو. ولئن كان من الصعب حينها أن يغتني المرء، فقد بدا نجاح اللبنانيّين باهرًا ومثيرًا للحسد.

إلاّ أنّ هؤلاء الغرباء، ذوي التجربة الغنيّة، المسلّحين بالفطرة النادرة والقوّة البدنيّة والثقافة، قد وجدوا أنفسهم في وضع تخطّتهم فيه القوى المستجدّة الأيديولوجيّة والرأسماليّة والتقنيّة التي زعزعت أركان مجتمع كان حتّى هذا التاريخ مناسبًا لمفاهيمهم. ومع عهد الاستقلال، دخلوا في مرحلة جديدة، هي مرحلة المصاعب التي لا تزال مستمرّة حتّى يومنا هذا. ولسوف تستمرّ طالما أنّ هذه الجالية لم تطرق أبواب التجديد والتحديث"[١٥].

وإذا كان ر. شاربونّو قد وُفّق في تحليل مرحلتَي "الكفاح والنصر" للهجرة اللبنانيّة في أفريقيا السوداء، فإنّه جانب الصواب في تحليله "لمرحلة المصاعب".

لأنّه إذا كان المهاجرون عمومًا قد عانوا الأمرَّين، نتيجة المتغيّرات السياسيّة والاقتصاديّة لعهد الاستقلال، فاللبنانيّون ما لبثوا أن تكيّفوا مع المعطيات الجديدة، وأضحى

١٤– تجب إضافة مرحلة رابعة تقابل المرحلة الحاليّة بدءًا من المحنة اللبنانيّة عام ١٩٧٥.

١٥– شاربونّو، المرجع السابق، ص ٦٠.

وجودهم ضروريًّا لقيام اقتصاد البلد. لم يعد هذا الوجود مرتبطًا لا بالمستعمر ولا بتجربة السنين السابقة. لذلك بدا تطوّر اللبنانيّين متوازنًا ومنسجمًا مع تطوّر السكّان المحليّين، لأنّهم استطاعوا مقاومة كلّ الظروف والتقلّبات والانتصار عليها، بفضل تقبّلهم للواقع وصلابة عزيمتهم التي تبثّ فيهم روح التحدّي وتجعلهم يستوعبون الظروف، ويثابرون للتكيّف مع المستجدّات المحيطة بهم.

والواقع أنّ التعاون هو حجر الرّحى بالنسبة لهؤلاء المهاجرين، به تُناط قوّة جَلَدهم على تدبّر أمورهم.

لقد أثرى لبنانيّو ساحل العاج، إبّان الحرب العالميّة الثانية التي لم يشاركوا فيها، ووجدوا الظروف مناسبة لزيادة ثرائهم، منذ العام ١٩٤٥.

فالتضخّم المستمرّ وارتفاع أسعار المحاصيل الاستوائيّة الذي بلغ ذروته عام ١٩٥٣، فتحت أبواب المضاربة. والتاجر الذي أُتيح له أن يتحكّم في مداخل العرض والطلب، قُدِّر له أن يحقّق الأرباح الوفيرة، فسرى في لبنان خبر وجود هذه الثروة، فتدفّق منه سيل "الأخوة وأبناء العمومة".

لدى وصول هؤلاء إلى ديار الهجرة، تكفّل القدامى بهم وأمدُّوا الواحد منهم بشاحنة نقل لمساعدته على بدء مسيرته، ليتدبّر أمره بنفسه فيما بعد، في إطار نظام متكامل من تبادل المعلومات والتوجيهات الآيلة إلى دفع عجلة المسيرة وتحسين وضع الجالية ككلّ. فما أن يحقّق الوافدون الجدد حلمهم بجمع الثروة، حتّى يعودوا إلى بلدهم للاستقرار بصورة نهائيّة مع عائلاتهم[١٦].

لكنّ التضامن الذي اتّسمت به علاقات المهاجرين فيما بينهم ونظام التعاون الذي ميّز المدّ الاغترابيّ، لا يحجبان عنّا رؤية الجانب المظلم للقضيّة، المتمثّل باستغلال بعض قدامى المهاجرين للجدد منهم، ممّا أوجد حالات كثيرة كان الوافد المعدم يُترك لقدره، وهو الذي يجهل لغة المهجر وعاداته، فيغرق في العوز ويعيش في وضع غير مستقرّ، يكدّ بمرارة لكسب لقمة العيش، جاهدًا ألاّ يعود إلى الوطن صفر اليدين.

١٦– ر. شاربونّو، المرجع السابق، ص ٦٠.

في هذا الإطار، كتب هـ. أ. سيتروين: "إنّ التكيّف واستيعاب الظروف لا يمكن أن يتمّ ساعة تطأ قدما المهاجر أرض المرفأ، جاهلاً لغة القوم في البلد الذي اختاره مقرًّا. في البداية عليه الاعتماد على أبناء بلده المستقرّين في تلك الأرض، ليقودوا أولى خطواته، ويؤمّنوا له السكن والعمل.

فينجذب إلى الجماعات التي تنتمي إلى بلده. لكنّ هذه الجماعات، كثيرًا ما تستثمر تفوّقها الذي أكسبتها إيّاه معرفتها التامّة بعادات المغترَب حيث تستقر، وتعمد إلى استغلال مواطنيها أيّما استغلال. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ نظرة السكّان الأصليّين العدائيّة لكلّ غريب عنهم، لا يجيد لغتهم ولا ينسجم مع عاداتهم، تجعل النازح الجديد ولمدّة طويلة أسيرًا لأبناء بلده[17].

١٧- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ٢٠٩.

الفصل الرابع

إضاءة على تاريخ الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج

١ - الوجه الاقتصاديّ.

٢ - الوجه الاجتماعيّ.

١ - الوجه الاقتصاديّ

أ - التجارة: تعاطى اللبنانيّ تجارة المقايضة، يدفعهُ استعداد طبيعيّ وظروف مؤاتية، وهي تجارة تسير في اتّجاهَين متعاكسَين، مفادها أن يُبادل التاجر المنتوجات المصنّعة التي يشتريها من شركات أوروبيّة كبيرة بالمحاصيل المحلّيّة المعَدّة للتصدير (كولا، فستق، بن كاكاو، خشب، زيت البلح، عصارات نباتيّة...) ليُعيد بيع هذه المحاصيل إلى كبرى المؤسّسات الأوروبيّة المهيمنة على ٩٥٪ من هذه التجارة. اللبنانيّ تاجر محترف، يقنع بالربح القليل، وهذا ما وضعه في صلب العلاقات التجاريّة، وجعله صلة الوصل بين الأوروبيّين والأفارقة. فالأفريقيّ يرتاح للتعامل مع اللبنانيّ، إذ يدخل دكّانه المتواضع، المليء بالبضائع الاستهلاكيّة "حيث يناقش الأسعار ويشتري السلع من دون أن يدفع ثمنها فورًا، كما يحصل على تسهيلات تتمثّل بالسلفة على موسم المحصول"[1].

قبل أن يتبوّأ اللبنانيّون المكانة المُشار إليها، عمل قسم كبير منهم لمدّة طويلة، لدى شركات الاستيراد والتصدير الكبرى، للقيام بعمليّات المقايضة وتحقيق مزيد من الأرباح، فاكتسبوا مع الوقت ثقة أرباب العمل، الذين فضّلوهم على السكّان المحلّيّين، وعلى الأوروبّيّ المتطلّب، الذي لا يقنع بالأجر الزهيد الذي يتقاضاه اللبنانيّ ولا يتفانى في العمل مثله.

"ترتكز تجارة المقايضة على مبدأ دفع ثمن المحاصيل نقدًا للمنتج، كما تستلزم إعطاء

١- رينيه شاربونّو، المرجع السالف، ص ٥٩.

سلفات ماليّة، لا تقدّمها الشركات للزنوج، لعدم ثقتها بهم، إذ إنّه من الممكن أن يتواروا في أيّة لحظة، لتضيع آثارهم في خضمّ الناس. في المقابل، فاللبنانيّ مزوّد ببطاقة هويّة ومحلّ إقامته معروف، ممّا يوفّر ضمانات قانونيّة تبعث على الاطمئنان؛ فتزدوج فائدة العنصر الأبيض المذكور، و يصبح موضع ثقة توفّر له التسليف الماليّ، والإمداد بالبضائع المستوردة التي توفّر له الرّبح المضمون. أضف إلى ذلك أنّ اللبنانيّ إجتماعيّ يتقرّب من السكّان المحليّين، يجهد لتعلّم لهجاتهم، يبحث عن الزبائن في أقصى البلاد، فيكتسب المؤهّلات لتجارة المقايضة، من دون أن يخشى مزاحمة الأوروبيّين الذين هم أقلّ صلابة منه وأكثر تطلّبًا".

بالإضافة إلى الوسطاء، كان بين اللبنانيّين تجّار جملة، يسكنون الأدغال (غير بعيد عن محاصيل التصدير)[٢]، بخاصّة في موسم القطاف، كما كان تجّار نصف الجملة والمفرّق يعيشون في العاصمة والمدن الكبرى. ومع الزمن أصبح بعضهم، بفضل الرساميل التي جمعوها، يتعاطون الاستيراد والتصدير، ويتحكّمون مباشرة بالمحاصيل المصنّعة في أوروبا وأميركا واليابان، كما صاروا يزوّدون تجّار نصف الجملة والمفرق بالبضائع المستوردة، فأنشأوا مكاتب دائمة في باريس ومرسيليا ومانشستر إلخ...

تجدر الإشارة إلى أنّ نجيب عكر[٣]، إبن دير القمر، هو مؤسّس أوّل شركة تجاريّة في أفريقيا الغربيّة، تحديدًا في سان لويس في السنغال عام ١٨٩٧.

وإذا ما عرفنا أنّ الشركات الأوروبيّة كانت تمسك بنسبة ٩٥٪ من صادرات ساحل العاج ووارداته، أدركنا بسهولة أنّ نشاط اللبنانيّين الاقتصاديّ كان ثانويًّا.

في هذه الأثناء، يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ البضائع كانت تمرّ في يد اللبنانيّين، ساعة دخولها إلى العنابر وخروجها منها، لتباع فيما بعد إلى السكّان الأصليّين الذين يعيش قسم كبير منهم في الأدغال.

فاللبنانيّ كان يقوم بدور المحرّك لنشاطات الشركات وتنميتها.

٢- إنّ تصدير هذه المحاصيل كان يتمّ بواسطة الشركات الغربيّة الكبرى التي تضع يدها على كلّ سلع التجارة، باستثناء محصول الكولا.

٣- إيلي صفا، المرجع السابق ص ١٢٧.

إنّ امتياز تجارة الكولا فقط كان حكرًا على اللبنانيّين[٤]، الذين كانوا يشترون كلّ الانتاج من السكّان الأصليّين في ساحل العاج وسيراليون، ويرسلونه إلى عملائهم في السنغال، نيجيريا وغينيا، ليطرحه هؤلاء في الأسواق المحلّيّة أو يرسلونه إلى الخارج، محقّقين الأرباح الطائلة من دون تدخّل من الشركات الأجنبيّة.

يضاف إلى المحاصيل الآنفة الذكر، البضائع المستوردة من لبنان كالزيت والحبوب والسكاكر.

إنّ ٩٠٪ من المغتربين تعاطوا التجارة ونجحوا فيها؛ فهم بالإضافة إلى ما حبتهم إيّاه الطبيعة من جرأة وتصميم، يتميّزون بمرونة عالية في تعاطيهم التجارة الميدانيّة وبساطة كبيرة في نمط عيشهم، ممّا يقرّبهم من السكّان المحلّيين، إلى جانب قدرتهم على سرعة التكيّف مع المتغيّرات الاجتماعيّة وتقلّبات المناخ. لقد قنعوا في البدء بالتجارة الخفيفة وبتقليص هامش الأرباح، وفقًا لقاعدة الربح القليل من أجل مبيع أكبر. ثمّ منحوا المزارعين قروضًا بلا فائدة، يستوفونها في موسم القطاف:

"ساعدت القروض كثيرًا على تنمية تجارة اللبنانيّين، ولا سيّما القروض التي يمنحونها للمزارعين؛ ذلك أنّ مشتريات الزنوج للمحاصيل المصنّعة، كانت تجري عادة طوال الموسم، في حين أنّ وفرة الغلال توفّر لهم المبالغ الطائلة. فالمغترب الذي يقدّم لهم السلفات، نقدًا وبضائع مصنّعة، خارج الموسم، ليستردّها في الموسم التالي، إمّا محاصيل زراعيّة أو نقدًا، كان عرضة لاحتمال الخسارة فيما لو أتى الموسم ضحلاً، ممّا يضطر المغترب لتوسيع نشاطه الاقتصاديّ على مدار السنة والعمل على زيادة عدد زبائنه ومضاعفة مبيعاته، وبالتالي تأمين المحصول المقبل بأسعار أدنى، الأمر الذي يضمن له في نهاية المطاف الأرباح الطائلة[٥]. يتحلّى اللبنانيّ بالصبر والتفهّم، فيتكيّف مع الوضع الاجتماعيّ المستجدّ، ويتعامل بسهولة مع زبائنه. لذلك يصبح اللبنانيّ المموّل الوحيد للفلاّحين، يلجأون إليه للحصول على تسهيلات ماليّة لعدّة أشهر، خارج الموسم، فيصير عنصرًا حيويًّا في حياة الأفارقة، يؤمّن حاجاتهم الاستهلاكيّة، التي لا غنى لهم عنها إطلاقًا"[٦].

٤- كان ذلك قبل انتقال تجارة هذا المحصول كليًّا إلى الأفارقة

٥- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ١٣٠.

٦- جوزيف أشقر، "اللبنانيّون في أفريقيا الغربيّة والعالم"، ص ٦٣.

ب - الزراعة

يتحدّر المغتربون اللبنانيّون في غالبيّتهم من عائلات تمتهن الزراعة. وقد هجروا الأرض لقلّة عطائها، فلم يعيروا خصوبة الأرض الأفريقيّة أيّ اهتمام، وانصرفوا بأغلبيّتهم إلى التجارة التي وفّرت لهم الربح السريع بعكس القلّة المنصرفة إلى الزراعة. كذلك اتّجه بعضهم إلى تربية الحيوانات الداجنة، فأدخل اللبنانيّ "عُتيّق" تربية الخنازير إلى ساحل العاج. ولم يتعاطوا إلاّ مؤخّرًا صناعة الأخشاب، المندرجة في الحقيقة ضمن النشاطات التجاريّة. كما انصرف قسم منهم إلى زراعة البنّ والكاكاو في مناطق ثلاث: غنوا، أوميه ومان.

ج - العقارات

التأقلم لا يتمّ في بلاد الاغتراب بين ليلة وضحاها. لذا سعى اللبنانيّ إلى الاندماج في عمليّة التكامل الاقتصاديّ، في البلد الذي اختاره ليعيش فيه. وفي غياب إمكانيّة الاستثمار الصناعيّ، وظّف اللبنانيّ أمواله في قطاع البناء ذي المردود الكبير، كما فعل روّاد الاغتراب الأوائل في أفريقيا الغربيّة، وبخاصّةٍ في غينيا والسنغال.

وإذا كان الاستثمار العقاريّ قد اجتذبهم، على غرار "برجي وحدرج" وغيرهم من روّاد هذا القطاع، فلأنّ مردود الإيجارات كان مرتفعًا جدًّا.

فشُيِّدت بفضل جهودهم جادّات بأكملها، كجادّة وليم بونتي وغامبتا في دكار...

وإلى جانب ملكيّة الأبنية في المدن والقرى الأفريقيّة الكبرى، فهم يمتلكون غالبيّة الأبنية والمؤسّسات في المناطق الداخليّة"(٧).

نورد في هذا السياق الجدول الذي وضعه ج. ج. ديبورد عام ١٩٣٨:

تملّك اللبنانيّون ٣٠٪ من أبنية دكار وحدها، منها ٨٠٪ للتجارة المتوسّطة والصغيرة، ٢٠٪ للمؤسّسات و٥٪ لتجارة الجملة.

- أكثر من ٢٥٪ من بيوت السكن وأكثر من ٩٠٪ من المحالّ التجاريّة في كوناكري، بالإضافة إلى ما يزيد على ٧٠٪ من المنازل و٩٠٪ من المحالّ التجاريّة في مناطق غينيا الداخليّة، علمًا بأنّ الممتلكات الحكوميّة لا تدخل في هذه التقديرات.

٧- إيلي صفا، المرجع السالف، ص ١٢٢.

- أكثر من ٢٥٪ من المنازل السكنيّة و٧٥٪ من المحالّ التجاريّة في سيراليون.
- أكثر من ٣٠٪ من بيوت السكن و٧٠٪ من الأماكن المعدّة للتجارة في لاغوس، إلى جانب ما يربو على ١٥٪ من الأبنية المشادة في مناطق نيجيريا الداخليّة.
- ما يزيد عن ٥٪ من ملكيّة المساكن و٦٠٪ من ملكيّة المؤسّسات التجاريّة في أبيدجان وغران بسّام، إلى جانب ما يزيد على ٥٠٪ من المساكن و٩٠٪ من المحالّ التجاريّة، في مناطق ساحل العاج الداخليّة.
- غالبيّة أبنية باماكو العاصمة بشكل خاصّ، والسودان الغربيّ بشكل عامّ.
- ما يزيد على الـ٧٠٪ من الأبنية المشادة في مناطق غينيا البرتغاليّة الداخليّة. وتشمل ملكيّتهم، بالإضافة إلى ذلك، عددًا كبيرًا من الأبنية الفخمة في ساحل الذهب (غانا) و أكرا وكوماسي(٨).

٢ - الوجه الاجتماعيّ

أ - المناخ

انعكس اختلافُ المناخ سلبًا على اللبنانيّ، كما على الفرنسيّ، فأَصبح عُرضةً لضربة الشمس والملاريا ووباء الحُمّى الصفراء القاتل في أغلب الحالات. فقضى جرّاء ذلك العديد من مغتربينا الشباب(٩)، قبل أن يتوصّل الطُّبّ إلى التغلّب على هذه الأمراض الاستوائيّة وتقليص آثارها. مع بداية القرن، ترك سوء المناخ بصماته في ذاكرة المستعمر الفرنسيّ عبر صورة مأساويّة مرعبة، لا تزال تعيش كذلك في ذهن المسنّين اللبنانيّين.

"في بداية القرن العشرين وحوالى سنة ١٩٢٥، كانت هذه المستعمرة تبدو بلدًا يرفض استضافة الغرباء القادمين لاقتحامه. هذه الصورة القاتمة التي نقلها البحّارة الإنجليز في القرن التاسع عشر، ترسّخت بفعل ظاهرة الأوبئة التي انتشرت في غران بسّام عام ١٨٩٩. هذه

٨- إيلي صفا، المرجع السالف، ص ١٢٣.

٩- في زياراتنا الدوريّة للبنان، كان من النادر أن نلتقي في قرانا، عجوزاً لا تندب أخًا أو ولدًا أو قريبًا قضى في بلاد الاغتراب، وقد هاجر شابًّا يضجّ بالعافية، ليقضي هنالك باكرًا، متأثّرًا بضربة شمس لا ترحم.

الغابة الكثيفة، المرعبة، القاتلة... ذات القبضات الصلبة المتشابكة تلتف كالأفاعي حول الجذوع الضخمة، تقهر الإنسان وتمنعه من التقدّم... مسرح "الصراع حتّى الموت" بين مختلف الفصائل النباتيّة فيها... يريد البعض خنق العمالقة، فتصمد الغابة وتنفث السمّ، وتستوجب ممّن يعيش في أعماقها بذل طاقة هائلة في جحيمٍ من الرطوبة ونقص الغذاء...".

هذه الصورة القاتمة للغابة العاجيّة، التي نقلها أندريه دي ميزون في "مذكّرات مزارع"، هي الصورة عينها التي عاشها الناس وتجاوبت أصداؤها في الربع الأوّل من القرن العشرين... فنشأت أسطورة جنائزيّة في ذهن سكّان فرنسا، جعلت من ساحل العاج بأكمله موطنًا للموت، حيث لو تجاسر الإنسان على البقاء، فإنّه يسعى وفقًا للتصوّر العامّ، إلى حتفه...

جنوبيّ ساحل العاج، يشعر الأوروبيّ أنّه مهدّد في حياته كلّ يوم، "بضغط" الحرارة ورطوبة الهواء: حرارة "مضنية وقاتلة"، شمس "محرقة" حتّى حين نحتجب منها، ورطوبة مفرطة.

كلّ هذا أسهَمَ في إضعاف الإنسان الأبيض وتخاذل قواه، البدنيّة منها والنفسيّة على حدّ سواء... عند حلول موسم الأمطار من كلّ عام وفي نهايته يهيمن مناخ من القلق يفوق الخوف من الملاريا، إنّه التخوّف الدوريّ من عودة الوباء (فوميتو نغرو) أو الحمّى الصفراء، التي يرعب خطرها أبناء الجالية، ويذكي خبر تفشّيها كلّ المخاوف... وسرعان ما يوقظ الذكريات الهاجعة في أذهان المسنّين ورؤوسهم التي يكلّلها الشيب. هذا ما نشر في ساحل العاج وحتّى العام ١٩٣٦، هلعًا نفسيًّا يتجدّد كلّ عام.

إنّ برنار داديه في كتابه كلمبييه يعطينا شاهدًا حيًّا على ذلك بقوله: "... تقيّأ مفوّض الشرطة! ... لقد أصيب بالفوميتو نغرو، الحمى الصفراء، الشرسة التي لا تعرف الرحمة. إنّها مصدر الرعب الأكبر للجالية الأوروبيّة بكاملها"(١٠).

ب - المسكن

يترك اللبنانيّ مسقط رأسه، مثل كلّ مهاجر في العالم، تحدوه الرغبة في الإقامة

١٠- ألان تيرفور، "الزمن الطيّب"، ص ١٨ - ٢٣.

الموقّتة(١١) في بلد اختاره مغترَبًا، لتحسين وضعه الماديّ وجمع ثروة تتيح له ارتقاءً طالما حلم به في السُلّم الاجتماعيّ لدى عودته إلى الوطن الأمّ. ومن أجل تحقيق هذه الغاية كان المغترب المعدم يكدّ ويشقى، فيعيش في ظروف غير مستقرّة، ويستأجر منزلاً من غرفة واحدة، ونادرًا من غرفتين، فوق دكّانه أو بالقرب منه(١٢)، وكثيرًا ما كان يأكل وينام في حانوته، حيث يستخدم "الكونتوار"، تارةً طاولة للأكل وطورًا سريرًا للنوم.

"إنّ الاعتياد على تحمّل المصاعب بمرونة، صفة تميّز المغترب اللبنانيّ، المهيّأ لمواجهة أصعب الظروف"(١٣).

ففي الأدغال كان يقطن كوخًا سقفه من الخشب أو الألواح المعدنيّة، أمّا الذين يسكنون الدارات الفخمة والشقق الكبيرة فهم قلّة، علمًا بأنّ الأغنياء كانوا يعيشون حياة متواضعة، إلى درجة التقتير، فيحرمون أنفسهم من وسائل الرفاه طوال إقامتهم في المغترب، كي يتمكّنوا لاحقًا من التنعّم بعيش رغيد لدى عودتهم إلى مسقط رأسهم.

ج - الزواج

لم تكن تشكّل نسبة النساء بين المغتربين الأوائل أكثر من ٣٠٪، بحيث تتدنّى هذه النسبة أحيانًا إلى ٥٪، لأنّ المغترب كان يترك زوجته وأولاده في قريته، في عهدة ذويه حيث تكاليف المعيشة أقلّ. وحالما يتمكّن من إرسال تكاليف السفر لزوجته (ناولون)(١٤)، كان يستدعيها للالتحاق به ومساعدته في عمله، خاصّة في المناطق الداخليّة. أمّا العازب الذي يجني بعض الثروة، فيعود إلى لبنان ليتزوّج فتاة من قريته(١٥) ويسافر بصحبتها. في غضون

١١- يفكّر المغترب ويخطّط لمستقبله، وهذا ما يحثّه على الرحيل، وذلك خلافًا لرأي إيلي صفا القائل "بأنّ المحيط الجديد الذي يعيش فيه المغترب يقلب تفكيره مع الزمن رأسًا على عقب. ولدى عودته إلى مسقط رأسه، يرى نفسه في الغالب في موقع المتفوّق على أبناء بلده الذين لازموه، ويجد صعوبة في التكيّف من جديد مع مجتمعه القديم الذي ارتحل عنه منذ أمدٍ بعيد.

١٢- لا يزال بعض المغتربين يعيش اليوم وضعًا مشابهًا.

١٣- جوزيف أشقر، المرجع السالف، ص ٦١.

١٤- تذكرة السفر في السفينة أو الطائرة.

١٥- أحيانًا كان بعضُهم يكلّفون ذويهم اختيار شريكة حياتهم وتأمين التحاقها بهم.

ذلك، كان يلتمس منه الإخوة وأبناء العمّ والجيران والأصدقاء العمل لتسهيل سفرهم، لأنّهم يتطلّعون للهجرة بأيّ ثمن، سعيًا وراء مستقبل زاهر وثروة طالما حلموا بها.

د - المدارس

يلتحق الأطفال عند بلوغهم سنّ الدراسة، بأقرب مدرسة من المنزل. أمّا العائلات الميسورة، فكان أطفالها يلتحقون بالمدارس الخاصّة، وأحيانًا بالمدارس الداخليّة في لبنان. فإذا ما انتسبوا إلى مدارس المغترَبات كانوا ينشأون ويشبّون، جاهلين لغتهم الأمّ جهلاً تامًّا.

هـ - المؤسّسات (الجمعيّات)

تفكّكت الجمعيّة اللبنانيّة-السوريّة عام ١٩٢٨ في غران بسّام بعد شهرين من تأسيسها، لعدم الاتّفاق على شخص الرئيس. وعند إعادة تأسيسها عامَي ١٩٣٠ و١٩٣٧ لم تستطع أن تصمد هذه الجمعيّة في كلّ مرّة أكثر من سنة واحدة، لأنّ الخلافات على اختيار الرئيس ونائبه، كانت لا تزال قائمة.

لم تتحسّن الأمور إلاّ عام ١٩٦٧، حيث أنشأت الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم، فرعًا لها في أبيدجان. أمّا في ميدان الرياضة، ففي عام ١٩٣٦، بدأت طلائع فريق رياضيّ، تنمو وتبرز في ساحل العاج.

و - الحملات المناهضة للّبنانيّين

كسب اللبنانيّ عطف السكّان الأصليّين وثقتهم، فانخرط في مختلف الأعمال التجاريّة ونجح فيها، ممّا أثار استياء التاجر الفرنسيّ الذي رأى في اللبنانيّ غريبًا ينافسه في مجاله وعلى أرض يعتبرها أرضه؛ سرعان ما نتج عن التوتّر بين الفريقين ظهور حملات مناهضة للبنانيّين، في الصحافة[١٦] وغُرف التجارة، في كلّ أنحاء أفريقيا الغربيّة التابعة للاستعمار الفرنسيّ.

غير أنّ هذه الحملات لم تحقّق أهدافها على الرغم من حدّتها والمشكلات الناجمة عنها،

١٦- أشهرها حملة التجريح التي قادها موريس فوازن، رئيس تحرير الصحيفة السنغاليّة "أصداء أفريقيا" عام ..١٩٤٧.

وبالتالي لم تثر سخط الحكّام وكبرى الشركات التجاريّة، ضدّ هؤلاء اللبنانيّين الناشطين "الذين لا عيب فيهم سوى أنّهم نجحوا حيث أخفق الآخرون، وربحوا معركة البناء والتنمية، كما ربحوا معركة تداول الثروات وارتياد المناطق الداخليّة وأقاصي الأدغال"[١٧].

يكفي أن نطّلع على بعض محاضر غرفة التجارة[١٨] في أبيدجان وعلى بعض المقالات لنقدّر المعاناة التي قاساها روّاد الاغتراب اللبنانيّ؛ فالتجريح الحاقد المُغرِض كان يتجاوز ميدان العمل ليطال نمط عيشهم وأوضاعهم الاجتماعيّة، ممّا يكشف مدى التحامل عليهم وقد تميّزوا بتفوّقهم التجاريّ، وبروح الجدّ والتسامح، وقابليّتهم لاستيعاب التيّارات الخارجيّة والتفاعل معها.

"لا أحد يجهل أنّ الجاليات السوريّة تشغل قسمًا من منازل أبيدجان، مدينتنا الجميلة... ونحن إذ نكنّ لضيوفنا الاحترام الكلّيّ، نسارع إلى القول أنّهم لا يراعون قواعد الصحّة إجمالاً، خاصّة النظافة، كما نراعيها نحن".

"يجب أن تبقى أفريقيا حديقة لأوروبا... لا تستثمرها وتستنفدها جحافل الآسيويّين الطفيليّين الذي كان الفينيقيّون بالمقارنة معهم أسيادًا كبارًا في هذا المجال.

"إنّهم لا يراعون أنظمة الإدارة. ونتساءل عمّا إذا كانوا فعلاً كما تتهمّهم محاضر غرفة التجارة، لا يدفعون رسوم التصدير... ولا يتقيّدون بالأنظمة التجاريّة المرعيّة الإجراء، إمّا لكونهم غير مسجّلين قانونيًّا وإمّا لأنّهم لا يراعون أصول المحاسبة.

أن يكون لهم مكان بيننا لا يعني على الإطلاق أن يأخذوا مكاننا. ولكي ننافسهم، علينا أن نخفض مستوى معيشتنا، وأن نتحوّل من شعب مستعمِر إلى شعب كادح، فيزول عندها مبرّر وجود المستعمرات"[١٩].

نورد نصّ المذكّرة التي رفعتها غرفة التجارة في أبيدجان إلى السيّد موتيه وزير

١٧- جوزف أشقر، المرجع السابق، ص ٩٥.

١٨- نشرة غرفة تجارة أبيدجان، "محاضر ٦ نيسان ١٩١٢ إلى ٢٤ آذار ١٩٢٤، ملفّ رقم ٢٨٩٤ - ١٩٣٢" الأرشيف الوطنيّ في ساحل العاج.

١٩- عن صحيفة "مستقبل ساحل العاج"، آب ١٩٣٦. (الأرشيف الوطنيّ في ساحل العاج).

المستعمرات بتاريخ ١٩٣٧/٤/٦ وأقرّتها بالإجماع في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٣٦/١٠/٢٥:

١ - يجب أن يطبّق وبحزم المرسوم الصادر بتاريخ ٩ كانون الثاني ١٩٣٢، المتضمّن شروط قبول الغرباء في أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة.

٢ - يجب أن تُدفع فعلاً قيمة الكفالة، وهي بدل تذكرة العودة إلى الوطن الأمّ، وتُرفض كلّ صيغ الكفالة العاديّة.

٣ - يجب أن لا تبقى قرارات الطرد من دون مفاعيل، ولا يُمنح أيّ كان فرصة وقف التنفيذ.

٤ - على كلّ مؤسّسة أن تمسك دفاتر المحاسبة التي نصّ عليها القانون.

٥ - لا يسمح بالتجارة إلاّ في أوقات الدوام، تمنع ليلاً وفي أيّام الأعياد.

٦ - يجب أن تفرض على الوافدين جميع القوانين الاجتماعيّة التي ستوضع موضع التنفيذ.

٧ - لا يسمح بتسجيل أيّ أجنبي في غرفة التجارة ما لم يخضع مسبقًا لتحقيق دقيق، يتناول سلوكه ومداخيله الماديّة. كما عليه أن يبرز سجلّه العدليّ خاليًا من أيّ حكم.

٨ - لا يحقّ لأيّ أجنبيّ أن يمارس التجارة إلاّ باسمه الخاصّ، مع إلزامه بذكر جنسيّته على أوراقه التجاريّة الثبوتيّة.

٩ - لا يحقّ للغرباء الذين دخلوا إلى أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة بصفة أيدٍ عاملة، أن ينشئوا مؤسّسات تجاريّة إلاّ بعد مدّة أدناها خمس سنوات، تبدأ من تاريخ انتهاء عقد العمل الذي دخلوا البلاد بموجبه.

١٠ - في حال توقّف أيّ تاجر غريب عن دفع ديونه، تعلن المحكمة إفلاسه، بناءً على طلب الدائنين. إنّ المفلسين والمحكومين بأيّ جرم، يجب أن يطردوا من البلاد بصورة آليّة وجازمة.

١١ - تطبّق على الغرباء المشرقيّين القواعد الصحيّة للبلدان الاستوائيّة، والتي تطبّق على الفرنسيّين أيضاً، مثل نظافة المكان والسكن الصحّيّ.

١٢ - أخيرًا، ومن أجل توفير العمل للشبّان الفرنسيّين، يجب أن يفوق عددهم بكثير عدد اللبنانيّين-السوريّين[٢٠] العاملين في المجال الاقتصاديّ في أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة"[٢١].

من الصعوبة بمكان أن نغفل ذكر الحملة المغرضة التي شُنّت ضدّ اللبنانيّين-السوريّين. في ما يلي نورد نموذجًا منها وهو ليس أقلّها حدّة... "بتاريخ ١٩٣٦/٧/٩، طرحت صحيفة "نور أفريقيا الغربيّة" غران بسّام، صيغة استقصاء في صفحتها الأخيرة على الجالية الأوروبيّة:

رأيكم؟

نطلب من قرّائنا أن يعطوا رأيهم هنا تجاه اللبنانيّين-السوريّين، خاصّة فيما يتعلّق بوجودهم في المستعمرات الفرنسيّة.

هل أنت مع الطرد؟ مع الأمر الواقع؟ مع سَنّ أنظمة جديدة؟ ما هي؟ الاسم؟ العنوان؟

ترسل الإجابة إلى السيّد مدير صحيفة النور. ص.ب. رقم ١٠، غران بسّام ساحل العاج"[٢٢]. ليس هدفنا أن نثير الحقد ضدّ الأجانب، ولا أن نحرّض الناس ضدّ السوريّين. المطلوب فقط تحديد عددهم بنسبة معقولة حيال السكّان الوطنيّين...

إنّ اليوم الذي سيحجب فيه ضيوفنا من آسيا الصغرى الفرنسيّ والملوّن من أهل البلاد ليس ببعيد.

"هم يعيشون في بُؤس... مكدّسين بين أبناء البلاد"[٢٣].

٢٠- وهذا غنّي عن البيان لأنّ جميع التظلّمات ترمي إلى تحقيق هذا الهدف.

٢١- ألان تيرفور، "الزمن الطيّب"، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٢٢- ألان تيرفور، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

٢٣- ألان تيرفور، "اللبنانيّ المنتج أو غير المحبوب"، ص ١١.

احتجّ التجّار الأوروبيّون في دالوا عام ١٩٣٢، لدى حاكم المنطقة لأنّ: "السوريّين المقيمين بصورة موقّتة في قرية "دالوا" لَم يُجبَروا على شراء أرض مفرزة لإقامة بناء حجريّ عليها، كالأوروبيّين"[٢٤].

ماذا بقي الآن من حملات الذمّ والقدح هذه، بعد أربعة وسبعين عامًا[٢٥] على بدئها، غير ذكريات أليمة، وأدلّة على وجودٍ لبنانيٍّ مُجْدٍ، لا يزال يناقض النظريّات المطالبة بالإبعاد، كما يتحدّى كلّ الصعوبات التي تواجه هذا الوجود المفيد، المرتكز في بقائه على قدرة التكيّف مع الأوضاع المستجدّة.

يجدر بنا التوقّف قليلاً مع الجالية اللبنانيّة–السوريّة، التي يثير وجودها تفسيرات خالية من الودّ من قبل الأوروبيّين.

تتكوّن تلك الجالية في نظر هؤلاء من أشخاص غير منتجين، طفيليّين، يزيّفون الحياة التجاريّة. وأغلب الظنّ أنّهم في طريق الإقصاء بمقدار ما يتعمّق التعاون بين النخبة الأفريقيّة والتقنيّة الأوروبيّة...

واللبنانيّون بقدر ما هم مستبصرون حاذقون، يفتقدون إلى المرتكزات العالميّة والوسائل الماديّة التي تدرأ عنهم خطر الضربات[٢٦] المفاجئة. إنّهم على أهبة الاستعداد للمناورة في إطار نظام ليبراليّ وقواعد ماليّة مرنة يمسكون بخيوطها، لكنّهم سيجدون أنفسهم يومًا ما عاجزين عن الحركة، بفعل الثورة المزدوجة التي بدأت في الستّينات[٢٧].

والمقصود هنا تدخّل الدولة أو أجهزة رديفة لها في عمليّة الاتجار بالمحصولات التصديريّة (بنّ، كاكاو، فستق، مطّاط، قطن ...)، التي قلّصت أرباح الوسيط لجهة النقل.

يضاف إلى ذلك أنّ العاجيّين وضعوا أيديهم على تجارة العديد من الموادّ والسلع الضروريّة، كالسمك واللحوم والأرزّ والملح والكولا... فعلى الرغم من تقلّص الأرباح

٢٤- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٢٧.
٢٥- يعود تاريخ أوّل وثيقة اطّلعنا عليها في هذا الموضوع إلى العام ١٩١٢.
٢٦- التأميم المفاجئ لتجارة الجملة وهبوط قيمة العملة في غينيا ومالي.
٢٧- رينيه شاربونّو، المرجع السابق، ٥٧ – ٥٨.

والتغيّرات السياسيّة وولوج الأفارقة ميدان التجارة، استطاعت الجالية اللبنانيّة، لا أن تصمد فحسب، بل أن تنمو بتكيّفها مع الأوضاع المستجدّة، واستجابتها لمتطلّبات التحديث والتصنيع في البلد المضيف. إنّ جدارة اللبنانيّ تنبع أساسًا من حذق تجاريّ لا مثيل له ومعرفة عميقة بالسوق الأفريقيّة: "كانوا يعرفون تمامًا كيف يتكيّفون مع الظروف ويقنعون دون ريب بأرباح أقلّ من أرباح الماضي..."[٢٨]. "هذه الكفاءة التجاريّة ليست أمرًا ولّى نفعه، بل هو موضوع يدرَّس في كلّياتنا، وتعمَّمُ فاعليّته في برامج السوق المشتركة... واللبنانيّ امتلك هذه الكفاءة بالفطرة، فطبّقها واستثمرها في تجارته منذ مدّة"[٢٩].

لقد أثار نجاح اللبنانيّين الشعور لدى التاجر الفرنسيّ بأنّ منافسه هذا سلبَهُ امتيازه. هذا الشعور بالغبن هو أساس الحملات الحاقدة، الآنفة الذكر، التي تردّدت أصداؤها، وتسبّبت من دون شكّ في إثارة المتاعب في وجه اللبنانيّين، غير أنّها لم تؤثّر سلبًا في موقف الإدارة منهم، فهي تقدّر مدى إسهامهم في إنعاش اقتصاد البلد.

أفادنا بعض المسنّين اللبنانيّين الذين قابلناهم أنّ هذه الحملات لم تكن تعكس العلاقات اليوميّة بينهم وبين الأوروبيّين لا من قريب ولا من بعيد.

٢٨- النشرة الاقتصاديّة: ١٩٣٢، العدد ٥٠١٤، منطقة دكار الأرشيف الوطنيّ لساحل العاج.
٢٩- رينيه شاربونّو، المرجع السابق، ص ٦٥.

الفصل الخامس

وضع الجالية اللبنانيّة اليوم (١٩٨٥)

١ - الجانب الاقتصاديّ

٢ - الجانب الاجتماعيّ

٣ - الجانب السياسيّ

١ - الجانب الاقتصاديّ

منذ الستّينات طرأت تغييرات مهمّة في ساحل العاج على نشاط اللبنانيّين التجاريّ، الذي كان منذ أواخر القرن التاسع عشر مرتبطًا بتجارة محاصيل التصدير من بنّ وكاكاو وكولا، إذ انتقل كثير من اللبنانيّين من الوساطة بين المؤسّسات الكبيرة والسكّان المحليّين إلى قطاعات أُخرى نجحوا فيها كليًّا أو جزئيًّا، مثل تجارة الجملة، واستثمار الخشب، والنشاط الصناعيّ والتوظيف العقاريّ على نطاق واسع.

بدأ اللبنانيّون مسيرتهم بمبسط صغير (كونتوار)، ثمّ انتقلوا إلى تجارة البيع بالمفرّق، فتجارة نصف الجملة والجملة، إلى أن أصبحوا رجال أعمال مرموقين، وظّف القدامى منهم أموالاً طائلة في القطاعين العقاريّ والصناعيّ[1].

تمّ هذا التطوّر بمهارة ومثابرة وبرز كعنصر فاعل في تقدّم ساحل العاج الاقتصاديّ، وذلك بفضل سياسة الانفتاح والنظام الاقتصاديّ الحرّ الذي انتهجته السلطات غداة الاستقلال، كخيار وحيد للتنمية. "ساحل العاج دولة ذات اقتصاد حرّ، يناسب متطلّبات البلاد، وهي دولة توفّر المناخ المتميّز بالمرونة، المؤاتي للتوظيفات الماليّة، رغبة منها في تنمية اقتصادها وكسب ثقة العالَم الخارجيّ، وجذب الاستثمارات". (فيليكس هوفويه بوانيي).

---

١ - ميشال بو ضو من مقال في مجلّة "أصداء".

في ظلّ نظام ليبراليّ، يعتبر الملكيّة الخاصّة حقّ للجميع، من تجّار وصناعيّين ومزارعين وطنيّين وأجانب، تُقاس قيمة الفرد في الاقتصاد، بنسبة ما يبذل من جهد لمصلحة البلد المضيف. وعلى حدّ تعبير الرئيس فيليكس هوفويه بوانيي:

"**جنسيّة المواطن لا تحدّد بمكان ولادته فحسب، وإنّما بمدى الحبّ الذي يكنّه للأرض التي يعيش عليها**". ردًّا على سؤال يتعلّق باللبنانيّين، أجاب في مؤتمر صحفيّ عقده في ١٤ تشرين الأوّل ١٩٨٥:

"عندنا لبنانيّون يعيشون هنا منذ أكثر من مئة سنة. بعضهم أمّ هذا البلد قبل ولادتي. ونذكّركم أنّ لبنان وسوريا كانا محميّتين فرنسيّتين. القادمون الأوائل إلى هنا من اللبنانيّين، عملوا في المناطق الداخليّة مثلنا في تجارة المحاصيل.

لم يشتكِ أحد على الإطلاق من وجود هؤلاء السوريّين واللبنانيّين، الذين عملوا في التجارة منذ بدء الحرب في لبنان؛ لجأ الكثيرون منهم إلى هنا، وقلت آنذاك أنّه علينا أن نستقبلهم كما استقبلنا سواهم، لأنّ إرادة الله أرسلتهم إلينا".

ينقسم ميدان الاقتصاد إلى ثلاثة قطاعات: زراعة، وصناعة وخدمات. وسنعرض بإيجاز مكانة اللبنانيّين في كلّ من هذه القطاعات.

١ - القطاع الزراعيّ

الزراعة واستثمار الغابات هما دعامتا هذا القطاع الأساسيّتان.

أ - الزراعة وتربية الحيوانات(٢)

تتميّز الزراعة بتنوّعها وبكونها موضع تشجيع من الدولة. غير أنّها لم تجتذب اللبنانيّ الذي يحمل ذكريات تعيسة عنها رافقته من الوطن الأمّ، حيث يُترك الفلّاح لمصيره وحيدًا، يصارع تقلّبات الطقس، ويعاني من سوء أنظمة الريّ، ومشكلة تصريف المحاصيل الزراعيّة.

٢- نذكر أنّ حوالى عشرة لبنانيّين يمتهنون تربية الحيوانات، ويمتلكون مزارع لتربية الدواجن.

تتحدّر غالبيّة المغتربين اللبنانيّين من وسط زراعيّ يعتبرونه مسؤولاً عن الشحّ الذي يعانيه ذووهم. لذلك انصرفوا منذ وصولهم إلى تعاطي التجارة، على الرغم من صعوبة الاستثمار فيها.

إنّ ظاهرة التحوّل إلى قطاع الصناعة التي تربط الإنسان أمدًا طويلاً بالبلد المضيف، تجعلنا نستبعد الفرضيّة القائلة بأنّ المغترب يتحاشى تعاطي الزراعة، لأنّ الاستثمار فيها طويل الأمد. أوَلا تتطلّب الصناعة الكثير من الانتظار؟

"انصرف روّاد الاغتراب اللبنانيّ إلى التجارة على تواضعها وصعوبتها... لأنّها لا تربط الإنسان بالأرض، بل تلائم أُناسًا مهاجرين يأتون بِنيّةِ العودة بأسرع ما يمكن إلى الوطن الأُمّ، حالَما يحصّلون بعض الثروة...

بالإضافة إلى كون التجارة توفّر أرباحًا سريعة وفي مدّة أقصر، بالمقارنة مع الصناعة والزراعة"(٣).

يمتلك المزارعون اللبنانيّون حقول الموز والأناناس وجوز الهند، ولا سيّما في منطقة الجنوب الشرقيّ(٤). غير أنّ المسجّلين منهم في غرفة الزراعة قلائل.

كما تكثر منازل اللبنانيّين المحاطة بالحدائق، في المناطق الداخليّة من البلاد.

ب - استثمار الغابات

يمتلك اللبنانيّون العاملون في هذا القطاع، على قلّتهم، مشروعات ذات أهمّية بالغة. فمن أصل ثمانمئة مستثمر عاجيّ، هنالك عشرون من أصل لبنانيّ، يعملون في هذا القطاع لكونهم يحملون الجنسيّة العاجيّة. و يزعم البعض أنّ قسمًا من اللبنانيّين الذين لا يحملون الجنسيّة العاجيّة، يعملون في استثمار الغابات، عبر عقد اتّفاق ضمني مبرم مع شخص آخر يحمل إجازة استثمار.

٣- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

٤- منهم: فرحات في أدزوبيه، فخري في غران بسّام وزين في اغبوفيل.

"أثرى عدد كبير من اللبنانيّين العاملين في ميدان استثمار الغابات، وأصبح نفر منهم من مؤسّسي معامل تصنيع الخشب ومالكيها (مناشر آليّة)"[٥].

نورد على سبيل المثال: ضاهر، وهّاب وفرحات...

و تشير الدراسات المستندة الى نشرات غرف التجارة و الصناعة و الأرقام الماليّة المعتمدة في المصارف إلى تأثير اللبنانيين في الاقتصاد العاجيّ.

من جهة أُخرى، ثبت لنا من خلال الوثائق والإحصاءات، أنّ هذه المؤسّسات تهمل تغطية القطاع الزراعيّ، وتكتفي بتغطية نشاطات المدن المؤلّفة من مئة ألف نسمة فأكثر. نتيجة لهذا الواقع لم تتمثّل الزراعة وتربية الحيوانات واستثمار الغابات في الأرياف وفي المزارع في الإحصاءات المشار إليها.

ب - القطاع الصناعيّ

سعى ساحل العاج، المتميّز بزراعة غنيّة متنوّعة، لإيجاد قطاع صناعيّ، يوازي القطاع الزراعيّ من حيث فاعليّته وتنوّع نشاطاته.

ففيما كان النشاط الصناعيّ العالَميّ، بين عامي ١٩٦٠ و١٩٧٠، يسجّل نموًّا بمعدّل ١٥٪ في السنة، كانت نسبة الإنتاج الصناعيّ إلى الإنتاج العامّ في ساحل العاج تتراوح بين ١٥,٢٪ إلى ٢٥٪، في حين أنّ الصناعة العاجيّة كانت قبل الاستقلال محصورة بتصنيع محاصيل التصدير قبل طرحها في الأسواق العالميّة.

إيمانًا منهم بالعمل على تنمية ساحل العاج وازدهاره في ظلّ ظروف مؤاتية من السلام والنظام الحرّ، استجاب اللبنانيّون، كما استجاب كثير من الغرباء، أفارقة وغيرهم، إلى نداء المسؤولين، وطرحوا رساميل كبيرة في خدمة التنمية، وبخاصّة القطاع الصناعيّ. لقد تحوّل عدد كبير من اللبنانيّين إلى الصناعة، بعد أن كان ٩٥٪ منهم يعملون في الميدان التجاريّ:

"منذ أطلقتم نداءكم في الستّينات، صُفّيَت بعض متاجرنا لشراء أوّل آلة لبناء

٥- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٥٥.

أوّل منشأة صناعيّة، ممّا رفع عدد الصناعيّين اللبنانيّين من اثنين في ذلك التاريخ إلى تسعة وسبعين عام ١٩٧٩، وإلى مئة وسبعة وأربعين في يومنا هذا، يعملون في الصناعة الغذائيّة والنسيج والخشب والبلاستيك والمعادن والملبوسات والصناعة الكيميائيّة إلخ..."[٦].

وفقًا لإحصاءات نشرتها غرفة الصناعة، بلغت قيمة الرساميل اللبنانيّة الموظّفة في الصناعة مليارين وثلاثمئة وثلاثة وأربعون مليون فرنك أفريقيّ بتاريخ ١٩٧٨/١٠/١ أي ٢,٤٧٠٪ من المجموع الكلّي الموظّف في ساحل العاج، وهي أرقام تنمّ عن سرعة النموّ في طرح الرساميل اللبنانيّة، إذ بلغت هذه الزيادة ٥٤,٥٪ عمّا كانت عليه سنة ١٩٧٦م[٧].

غير أنّ هذه الأرقام تبقى موضع شكّ، إذ تشير إحصاءات أُجريت في ٧٩ منشأة لبنانيّة، إلى مبلغ ٤٢٦٢ مليونًا.

ولو اعتمدنا الأرقام الماليّة في نشرة غرفة الصناعة دون سواها، لتبيّن لنا أنّ أموال اللبنانيّين الموظّفة في الصناعة هي ٧، ٣ مليار فرنك أفريقيّ عام ١٩٧٩. يحتلّ اللبنانيّون المرتبة الرابعة، بعد الدولة والقطاع العاجيّ الخاصّ، ثمّ فرنسا وسويسرا. فهم يهيمنون على ٢٠٪ من القطاع الصناعيّ الحديث، ويأتي ترتيبهم قبل الولايات المتّحدة التي كانت تشغل المرتبة الرابعة قبل سنتين من هذا التاريخ.

التحليل القطاعيّ

سنعود الآن إلى دراسة مفصّلة لكلّ فرع على حدة لنكشف بجلاء وبالأرقام، مدى إسهام المشاريع اللبنانيّة في اقتصاد ساحل العاج، بدءًا بعدد المنشآت، إلى الأرقام المتداولة ثمّ عدد العاملين فيها، انطلاقًا من دراسة قدّمتها عام ١٩٧٩، لجنة الدراسات الاقتصاديّة في الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم - فرع أبيدجان، اعتمدت فيها إحصاءات مكتب

٦- من كلمة نائب رئيس الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم، فرع أبيدجان، ألقاها أمام الرئيس هوفويه بوانيي في تشرين الثاني سنة ١٩٨٣، بحضور ٤٠٠ مغترب لبنانيّ.

٧- كان الفرنك الفرنسيّ يعادل خمسين فرنك افريقيّ حتّى سنة ١٩٩٤، تاريخ تعويم الفرنك الأفريقيّ بحيث بات يساوي مئة فرنك أفريقيّ.

CE. CO. GEN على أساس معلومات غرفة الصناعة (نشرة شهريّة: شباط ١٩٧٩ وأيّار ١٩٧٩) وعلى أساس التحقيق الذي أجريناه لدى ٧٩ منشأة لبنانيّة.

ويذكر أنّه منذ العام ١٩٧٩، أُنشئت عدّة وحدات لبنانيّة للإنتاج الصناعيّ، وهي لا تدخل ضمن البيانات التالية. نتيجة لذلك، تكون كلّ الإحصاءات الواردة في هذا الفصل، قابلة للتعديل.

الصناعات الغذائيّة

ينتج قطاع الصناعات الغذائيّة ثلث الناتج الصناعيّ العامّ في البلاد.

وهو رقم منطقيّ، طالَما بقي ساحل العاج محافظًا على وفرة محاصيله الزراعيّة.

في ساحل العاج ثلاث فئات من المنشآت(٨):

١ – المنشآت المعدّة لتصنيع المحاصيل المحليّة بقصد تصديرها:

تعليب الأناناس، تهيئة البنّ والكاكاو...

إنّ وجود هذه المنشآت يفسّر ضخامة رقم المبيعات، الناتج عن القطاع الغذائيّ لمصلحة التصدير.

٢ – المنشآت المعدّة لتأمين حاجات السوق المحليّة (معامل جعة، معاصر زيت).

٣ – الفئة الثالثة هي منشآت مولجة بدعم الموارد الزراعيّة المحلّية، وتصدير المحاصيل الأساسيّة، وفقًا لاستراتيجيّة ساحل العاج الصناعيّة الجديدة. تجدر الإشارة إلى أنّ المنشآت اللبنانيّة ذات وضع سليم، وتحتلّ مكانةً مرموقةً تنافس منشآتٍ كبيرة، تستخدم وسائل إنتاجيّة متطوّرة.

أ – العدد الإجماليّ للمنشآت الغذائيّة: ١٥٧، منها ١٠ منشآت لبنانيّة:

- CIGEB.

٨– قام بإحصائها ريشار نصر عام ١٩٧٩، بناء على طلب لجنة الدراسات الاقتصاديّة في الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم، فرع أبيدجان.

- شركة أبناء أبي نادر.
- شركة ألبان منى.
- S. N. C.V.
- شركة (ملح ايفوار).
- مخابز بسّام.
- مخابز أبيدجان.
- ج. غنمة وشركاه.
- I. R. A. N.
- مي إيفوار.

ب – عدد المستخدمين في الصناعة الغذائيّة: ١٤٦٨٤ شخصًا، موزّعون كالتالي:

٨٧٤٠ عاجيّاً، ٥٥٥٥ أفريقيّاً غير عاجيّ و٣٨٩ غير أفريقيّ؛

منهم ٤٦٤ عاجيّاً، ٢٦٤ أفريقيّاً غير عاجيّ و٢٨ غير أفريقيّ، يعملون في المنشآت اللبنانيّة.

ج – بلغت القيمة الإجماليّة للأجور والأعباء المقدّمة من قبل الصناعة الغذائيّة ١٠٩٩١ مليونًا، عن العامين ١٩٧٧ – ١٩٧٨، منها ٣٢٦ مليونًا على عاتق المنشآت اللبنانيّة، أي نسبة ٢٨٪ من المجموع العام. أمّا رقم المبيعات فبلغ ١٤٣٨٦٧ مليونًا منها ٣٥٩٢ مليونًا عائدة للمنشآت اللبنانيّة.

د – تتحمّل المنشآت اللبنانيّة نسبة ١٦٪ من رقم مبيعاتها، كأُجور مدفوعة.

هـ – وفقًا لسجّلات غرفة الصناعة، يبلغ الرأسمال اللبنانيّ الصناعيّ الموظّف في ساحل العاج ٤٨٥٥٠٠ ف.أ. ويأتي في المرتبة الرابعة بعد كلّ من: دولة ساحل العاج، القطاع العاجيّ الخاصّ، فرنسا وسويسرا.

صناعة التعليب وتهيئة الأغذية

عدد المنشآت العاملة ٢٠، منها ٦ منشآت لبنانيّة رأسمالها ٣٠٠ مليونًا:

- شركة أبي نادر وأولاده.
- ج. غنمة وشركاه.
- مصنع ألبان منى.
- مي إيفوار.
- شركة (ملح ايفوار).
- S. N. C. V.

عدد العاملين في منشآت التعليب وتهيئة الأغذية هو ٣٦٦٤، موزّعون كما يلي:

٢٣٠٣ عاجيّين، ١٢٨٩ أفريقيّاً و٧٢ غير أفريقيّ تستخدم منهم المنشآت اللبنانيّة

١٦٥ عاجيّ، ١١٩ أفريقيّاً و٧٢ غير أفريقيّ.

- المبلغ الإجماليّ للأُجور ٢٠١٥ مليون فرنك، منها ١٢٩ مليون على عاتق المنشآت اللبنانيّة.

- يبلغ رقم المبيعات الإجماليّ ١١٤٢١ مليونًا، منها ٢٠٣٣ مليونًا للبنانيّين. أمّا الاستثمارات الإجماليّة المدمجة فهي بقيمة ١٩١٢٤ مليونًا، منها ١٣٣٠ مليونًا للمنشآت اللبنانيّة.

صناعة المشروبات والموادّ الغذائيّة المثلّجة

- عدد المنشآت ثمانية، منها منشأة لبنانيّة واحدة هي I. R. A. N

عدد العاملين الإجماليّ:

٢٣٠٣ عاجيّين، ١٢٨٩ أفريقيّاً و٧٢ غير أفريقيّ

منهم ٨٦ عاجيّاً، ٢٠ أفريقيّاً و٦ غير أفريقيّ، يعملون في المنشأة اللبنانيّة المذكورة.

- القيمة الإجماليّة للأُجور ٢١٠٨ ملايين، منها ٤٨ مليونًا على عاتق شركة I. R. A. N.

- الرقم الإجماليّ للمبيعات ٣٦٠٤٥ مليونًا، منها ٤٩٩ مليونًا لشركة I. R. A. N.[٩]

- الاستثمارات المدمجة ٧٩٧٤ مليونًا منها ١٠٣٠ مليونًا لشركة I. R. A. N.، العاملة برأسمال ١٢٠ مليون فرنك. أ.

الحبوب والطحين

عدد المنشآت مئة وثلاث عشرة، منها ثلاث منشآت لبنانيّة:

مخابز بسّام، مخابز أبيدجان وCIGEB

عدد العاملين فيها:

٢٨٧٢ عاجيّاً، ٣١٤٦ أفريقيّاً و١٨٦ غير أفريقيّ؛

منهم ٢١٣ عاجيّاً، ١٢٥ أفريقيّاً و١٠ غير أفريقيّ يعملون في المنشأة اللبنانيّة المذكورة.

الرأسمال الإجماليّ: ٦٥,٥ مليون فرنك أفريقيّ. قيمة الأُجور ٢٢٤٠ مليونًا منها ١٩٩ على عاتق شركة CIGEB، ومخابز بسّام ومخابز أبيدجان. يبلغ رقم المبيعات الإجماليّة ٣١,٤٤١ مليونًا منها ١٠٥٩ مليونًا للمنشآت اللبنانيّة. أمّا الاستثمارات المدمجة فهي ١٠١٢٩ مليونًا للمنشآت اللبنانيّة فيها مبلغ ٣٧٢ مليونًا.

٩- إثر مقابلة مع السيّد سليم فرحات في كانون الأوّل ١٩٨٥، تمكنّا من تصحيح الأرقام المذكورة، المختصّة بشركة I. R. A. N. وفقًا لما يلي:
- ارتفع رأسمال الشركة إلى ٣٢٠ مليون فرنك أفريقيّ
- رقم المبيعات الحاليّ مليار فرنك.
- عدد العاملين ٩٠.

الملاحظ غياب الرأسمال اللبنانيّ عن قطاع صناعة الموادّ الغذائيّة الزيتيّة، وصناعة التبغ، بالإضافة إلى الصناعات الغذائيّة الأُخرى.

١ - صناعة النسيج والجلد والأحذية

يعتبر قطاع صناعة النسيج من أهمّ الصناعات العاجيّة، من حيث ضخامة رقم المبيعات، وهي من أقدمها إذ يكفي أنّ نعرف أن شركة غونفرفيل كانت تستخدم، قبل عام ١٩٣٠، أكثر من ٢٥٠٠ عامل في مصنعها في بواكيه.

قرّرت الحكومة تطبيق سياستها الصناعيّة الجديدة على قطاع النسيج، نظرًا لسهولة الحصول على كمّيات كبيرة من القطن المحلّي، ذي الجودة العالية.

وفقًا لسجلّات غرفة التجارة، تقوم في ساحل العاج ٥٨ منشأة لصناعة النسيج والجلد والأحذية، ملكيّة ٢٠ منها للبنانيّين.

أ - صناعة النسيج والملبوسات

يمتلك اللبنانيّون ٦ منشآت، تعمل في هذه الصناعة، من أصل ٣٦:

- عدد العاملين في هذا القطاع ١١٥٦٥، موزّعون كما يلي:

١٠٦٨٥ عاجيًّا، ٦٠٤ أفارقة و٢٧٦ غير أفريقيّ.

٦٠٤ عاجيّين، ٣٧ أفريقيًا و١٩ غير أفريقيّ يعملون في المنشآت اللبنانيّة الست المذكورة.

- الأُجور الإجماليّة ١١٧٨٧ مليونًا، منها ٢١٩,١٦ مليونًا تتحمّلها الشركات اللبنانيّة.

- رقم المبيعات الإجماليّ ٢,١٩٣ مليون فرنك. أ.

- الاستثمارات المدمجة تبلغ ١٥٤٧ مليونًا، ورساميلها ٧٣٣,٥٠٠ مليونًا.

ب - صناعة الجلد والأحذية

عدد المنشآت العاملة ٢٢، للبّنانيّين منها ١٤:

I. F.A.P.، M.E.F.C.O.، I.C.A.P.، S.I.I.A.P.، S.I.I.P.، S.I.P.V.C.، I.S.C.، مؤسّسة سليم مروّه، S.A.M.I.، S.I.F.C.E.P.، S.I.Z.A.، S.I.E.M.P.، S.P.I.C.I.، و SL.CO.PLA.CL.

- تبلغ رساميل الشركات اللبنانيّة المذكورة ٢٥٧ مليونًا، بينما يبلغ مجموع الرساميل الموظّفة في صناعة الجلد والأحذية ٦٨٨ مليونًا. ويأتي الرأسمال اللبنانيّ في المرتبة الثالثة بعد كلّ من فرنسا (٣٢٨ مليونًا) وكندا (٢٧٠ مليونًا).

عدد العاملين في هذا القطاع:

٦٣٨ عاجيًّا، ١٣٩ أفريقيًّا و٣٨ غير أفريقيّ؛

منهم ٤١٦ عاجيًّا، ١٣٢ أفريقيًّا و٢٠ غير أفريقيّ يعملون في المصانع اللبنانيّة:

- قيمة الأُجور الإجماليّة ٩٢٩ مليونًا منها ٣٣٩,١٦ مليونًا على عاتق الرأسمال اللبنانيّ.

- رقم المبيعات ٣٢٨١ مليونًا منها ٢٦٤٠ لمصلحة المنشآت اللبنانيّة.

- الاستثمارات المدمجة للمنشآت اللبنانيّة الأربع عشرة ٦٨٤,٥ مليونًا.

صناعة الخشب

- في ساحل العاج ثروات حرجيّة ضخمة، ممّا أوجد بصورة طبيعيّة صناعة خشبيّة ذات أهمّية بالغة، تعمل فيها أعداد وفيرة من العمّال والموظّفين.

- عدد المنشآت العاملة ٩٥، منها ١١ مؤسّسة لبنانيّة[١٠].

ميبانورد	منشرة انيبيليكرو
E.A.M.E.C.	منشرة ن. وهّاب
مفروشات S.A.M.E.	مولتيموبل
الشركة العاجيّة للمفروشات	ضاهر عبدالله
موبلييفوار	S.I.T.B.A.C.I.
M.I.A.	

١٠- عددها ٢٠ وفق دراسات أُخرى.

– عدد العاملين الإجماليّ فيها:

٧٣٥٠ عاجيًّا، ٤٥٦٠ أفريقيًّا و٣٤٠ غير أفريقيّ؛

منهم ٨٧٢ عاجيًّا، ٥٥٨ أفريقيًّا و٤١ غير أفريقيّ يعملون في الشركات اللبنانيّة.

– قيمة الأُجور الإجماليّة ٦٦١٥ مليون فرنك.أ، تتحمّل الشركات اللبنانيّة منها ٥٦٠,٧٣ مليونًا.

– رقم المبيعات ٤٠١٦٢ مليونًا، منها ٣٠٠٢ مليون فرنك.أ. عائدة للرأسمال اللبنانيّ.

– تبلغ الاستثمارات المدمجة ٣٥ مليار فرنك.أ، منها ٥ مليارات ومليون فرنك.أ مساهمة المنشآت اللبنانيّة الإحدى عشرة.

ونورد في الجدول التالي بعض الأسماء المكمّلة للقائمة السالفة:

الشركة	التاريخ	مكان إنشائها	الإدارة
المنشأة العاجيّة للبناء والخشب		ياموسكرو	عبداللّه ديالو – زهر
شركة الإنشاءات العاجيّة		أبيدجان كوماسي	علي حيدر
شركة مرعي إخوان		ديفو (طريق هيروتا)	سمير مرعي
صناعة تحويل الخشب TRABEX	١٩٧٩	لاكوتا	صابح نيزاردو
شركة تصنيع الخشب TRIBOIS	١٩٧٧	سان بدرو (سيوبكيه)	ريمون اوبر

الكيمياء والنفط

ينشط قطاع الكيمياء والنفط في ساحل العاج، وتعمل فيه عدّة منشآت ذات أهمّية بالغة. تتكوّن الصناعة النفطيّة من مصفاة S.I.R. ،تحتلّ مكان الصدارة من حيث رقم مبيعاتها. وهذا القطاع، الذي لا أثر للرأسمال اللبنانيّ فيه، محصور بامتيازات الدولة العاجيّة والولايات المتّحدة الأميركيّة وفرنسا وبريطانيا.

أمّا قطاع الصناعة الكيميائيّة فوضعه أفضل بكثير. إذ يبلغ عدد المنشآت العاملة فيه ٤٧، منها ٨ منشآت لبنانيّة:

مصنع عطور غندور	بوليبلاست
S.O.T.I.C.I.	S.O.A.C.O.
S.I.P.A.R.C.O.	S.C.C.I.
M.A.P.	S.O.C.I.C.I.V.

– يبلغ مجموع الرساميل اللبنانيّة في قطاع الصناعة الكيميائيّة ٧٩٥ مليون فرنك.أ، من أصل ٣٦٧٢ مليونًا، هي مجموع الرساميل العاملة في البلاد.

– عدد العاملين في هذا القطاع:

٢٨٥٧ عاجيّ، ٦٨٦ افريقيّ و١٩١ غير أفريقيّ؛

منهم ٥٩٦ عاجيًّا، ٧٠ افريقيًّا و٣٢ غير أفريقيّ يعملون في المصانع اللبنانيّة.

– قيمة الأُجور الإجماليّة ٥٢٦٥ مليون فرنك، تدفع منها المصانع اللبنانيّة ٢٨١ مليونًا.

– رقم المبيعات ٤٢١٥٥ مليونًا يعود منها ٤٩٠٠ مليونًا للمصانع اللبنانيّة.

صناعة المطّاط

لا تزال صناعة المطّاط في مراحل نموّها الأولى، إذ ينحصر نشاطها في تصدير عصارة اللاتكس على صورة مطّاط طبيعيّ خام، إلى معامل تصنّعه إلى أدوات مختلفة.

ففي ١/١٠/١٩٧٦، لم يكن في ساحل العاج سوى خمسة مصانع. ووفقًا لإحصاءات عام ١٩٧٨، تعمل الآن في البلاد منشأتان لبنانيّتان في هذه الصناعة:

SOFALCI	SAFEMCI

– الرأسمال الإجماليّ ٥٢٢ مليون فرنك.أ، منها عشرة ملايين قيمة رأسمال المصنّعين اللبنانيّين المذكورين.

– عدد العاملين:

٤٢٦ عاجيًّا، ٢٥٥ أفريقيًّا و١٦ غير أفريقيّ؛

منهم ٣٨ عاجيًّا، ٢٠ أفريقيًّا و٤ غير أفارقة يعملون في المصانع اللبنانيّة:

– قيمة الأُجور الإجماليّة ٥١٧ مليون فرنك.أ، منها ٦٠ مليونًا على عاتق المصنعيْن اللبنانيّين المذكورين.

المعادن – الميكانيك

– قطاع المعادن والميكانيك ذو فاعليّة متوسّطة، إذ يعمل أساسًا لسدّ حاجات السوق المحلّية، ويتكوّن في الغالب من محترفات ومعامل يشتغل فيها بضع عشرات من العمّال.

– يحتلّ الرأسمال اللبنانيّ المرتبة الثالثة، بعد كلّ من فرنسا والولايات المتحدة:

فرنسا	٣٣١٨ مليون فرنك.أ
الولايات المتحدة	١٢٨١ مليونًا
لبنان	٩٦٢,٥٠٠ مليونًا
الدولة العاجيّة	٧٦٦ مليونًا
القطاع الخاصّ العاجيّ	٥٢٩ مليونًا
سويسرا	٢٥٨ مليونًا
الاسماعيليّون	١٦٩ مليونًا
هونغ كونغ	١٦٨ مليونًا
اليابان	٩٤ مليونًا

يبلغ مجموع المصانع العاملة ٥٣، منها ١٣ مصنعًا لبنانيًّا:

مصلحة التبريد	S.O.T.A.C.I.
S.A.D.C.O.	M.E.T.A.C.Y.C.L.E. (ميتاسيكل)
S.I.F.F. التقنيته	مرآب زهر
A.T.T.	S.O.A.D.
بديع أشقر	مرآب سيلييه
I.T.A.	مالك حسيب أبو شبل
شركة التبريد والتكييف الصناعيّ	

عدد العاملين الإجماليّ:

٥٠٤٤ عاجيًّا، ١٣٧٤ أفريقيًّا و٣٠٤ غير أفريقيّ؛

منهم ٥٩٣ عاجيًّا، ١٦٥ أفريقيًّا و٥٤ غير أفريقيّ يعملون في المنشآت اللبنانيّة:

– قيمة الأُجور الإجماليّة ٣٥٦٠ مليون فرنك.أ تدفع منها المصانع اللبنانيّة ٨٥٠ مليونًا.

– رقم المبيعات ١٨٣٤١ مليونًا يصيب منها المصانع اللبنانيّة ٩٨٣٣ مليونًا.

تتوزّع المنشآت الثلاث عشرة المذكورة كما يلي:

أ – صناعة الحديد والتصنيع الأوّليّ، يعمل في هذا الفرع ثلاث منشآت لبنانيّة: S.O.T.A.C.I.، S.A.D.C.O. وM.E.T.A.C.Y.C.L.E.

يبلغ رأسمالها الإجماليّ ٣٦٢,٥٠٠ مليون فرنك.أ.

– رقم مبيعاتها ٧٩٢ مليونًا.

– توظيفاتها ١٣٣٠ مليونًا.

وتستخدم ٧٩ عاجيًّا، ١٤ أفريقيًّا و٩ غير أفارقة.

ب – بناء وإصلاح الأجهزة والنقل

عدد المنشآت العاملة ١٦، منها ٨ منشآت لبنانيّة:

S.I.F.F. التقنيّة	A.T.T.
مرآب زهر	S.O.A.D.
مرآب سيلييه	بديع أشقر
مالك حسيب أبو شبل	I.T.A.

– مجموع رساميلها ٢٨٥٧ مليونًا، منها ٥٧٧ مليونًا رأسمال لبناني.

عدد العاملين فيها:

٢٠١٥ عاجيًّا، ٤٠٢ أفارقة و١١٦ غير أفريقيّ؛

منهم ٤٨٨ عاجيًّا ،١٤١ أفريقيًّا و٤٣ غير أفريقيّ يعملون في المنشآت اللبنانيّة.

ج - صناعات كهربائيّة وميكانيكيّة أُخرى

عدد المؤسّسات العاملة ٣٦،

رأسمالها الإجماليّ ٤٤٧٢ مليون ف.أ، منها ٢٠ مليونًا رأسمال هاتين المؤسّستين اللبنانيّتين:

- مؤسّسة التبريد.
- مؤسّسة التكييف والتبريد الصناعيّ.

عدد العاملين الإجماليّ:

٢٨٦٥ عاجيًّا، ٩٢٥ أفريقيًّا و١٨٣ غير أفريقيّ؛

منهم ٢٦ عاجيًّا، ١٠ أفارقة و٢ غير أفارقة يعملون في المؤسّستين المذكورتين أعلاه:

رقم مبيعاتهم: ٧٠ مليونًا.

الاستثمارات المدمجة: ٤٠ مليونًا.

صناعات متفرّقة

عددها الإجماليّ ١٠٠، منها ١٠ منشآت لبنانيّة. من بين هذه المؤسّسات المئة ٣٨ مؤسّسة طباعيّة، يمتلك اللبنانيّون خمسًا منها.

- رأسمالها الإجماليّ ٢٠٤٨ مليون فرنك.أ، من أصلها ٨٠٠ مليونًا هي رأسمال المطابع اللبنانيّة.
- رقم المبيعات ١٣٤٦٧ مليونًا، نصيب المؤسّسات اللبنانيّة منها ٥٠٠ مليونًا.
- العدد الإجماليّ للعاملين فيها:

١٧١٠ عاجيّين، ٢٩٥ أفريقيًّا و٩٨ غير أفريقيّ؛

منهم ٣٢٩ عاجيًّا، ٦١ أفريقيًّا و٤٢ غير أفريقيّ يعملون في المؤسّسات اللبنانيّة:

- قيمة الأُجور الإجماليّة ٢٢٥٤ مليونًا، تدفع المؤسّسات اللبنانيّة منها ٣٢٠ مليونًا.

المطابع

في ساحل العاج كما أسلفنا ٣٨ مطبعة، منها خمس مطابع لبنانيّة[١١]:

- مطبعة تكني برس.
- ميسي.
- مطبعة دي بلاتو.
- مطبعة دي ميدي.
- مطبعة أبيدجان.
- رأسمالها الإجماليّ ٨٤٥ مليون فرنك.أ، قيمة الرأسمال اللبنانيّ فيها ٧٥ مليونًا.
- رقم المبيعات ٣٦١١ مليونًا، نصيب المطابع اللبنانيّة منها ١٠١١ مليونًا.
- عدد العاملين فيها:

٨٥٢ عاجيًّا، ٢٢٢ أفريقيًّا و٦٨ غير أفريقيّ؛

منهم ١٠٢ عاجيّين، ٣٧ أفريقيًّا و١٧ غير أفريقيّ يعملون في المؤسّسات اللبنانيّة.

- قيمة الأُجور الإجماليّة ٩٤١ مليونًا، تدفع منها المطابع اللبنانيّة الخَمس ٤٠ مليونًا.
- التوظيفات اللبنانيّة المدمجة ٥٩٢ مليونًا من أصل ٢٠٥٢ مليونًا تعود لكلّ المطابع العاملة في ساحل العاج.

١١- أُنشِئَت مطبعة سادسة عام ١٩٧٠، تحت اسم "باجينا". أمّا آخر مطبعة فأُنشِئَت عام ١٩٨٤، وتحمل اسم "بوبليغراف".

الخلاصة

إنّنا إذ نؤكّد أنّ إحصاءات غرفة الصناعة لا تعكس الصورة الحاليّة لواقع الصناعات اللبنانيّة، لأنّ العديد منها قد حُذِفَ أو إنّه لم يُدرج أصلاً، فإنّ الجداول والأرقام التي قدّمناها آنفًا تشير إلى موقع هذه الصناعات، وهي أرقام قابلة للتعديل، فأحدثها يستند إلى دراسات جرت عام ١٩٧٩ .

واللبنانيّون الذين دخلوا أخيراً هذا الميدان يعملون إجمالاً في وضع قانونيّ سليم. على أنّ كلّ مصنع شُيِّد وكلّ آلة ركِّبت، فإنّما بفعل تضحيات جسيمة وجهود كبيرة أقنعت اللبنانيّ بالتحوّل إلى التجارة وطرح توظيفات صناعيّة لآجال طويلة، تلزمه بالبقاء في ساحل العاج مدّة جيلين على الأقلّ.

ج - قطاع الخدمات

تعاطى اللبنانيّ التجارة. فكان مجليًا، بنى لنفسه شهرة عريقة في ميدانها. فهو يباشر نشاطه الاغترابيّ تاجرًا. وإذ يمارس نشاطات أُخرى، يلازمه هاجس التجارة على الدوام. لقد أفاد اللبناني من حسن الاستقبال والليبراليّة، فمارس التجارة على أنواعها، واكتسب خبرة حول حاجات السوق ومحاصيل البلاد، استحقّ معها ثناء المسؤولين العاجيّين، الذين وصفوه "بالوكيل الاقتصاديّ للدولة العاجيّة".

اتّجه اللبنانيّون بادئ الأمر نحو الجماعات ذات القدرة الشرائيّة الضعيفة أو المتوسّطة، قبل أن يتخلّوا عن تجارة المفرّق للسكّان الوطنيّين. وما أن تطوّرت شبكات الطرق ووسائل المواصلات، حتّى مارسوا تجارة الجملة قانعين بالأرباح الضئيلة، محيطين بحاجات المستهلك، بفضل مرونة عالية في إدارة أعمالهم وتقليص النفقات العامّة[١٢] إلى أدنى حدّ ممكن: "اللبنانيّون في ساحل العاج تجّار قبل كلّ شيء، إنْ في المدن الداخليّة أو في الأدغال... ففي الأدغال يتعاطى اللبنانيّ، تجارة جمع البنّ والكاكاو التقليديّة، للاتّجار بها، بينما ينصرف تاجر المدينة لتوزيع الموادّ الغذائيّة والأدوات المنزليّة والأقمشة والأجهزة الالكترونيّة. بالإضافة إلى كلّ الحاجات الأوّليّة التي لا غنى للعاجيّ عنها"[١٣]. إنّ اللبنانيّين

١٢- بفضل التكوين العائليّ لهذه المؤسّسات، والذي سنعود إليه لاحقًا.

١٣- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٦١.

الأوائل روّاد التجارة في الزمن العصيب والظروف القاهرة، يشهدون تواصل أعمالهم بأُمّ العين، عبر أولادهم وأحفادهم الذين ينعمون بمراكز مرموقة في عالَم التجارة الحديثة.

نحن نفتقر إلى الإحصاءات التفصيليّة، لأنّ العديد من المنشآت التجاريّة ذو تكوين عائليّ، نادرًا ما يسجَّل في غرفة التجارة. والأرقام التي أذاعتها مديريّة التجارة الداخليّة[١٤] معبّرة، إذ تشير إلى أنّ ١٢٪ من تجّار السلع والتجهيزات هم من اللبنانيّين غير المجنّسين؛ فمن أصل ١٧٢ تاجر جملة ونصف جملة، هنالك ٦٢ لبنانيًا، ٩٣ سنغاليًّا و٢٠ فرنسيًّا، في حين أنّه بين ٣٥٨ تاجر نصف جملة ومفرّق، هناك ١٤٩ لبنانيًّا، و١٦٣ سنغاليًّا و٤٦ فرنسيًّا.

نستدلّ بوضوح أنّه بين كلّ ثلاثة تجّار في قطاع نصف الجملة يوجد تاجر لبنانيّ. يسيطر اللبنانيّون على نسبة ٢٤٪ بالمئة من تجارة المفرّق وعلى٢٠٪ من تجارة الجملة.

منذ حوالى خمس عشرة سنة، وتلبيةً لنداء السلطات السياسيّة، تخلّى كثيرون من تجّار المفرّق اللبنانيّين عن هذا النوع من التجارة للسكّان الأصليّين واتّجهوا ناحية الصناعات الغذائيّة (صناعة الحلوى والبسكويت والمشروبات الغازيّة) أو الصناعات التحويليّة (مصانع عطور، ورق، مطابع، البلاستيك، والملبوسات) كما انصرف قسم منهم إلى التمثيل التجاريّ وقطاع الخدمات.

ففي عام ١٩٧٩، بلغت قيمة التوظيفات اللبنانيّة في ساحل العاج ٥,٢ مليارات فرنك أفريقيّ، سبقهم الفرنسيّون (٦٨ مليار) والأميركيّون (١٠,٨ مليارات) فيها بأشواط.

يحتلّ اللبنانيّون مكانة مرموقة في قطاع تجارة الأحذية (٦٧٪) وتوزيع البنزين (٦٤٪) كما في قطاع الملبوسات الفاخرة (٣٥٪) ووكالات السفر (٣٢٪) بالإضافة إلى القطاع الغذائيّ (٢٥٪) والنقل الداخليّ (تاكسي) (٢٠٪). ووفقًا لمعلومات مسؤولي الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم يمتلك اللبنانيّون ٦٠٪ من أبنية ساحل العاج الحديثة (حوالى نصف أبنية العاصمة، و٨٠٪ في المناطق الداخليّة).

١٤- مجلّة أفريقيا الفتيّة الاقتصاديّة "ما هي جدوى اللبنانيّين؟"، العدد ٧ نيسان ١٩٨٢، ص ٤٢ .

في قطاع التوزيع بالجملة (التموين العائليّ)، يمتلك اللبنانيّون ١٥ متجرًا (سوبر ماركت) من أصل ٢٥:

- المركز التجاريّ (تريد سانتر - شارع كومرس)
- التبريد الصناعيّ (فروا اندستربيل - بلاتو)
- فيتال (بلاتو ٢).
- بري شوك (بلاتو ٢).
- عازار وسلامة (شارع كومرس).
- سوبر ماركت ضاهر (المنطقة ٤).
- سوبر ماركت كوماسي.
- كاش أند كاري (كوكودي).
- هوليداي ماركت (بولفار مرسيليا).
- سوبر ماركت أشالم (ماركوري).
- سوبر ماركت القدّيسة تيريز (ماركوري).
- سوبر ماركت بجّاني - جادّة جيسكار ديستان.
- سوبر ماركت بجّاني (ماركوري).
- سوبر ماركت ريفييرا.
- سوبرماركت الرون بوان.

على صعيد تقديم الخدمات، في ساحل العاج عشرة مطاعم، وشركة التأمين "ليبانو - سويس ثمّ فرع بنك لبنان والمهجر "بانافريك"، وهو المصرف اللبنانيّ الأوّل والوحيد العامل في البلاد.

كما يشكّل اللبنانيّون ٦٥٪ من تجّار نصف الجملة للأقمشة، ولهم مكانة مرموقة في تجارة الترانزيت والتمثيل التجاريّ والاستيراد والتصدير.

ويمكن إعطاء صورة سريعة لقطاع الخدمات، من خلال البحث التالي، المستمدّ من دراسة حول "الاستخدام في المنشآت اللبنانيّة - السوريّة في ساحل العاج"، أعدّها علي كوليبالي عام ١٩٧٨، بناء لطلب "إدارة الدراسات والأبحاث في المكتب الوطنيّ للتنشئة المهنيّة".

نظرة شاملة

يغطّي التحليل القطاعات الثلاثة للنشاط اللبنانيّ في ساحل العاج، ويشمل ١٢٤١ منشأة صناعيّة وعائليّة، منها ١٤٤ منشأة في القطاع الحديث و١٠٩٧ في قطاع المنشآت الصغيرة، مستخدمة ٦٥٣٨ عاملاً من مختلف الفئات الوظيفيّة.

أ - جدول رقم ١:
توزّع المنشآت اللبنانيّة - السوريّة على أساس القطاع والمنطقة

	العدد العامل			النسبة المئويّة في القطاع ٪		
المنطقة / القطاع	**أبيدجان**	**مناطق داخليّة**	**المجموع**	**أبيدجان**	**مناطق داخليّة**	**المجموع**
الزراعة	٢	١	٣	٠,٥	٠,٢	٠,٢
الصناعة	٥٦	٤٢	٩٨	٧,٨	٨	٧,٩
الخدمات	٦٦٠	٤٨٠	١١٤٠	٩١,٩	٩١,٨	٩١,٩
المجموع	**٧١٨**	**٥٢٣**	**١٢٤١**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**

يكشف هذا الجدول عن سوء فاضح في التوزيع:

- بالنسبة إلى توزيع النشاط على أساس القطاع، نلاحظ تركيزًا شديدًا في منشآت القطاع الثالث (٩١,٩٪)
- بالنسبة إلى التوزيع الجغرافيّ، نلاحظ أنّ أكثر من نصف عدد المنشآت موجود في أبيدجان.

ب - جدول رقم ٢:

العاملون في المنشآت اللبنانيّة - السوريّة على أساس المنطقة والقطاع

	العدد العامل			النسبة المئويّة في القطاع ٪		
المنطقة / القطاع	أبيدجان	مناطق داخليّة	المجموع	أبيدجان	مناطق داخليّة	المجموع
الزراعة	٢٧	٥٨	٨٥	٠,٦	٣	١,٣
الصناعة	٢١٣٣	٦٤٤	٢٧٧٧	٤٦,٦	٣٢,٩	٤٢,٥
الخدمات	٢٤٢٠	١٢٥٦	٣٦٧٦	٥٢,٨	٦٤,١	٥٦,٢
المجموع	**٤٥٨٠**	**١٩٥٨**	**٦٥٣٨**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**

الملاحظ أنّ سوء التوزيع يطال جهاز العاملين، كما يطال توزّع المنشآت.

كما يُسجَّل تفوّق واضح لقطاع الخدمات (٥٦,٢٪) وللقطاع الصناعيّ (٤٢,٥٪) في نسبة العاملين فيهما. ولا يعمل في قطاع الزراعة سوى ٨٥ مستخدمًا:

"لأنّ مركز المعلومات الماليّة يقصّر من جهة في تغطية القطاع الزراعيّ، فمن جهة ثانية لا يغطّي الإحصاء سوى النشاطات المدينيّة (مدن فيها ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر).

هذا الواقع أدّى إلى تمثيل مشوّه للمنشآت اللبنانيّة - السوريّة العاملة في الأرياف في مجالي الزراعة واستثمار الغابات، ممّا بخسها حقّها في هذا القطاع"[١٥].

فيما يختصّ بالتوزّع الجغرافيّ، تستخدم المنشآت العاملة في أبيدجان ٤٥٨٠ عاملاً، أي نسبة ٨١,٢٪ من مجموع المستخدمين. أمّا جهاز العاملين في المنشآت الداخليّة، فيبلغ نصف عدد العاملين في العاصمة.

وهكذا يبدو أنّ قطاع الخدمات هو المهيمن، سواء في العاصمة أو في المناطق الداخليّة، بخاصّة لجهة كثرة العاملين فيه.

١٥- علي كوليبالي "الاستخدام في المؤسّسات اللبنانيّة في ساحل العاج" - المقدّمة، ص ١.

ج - نسبة الاستيعاب

يبلغ معدّل عدد العاملين في المؤسّسات اللبنانيّة ٥,٣ مستخدمين، ويختلف هذا المعدّل باختلاف ميدان النشاط، ففي حين يرتفع في القطاعين الأوّل والثاني إلى ٢٨,٣، يتدنّى في قطاع الخدمات إلى ٣,٢.

د - القيمة الإجماليّة للأُجور المدفوعة

وفقًا لإحصاءات مركز المعلومات الماليّة، قامت المنشآت اللبنانيّة بدفع أُجور إجماليّة قيمتها ١٦٧١,٥ مليون فرنك أفريقيّ عن العام ١٩٧٦، أصاب العاجيّين منها نسبة ٤٢,٥٪ والأفريقيّين غير العاجيّين ١٨٪ وغير الأفريقيّين ٣٩,٥٪ بينما هم يمثّلون ١٠,٨٪ فقط[١٦] من مجموع العاملين.

المعدّل الشهريّ للأُجور ضمن هذه المنشآت ٤٥٥٠٩ ف.أ، وهو أعلى من المعدّل الشهريّ العامّ البالغ ٤٢٠٠٠ فرنك أفريقي.

هـ - نسبة العاجيّين المستخدمين

الملاحظ أنّ نسبة العاجيّين (٦٣,٣٪) العاملين في المنشآت اللبنانيّة يربو على نسبة العاملين منهم في المنشآت ذات الجنسيّات الأُخرى (٦١,٣).

الواقع أنّ المؤسّسات اللبنانيّة تفتح الباب واسعًا أمام العاجيّين للعمل لديها في المجالات غير المتخصّصة، في حين تعهد المؤسّسات الأُخرى إلى أفريقيّين غير عاجيّين للقيام بتلك الأعمال، وبالتالي تتدنّى نسبة العاملين منهم في المجالات المتخصّصة والمهام الإداريّة عنها في مجمل الميدان الاقتصاديّ. ولو قمنا بمقارنة هيكليّة الاستخدام العامّة في المؤسّسات اللبنانيّة مع هيكليّة الاستخدام في مجمل المؤسّسات العاملة في البلاد، لتبيّن لنا:

إنّ اللبنانيّين يتّجهون عمومًا إلى المشروعات الصغيرة، و نادرًا ما يؤسّسون الشركات

١٦- يعود هذا التفاوت إلى التكوين الخاصّ للمؤسّسات اللبنانيّة، وهي في غالبيّتها مؤسّسات فرديّة يقوم أفراد العائلة فيها بدور اليد العاملة، مصدر نشاط بل مصدر وجود المؤسّسة.

الكُبرى. وهم غالبيّة في قطاع الخدمات، ولا سيّما في حقل التجارة؛ على أنّ ما يثير الاهتمام هو نموّ نشاطهم في قطاع الصناعة وقد دخلوه أخيراً وأصبحوا ذوي شأن فيه. بإلقاء نظرة شاملة على نشاطات اللبنانيّين في ساحل العاج، يتبيّن بوضوح أنّهم حريصون على الإسهام، كلٌّ على طريقته، في تنمية مغترَبهم، ممّا يثير تقدير السلطات العامّة وثناءها، وبالتالي **يجعلنا نؤكّد المسلّمة الأولى في دراستنا.**

٢ - الجانب الاجتماعيّ

بيّنا من خلال دراسة النشاط الاقتصاديّ اللبنانيّ مكانة الجالية اللبنانيّة في اقتصاد ساحل العاج، وهي مكانة لا يمكن الاستهانة بها. وإتمامًا للفائدة، سنعمد الآن إلى دراسة الجانب الاجتماعيّ لحياة هؤلاء المغتربين، الذين تتجاذبهم تيّارات الغرب السائدة في البلد المضيف، والقيم الشرقيّة التي لا تزال تثير حنينهم.

١ - التباعد الاجتماعيّ والتضامن العائليّ

يَعيشُ اللبنانيّون في ساحل العاج في ظروفٍ اجتماعيّةٍ متفاوتة. وهم ينقسمون إلى طبقات ثلاث:

- الطبقة الأولى تضمّ أقلّية قديمة ميسورة، من الصناعيّين وكبار التجّار، المستقرّين منذ عشرات السنين في ساحل العاج. وهم في الغالب ورثة روّاد الموجة الاغترابيّة الأولى، الوافدة في مطلع القرن. وهم قلّما يشاركون الجالية اللبنانيّة حياتها الاجتماعيّة، ويعيشون على انفراد في منأى عن متاعب الوافدين الجدد من مواطنيهم.

- الطبقة الثانية هي الأكثر أهمّية، وتتكوّن بغالبيّتها من تجّار ومقاولي بناء ومالكي سيّارات أُجرة وشاحنات ووكالات سفر، بالإضافة إلى صناعات صغيرة وإدارة محطّات المحروقات.

- وأخيرًا طبقة المغتربين الجدد الذين لا ينعمون بوضع ماليّ مستقرّ، هم مستخدمو المحلاّت التجاريّة، من أبناء العمّ أو أبناء الأخ، يقيمون لدى أنسبائهم على أمل إيجاد عمل ملائم أو انتهاء الحرب في لبنان ليعودوا إليه.

والجدير بالذكر أنّ الحواجز بين الطبقتين الثانية والثالثة غير ثابتة، بفضل التضامن القائم بين أفراد هذه الجالية.

وقد صدق من قال بهذا الصدد: "إنّ ثراء البعض يغطّي إلى حدّ ما بُؤس البعض الآخر. اللبنانيّون المنضوون في الفئة الثالثة قلّة، تقوم بينهم وبين أفراد الفئة الثانية روابط قربى وصداقة. لذا يباشر اللبنانيّ العمل لحسابه الخاصّ بعد سنتين إلى ثلاث من الاستخدام. وجلّ ما يقال إنّنا نلمس تراتبًا طبقيًّا شديدًا داخل الفئة الثانية"[١٧].

غير أنّ التضامن العفويّ الذي كان يُضرب به المثل بين أبناء الجالية، ويمارسه قدامى اللبنانيّين، يتّجه حاليًّا إلى التقلّص، حيث بات مفهوم العائلة يقتصر - نتيجة غزو المفاهيم الاجتماعيّة الغربيّة - على الأب والأمّ والأولاد[١٨].

يبرز التضامن العائليّ فيما بين اللبنانيّين من وجهتين:

- الوجهة الأولى من خلال مساعدة الأولاد والزوجة للزوج في عمله.

- الوجهة الثانية صورة العون المقدّم سابقًا إلى الأخ أو ابن العمّ أو ابن البلدة...

٢ - أثر الدين

ورث اللبنانيّ الحسّ الطائفيّ عن أجداده؛ فمن النادر أن نجد لبنانيًّا لا انتماء دينيًّا له.

فقد تبيّن لنا، استنادًا إلى الملاحظات والمقابلات والاستقصاءات، أنّ اللبنانيّين في ساحل العاج ينتمون إلى الديانتين الكُبْرَيين: المسيحيّة والإسلام، وهما تتفرّعان إلى طوائف متعدّدة[١٩].

١٧- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٤٦.

١٨- هذا التضامن هو في طريق الزوال لصالح مؤسّسات الجالية، كالجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم التي ترعى وفقًا لميثاقها، مصالح اللبنانيّين، وتعينهم على تحمّل متاعب الاغتراب.

١٩- أثبت الإحصاء أنّ ٧٠٪ من اللبنانيّين مسلمون شيعة، ١٣٪ سنّة و١٦٪ مسيحيّون. ويقدّر نجيب زهر، الأمين العام للجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم - فرع أبيدجان، أنّ ٨٥٪ من اللبنانيّين هم مسلمون، غالبيّتهم من الشيعة.

في أبيدجان مركزان لإقامة الشعائر والاحتفالات والمناسبات الدينيّة (زواج، عماد، تناول القربانة الأولى، احتفالات مأتميّة وأعياد دينيّة) هما:

– الإرساليّة اللبنانيّة في "أدجامي" للمسيحيّين (موارنة، كاثوليك، أرثوذكس...).

– المركز الثقافيّ الإسلاميّ اللبنانيّ في "ماركوري" للمسلمين الشيعة، يشاركهم في ارتياده المسلمون السنّة. اللبنانيّ طائفيّ بطبعه، يرفض عمومًا بدافع من تعصّبه الديني التزاوج بين أبناء الديانات المختلفة.

وإذا كان بعضهم يرى في ترتيل القدّاس أو تلاوة صلاة الجمعة بالعربيّة، حاجزًا يمنع تكامل اللبنانيّين اجتماعيًّا "فالعامل الدينيّ هو أحد العوامل الباعثة على القول إنّ اللبنانيّين يعيشون منطوين على أنفسهم، إذ يكفي لتقليص عدد المصلّين الأفارقة أن يتلو الكاهن قدّاسًا بالعربيّة. أضِف إلى ذلك أنّ المسلمين والمسيحيّين في ساحل العاج على حدّ سواء، لم يُبدوا يومًا أيّ شعور أو حماس للتقارب الدينيّ تجاه الزنوج. إنّ الدور الاجتماعي للديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة، في لبنان كما في ساحل العاج، هو بثّ الشعور في نفوس معتنقيهما، بالانتماء المشترك إلى الطائفة الواحدة، ثمّ تمكين الحسّ بهويّة الجماعة المختارة في تلك النفوس. هذا المفهوم الضيّق للدين، وإن لم يكن في أساس الحرب اللبنانيّة، فقد سرّع هذه الحرب وأذكى أوارها، وهذه النظرة بالذات تدفع باللبنانيّ لطرح نفسه كإنسان مختلف عن العاجيّين، ممّا يشكّل كابحًا لتقارب هاتين الفئتين"[٢٠].

هذه النظرة السطحيّة لعمليّة الاندماج الاجتماعيّ، تُسقط كون المغترب ينصرف إلى العمل والحياة بسلام، ولا يعير أهمّية للتبشير. وهذا ما يشدّد عليه البلد المضيف. فقد تمرّ أجيال قبل أن يلمس المغترب – لدى أولاده أو أحفاده – تباشير التكيُّف وثماره، لأنّ هدف التأقلم ليس القبول بتواجد المغترب فحسب، بل الاعتراف بمواطنيته الناجزة في البلد المختار[٢١].

٢٠– ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٤٩.

٢١– كتب ناكي بوازو بهذا الخصوص: "إنّ شباب الجيل اللبنانيّ الجديد أكثر ثقافة من أسلافهم وأقلّ مناعة للتماثل والتكامل. يختلف سلوكهم عن سلوك ذويهم، فهم أكثر قابليّة للتأثّر بعالَم يتغيّر لذا لا نلمس فيهم التعصّب الدينيّ والنزوع المتطرّف إلى التزاوج الطائفيّ والعائليّ الذي كان ولا يزال

هذه الغاية تتحقّق من خلال عناصر ثلاثة: أوّلها رغبة الإنسان أو إرادته في فرض الاعتراف به، ثمّ الوسيلة أو قدرته على فرض هذا الاعتراف وأخيرًا معرفته بلغة القوم، أداة التعبير عن الإرادة والوسيلة التي تضفي عليها معنى اجتماعيًّا لا يضفيه عامل الدين[٢٢].

هنا يجب أن لا نبخس العوامل الأُخرى حقّها، كاللون والتقاليد والثقافة.

٣ – الوضع السكنيّ

قبل عام ١٩٧٥، بداية الحرب في لبنان، كانت فكرة العودة الوشيكة إلى الوطن الأمّ، تُلزِم غالبيّة اللبنانيّين على العيش في منازل صغيرة، تقوم فوق متاجرهم، في الشوارع ذات الطابع الشعبيّ (تريشيفيل، أدجامي، أبوبوغار، إلخ...)، من أجل تقليص نفقات السكن والمواصلات. بعد تدهور الوضع في لبنان، اختلف الأمر فاستُبْعِدَتْ فكرة العودة المرجوّة في القريب العاجل، وحلّت محلّها إرادة الاستقرار وترفيه الذات. في ظلّ هذا الواقع المستجدّ، بدأ اللبنانيّون يقطنون الأحياء السكنيّة بتزايد ملحوظ (ماركوري، المنطقة الرابعة، دوبلاتو، شارع كومرس، بيبيتري...)، حيث يستأجرون الدور والشقق الفخمة، في حين يعمد بعضهم إلى تشكيل مجموعات تستأجر لسكنها بنايات بأكملها (ماركوري، المنطقة الرابعة وشارع كومِّرس).

بغضّ النظر عن الوضع القائم في لبنان، يبدو أنّ إقامة البعض الموقّتة، قد أصبحت دائمة: "لأنّ العودة لم تعد هاجسًا بالنسبة إلى هؤلاء، على الأقلّ طالما أنّهم قادرون على العمل، فالأغنياء منهم يعرفون أنّهم لن يجدوا أيّ عمل[٢٣] في الوطن والفقراء يقدّرون أنّهم لن يستطيعوا تحمّل مهانة العودة صفر اليدين.

في غضون ذلك لا يقطع هؤلاء صلتهم بذويهم، فيتحيّنون الفرص لزيارتهم، ويظلّ هاجس الغالبيّة منهم إمداد عائلاتهم بالمساعدات الماليّة"[٢٤].

يتّصف به كبارهم. إنّ ٩٠٪ من الزيجات الشرعيّة المختلطة (زواج لبنانيّ – عاجيّ) تتمّ بين الشباب. وقد لاحظنا أنّهم منفتحون ويتكلّمون الفرنسيّة بصورة أفضل من آبائهم.

٢٢– سليم عبو "الهويّة الثقافيّة"، المقدّمة.

٢٣– كما أنّهم لن يجدوا أيّ وظيفة لأولادهم، الذين يجهلون العربيّة، لغتهم الأُمّ ولغة لبنان الرسميّة.

٢٤– رينيه شاربونّو، المرجع السابق، ص ٦٢.

٤ - المدارس

إعتاد اللبنانيّون إلحاق أولادهم بالمدارس الخاصّة، ونادرًا ما يُلحقونهم بالمدارس الرسميّة. يتلقّى هؤلاء علومهم باللغة الفرنسيّة، وينشأون على جهل تامّ بالعربيّة. ولدى عودتهم إلى الوطن الأمّ، تتضاءل آمالهم بتبوّؤ مراكز مهمّة، تؤدّي للارتقاء الاجتماعيّ الذي طالما حلموا به. في محاولة لردم هذه الهُوة، افتتحت رسميًّا في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٨٤، أوّل مدرسة في ساحل العاج، تدرّس اللغة العربيّة إلى جانب برنامج الدولة العاجيّة. واستقبلت الجالية اللبنانيّة بأكملها هذه البادرة بترحاب وتشجيع كبيرين.

٥ - المؤسّسات اللبنانيّة

لدى اللبنانيّين مَيل إلى فعل الخير وتمويل النشاطات الاجتماعيّة والفكريّة، تعبيرًا عن امتنانهم للبلد المضيف، عمدوا إلى القيام بمبادرات إنسانيّة فرديّة، أو عن طريق بعض المؤسّسات مثل:

أ - الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم

وهي جمعيّة مدنيّة، لا سياسيّة، لا طائفيّة، ولا عنصريّة، ولا تتوخّى الكسب، أُسّست في سنة ١٩٦٤، وأنشىء فرع أبيدجان عام ١٩٦٧.

"يُعْتَبَر أعضاء في الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم، فروع الجامعة، والأندية وباقي الجمعيّات المكوّنة من لبنانيّين أو أحفاد لبنانيّين، أيًّا كانت جنسيّتهم.

كما يُعتبر أعضاء فيها ذووهم والمرتبطون بهم بصلة، الذين يدعمون أهداف الجامعة وينخرطون فيها"[٢٥].

إنّ تطبيق أهداف الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم، يجسّد روح التضامن بين أفراد الجالية، وينصّ ميثاق الجامعة على:

- بثّ وتقوية روح الولاء والمواطَنة الصالحة، نحو البلدان التي يعيش فيها أعضاء الجامعة.

- المشاركة في تنشيط الحراك الثقافيّ، المدنيّ، الاجتماعيّ والأخلاقيّ للجاليات الموجودة في هذه البلدان.

٢٥- ميثاق الجامعة، الفصل الأوّل، المادّة الثانية.

- العمل على جمع الأعضاء بروابط الصداقة والأخوّة المشتركة، لتنمية الصداقة والتفاهم المتبادل بين البلدان التي تستضيفهم.

- بعث وتقوية روابط الصداقة والتفاهم المتبادل بين لبنان وهذه البلدان، وتنمية تبادل النشاطات الثقافيّة، والاجتماعيّة، والسياحيّة والاقتصاديّة، الآيلة إلى المنافع المتبادلة، وتنشيط هذا التبادل بين لبنان والمتحدّرين من أصل لبنانيّ"[٢٦].

ويشاء سوء الحظ أن تعيق تحقيق هذه الأهداف العامّة[٢٧]، إحدى عشرة سنة من الحرب الأهليّة، التي فرضت أولويّات غايتها مساعدة اللبنانيّين في بلدان شتاتهم.

ففي ساحل العاج انصبّت هذه الأولويّات على:

- خلق مناخ من التفاهم والصداقة بين اللبنانيّين والعاجيّين.

- إعانة الوافدين على حلّ مشاكلهم.

- تسهيل استقرار القادمين الجدد.

للجامعة ٢٣ فرعًا في ساحل العاج، يلاحظ أنّها مقبولة ومرحّب بها من قبل أعضاء الجالية كلّهم، وهي تلقى الدّعم الماليّ منهم، لتحقيق مشاريع تعود بالخير على البلد المضيف:

عندما تطلق الجامعة نداءً للاكتتاب بقصد المساعدة في بناء مستوصف أو مدرسة أو مركز ثقافيّ، في هذه المدينة أو تلك... يهبّ جميع اللبنانيّين أو غالبيّتهم للتبرّع... هكذا تتجلّى عندهم روح التضامن"[٢٨].

بفضل هذه الروح، شُيِّد مستوصف في تريشفيل، ومسجد في طوبا، ومركز ثقافيّ وروضة أطفال في تياساليه، وناد يضمّ صالة احتفالات ومكتبة وملعبًا رياضيًّا في دالوا.

٢٦- ميثاق الجامعة، الفصل الثاني، المادّة الثالثة.

٢٧- أصدرت اللجنة الثقافيّة في حزيران ١٩٨٥، العدد الأوّل من المجلّة الفصليّة (أصداء)، وهي بانتظار صدور الترخيص الوزاريّ لنشرها.

٢٨- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٤٧.

ولا يمرّ عام دون أن تَهب الجامعة الدراجات والسيّارات وسيّارات الإسعاف للدوائر الصحيّة في أبيدجان أو في المناطق الداخليّة من البلاد.

ب - الجمعيّة اللبنانيّة النسائيّة الخيريّة (الزهراء)

أسّست السيّدة هيام فخر الدين مع مجموعة من المتطوّعات اللبنانيّات هذه الجمعيّة عام ١٩٧٧ . رسالتها فعل الخير كما يدلّ اسمها، بالإضافة إلى تقديم المساعدة للمحتاجين، متمّمة بذلك مهمّة الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم.

ولم تكفّ هذه الجمعيّة، منذ تأسيسها، عن النشاطات الاجتماعيّة الخيريّة، إذ تشمل هذه المشاركة الإنسانيّة جميع المؤسّسات العامّة والخاصّة التي تطلب العون، منها: الصليب الأحمر العاجيّ، معهد مرشو للبرص في بنجرفيل، قرية الأطفال، (S.O.S.) في أبوبوغار، ميتم بنجرفيل، المعهد الوطنيّ العاجيّ لتأهيل الكفيف في يوبوغان، إلخ...).

ومنذ ثماني سنوات تؤمّن هذه المؤسّسة دروسًا باللغة العربيّة، للراشدين والأطفال.

ج - الإرساليّة اللبنانيّة

أسّس هذه الجمعيّة للرهبانيّة المارونيّة المونسنيور نعمة الله خوري عام ١٩٥٤، ومركزها منطقة أدجامي.

إلى جانب الكنيسة حيث يقام القدّاس بالعربيّة والسريانيّة، تشرف الإرساليّة على مستوصف صغير، يعمل فيه مجّانًا أطبّاء لبنانيّون، كما تشرف على مدرسة شعبيّة فيها ١٢٠٠ تلميذ يتوزّعون على ٢٢ صفًّا.

د - المركز الثقافيّ الإسلاميّ في ماركوري

أقامت الجمعيّة الثقافيّة الإسلاميّة هذا المركز عام ١٩٧٧ في ماركوري، لتقيم فيه الشعائر الدينيّة الإسلاميّة، وهو يتكامل بتقديماته الخيريّة مع رسالة المؤسّسات المذكورة.

هـ - الفرق الرياضيّة

يقدّم اللبنانيّون للرياضيّين في ساحل العاج مساعدات فرديّة عينيّة أو نقديّة، وينظّمون الدورات الرياضيّة، كما يدعمون أندية كرة القدم والكرة الطائرة وكرة السلّة، إلخ...

والملاحظ أنّ فِرقًا رياضيّة مختلطة، عاجيّة - لبنانيّة، تنشأ حاليًّا في أبيدجان والمناطق الداخليّة، كما تقام اللقاءات الرياضيّة، ممّا يمتّن الروابط ويوطّد التفاهم بين العاجيّين واللبنانيّين.

والملاحظ أنّ نسبة كبيرة من اللبنانيّين أعضاء في أندية: ASEC، AFRICA و A.S. ديفو، إلخ...

و - فرقة فرح الفولكوريّة

كوّن فريق من الشباب اللبنانيّين عام ١٩٧٠[٢٩] فرقة فولكلوريّة (تؤخذ هنا كلمة فرح بمعناها اللغويّ) هدفها بعث التراث الثقافيّ والفولكوريّ اللبنانيّ في البلد المضيف، قدّمت منذ ذلك التاريخ مجموعة من العروض المسرحيّة الناجحة.

٦ - هل يشكّل اللبنانيّون جالية منطوية على نفسها

هل يمكن القول بعد الاطّلاع على ما تقدّم، إنّ اللبنانيّين يكوّنون في ساحل العاج جالية منطوية على ذاتها، لها أماكنها السكنيّة، وأماكن عبادتها[٣٠] وعاداتها وتقاليدها الخاصّة.

هل هم مجموعة بشريّة تعيش على هامش المجتمع العاجيّ؟ لا يمكننا الجزم بقبولٍ أو رفضٍ كلّيّ لهذه المسلّمة. إذا كان اللبنانيّون يشغلون أبنية بأكملها، فإنّ عددها لا يتجاوز أصابع اليدين، يقابلها كتعويض عنها وجود آلاف التلاميذ اللبنانيّين في المدارس العاجيّة[٣١]، المؤهّلين يومًا ما لاستلام زمام الأُمور، وشغل مراكز آبائهم في القطاع التجاريّ، حيث يندمج اللبنانيّون بصورة ملحوظة.

٢٩- كلّ خمسة أعوام يأخذ المبادرة جيل من الشبّان اللبنانيّين، ويؤمّن استمراريّة النشاطات الفنّيّة والفولكلوريّة.

٣٠- حريّة المعتقد مصونة في العالَم أجمع. أليس بين الفرنسيّين والأميركيّين، بروتستانت وكاثوليك، مَن يمارسون عباداتهم في أماكن مستقلّة؟

٣١- علمًا أنّ عدد طلاّب المدرسة العاجيّة - اللبنانيّة الوحيدة المنشأة عام ١٩٨٤، في ساحل العاج، لا يتجاوز الأربعمئة تلميذ في نطاق سكّانيّ يربو على الستّين ألف نسمة، حيث معدّل الأولاد أربعة في العائلة الواحدة.

ما هو الحكم على اهتمام اللبنانيّين بالرياضة والعمل الاجتماعيّ والتطبيع؟

أليس هذا مؤشّرًا على إرادة التكامل الاجتماعيّ؟

هنا يبرز أمر مهمّ يعجز الشبّان اللبنانيّون عن تحقيقه في الوطن الأُمّ بقدر عجزهم عنه في البلد المضيف:

"فهم محرومون بعد تخرّجهم من ممارسة بعض المهن الحرّة، لأنّهم ليسوا مواطنين عاجيّين، في حين يعترضهم عائق آخر، لا يمكن تجاوزه، لدى عودتهم إلى الوطن الأُمّ، إذ يصعب عليهم العمل في مجالات اختصاصهم لأنّهم لا يتقنون اللغة العربيّة"[٣٢].

تلافيًا لهذه المشكلة الإنسانيّة، ولكي يستفيد ساحل العاج من هذا الرأسمال الفكريّ الكامن في شبابنا ويتزايد اعتماده عليهم، نطلب إليكم، سيّدي الرئيس وأنتم أب الأمّة، أن لا تبخلوا بتطبيق قانون الجنسيّة تطبيقًا أكثر إنسانيّة، فتسرّعوا وتختزلوا إجراءات تطبيقها تجاه أبنائنا اللبنانيّين، الذين تتوافر فيهم شروط تقدّرون أنّها مستلزمة وكافية"[٣٣].

إنّ عمليّة التأقلم الاجتماعيّ لم تتمّ على خطّ موازٍ لعمليّة التكامل الاقتصاديّ، لأنّ اللبنانيّين يظلّون غرباء في الواقع: "المواطن العاجيّ العاديّ الذي آذاه التضخّم الاقتصاديّ، لا يسلّم بسهولة بنجاح المشرقيّين الاقتصاديّ. وفي الأزمات، من السهل أن يكون الغريب كبش المحرقة"[٣٤].

في "السنين العجاف" تُنسب المساوئ كلّها إلى هؤلاء المغتربين، على الرغم من قيامهم بأعمال اجتماعيّة تحمل طابع الطيبة والكرم. هنا نجد التفسير المنطقيّ لظاهرة الانطواء على الذات والتكتّم بشأن الأوضاع الماليّة والآراء السياسيّة. إنّها غريزة البقاء المتأصّلة لدى الأقلّيات في مغترباتها، وسلاحها التقيّة.

٣٢- **هكذا نصل إلى الرفض الجزئيّ للمسلّمة الثانية في دراستنا.**

٣٣- سليم فرحات، المرجع السابق، ص ٥.

٣٤- غاوسّو كاميسّوكو "ساحل العاج ولبنانيّوها"، مجلّة (افريكا)، العدد ٨٣، ص ٣٣.

والواقع: "إنّ وضع اللبنانيّين قابل للتفسير. خذوا مثلاً العاجيّين في السنغال. إنّهم متضامنون لأنّهم أقلّية. هم بكلّ بساطة عاجيّون، وليس لعامل العرق أو الانتماء الجغرافيّ أيّ حساب"[٣٥].

يعوّض اللبنانيّ عن انطوائيّته الاضطراريّة بنشاطاته الاجتماعيّة وانتسابه إلى الأندية الرياضيّة وغيرها من المؤسّسات، فهو يحاول التقرّب الى العاجيّين من خلال عمله وعن طريق هذه المؤسّسات. أمّا روابط الصداقة وحسن الجوار، فهي عاجزة عن تأمين عناصر الاندماج الاجتماعيّ. وهذا ما ثبت أثناء دراستنا الميدانيّة المختصّة بهذا الجانب.

٧ - الأهداف الاجتماعيّة لنشاطات اللبنانيّين الإنسانيّة

يعرف اللبنانيّ أنّه لا حلّ لمشكلة لبنان في المدى المنظور، وهو يقدّر تمامًا وضعه كغريب، كما يعي العوامل الأُخرى مثل اختلاف اللون والتقاليد والثقافة المعيقة لتأقلمه. لذا يسعى متسلّحًا بقيمه الإنسانيّة للتعبير بها عن امتنانه للبلد المضيف، ليكسب عطف السكّان الأصليّين وثقتهم. والقول إنّ اللبنانيّ يهدف عبر هذه التقديمات إلى القيام بعمليّات استعراضيّة وإعلاميّة تمهيدًا للقيام بصفقات تجاريّة مهمّة، هو قول مردود، لأنّ اللبنانيّ كتوم فيما يتعلّق بشؤونه الماليّة. وبعبارة أُخرى، يفترض برجل الأعمال عمومًا واللبنانيّ خصوصًا أن يكون على علم بوسائل أكثر سرّية وضمانًا للنجاح[٣٦] من العمل الخيريّ الموجّه إلى عامّة الشعب، بخاصّة إلى رقيقي الحال، لا إلى رأس المؤسّسات.

يمكن القول بصورة عامّة: "إنّ الإنسان العقلانيّ لا يقوم بأيّ تصرّف لا جدوى منه. فهو يتوقّع كنتيجة لأيّ تصرّف يقوم به، إمّا أمرًا معنويًّا كالمتعة والارتياح للمساعدة الإنسانيّة، وإمّا مردودًا ماديًّا كالنفع المتوقّع"[٣٧].

فاللبنانيّون يعبّرون من خلال هباتهم، عن غبطتهم بالعطاء ورغبتهم بأن يكونوا نافعين.

٣٥- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٨٧.

٣٦- يتعلّق الأمر بالاختصاص المهنيّ.

٣٧- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٧٣.

٨ - رأي المواطن العاجيّ بالمغترب اللبنانيّ

إتمامًا للفائدة، وعلى خطّ موازٍ للفكرة المكوّنة من خلال استقصائنا عن الجالية اللبنانيّة، رأينا أن نستفتي الرأي العامّ العاجيّ للوقوف على رأيه بالمغتربين. نظرًا لصعوبة التجربة، اضطررنا لحصر استقصائنا بعدد محدود من العاجيّين ذوي المهن الحرّة (تجّار، مالكي محلاّت تجاريّة، خيّاطين، أساتذة، طلاّب، إلخ...)، لأنّ هوّيتي كلبنانيّة أثارت حذر المستخدَمين، خشية أن تؤدّي صلتي برؤسائهم (وهم لبنانيّون) إلى كشف وجهة نظرهم.

كما رأينا أن لا نكلّف طرفًا ثالثًا[٣٨] بإجراء الاستفتاء كي لا نثير شكوك أصحاب المؤسّسات المتحفّظين تجاه كلّ غريب وكلّ ما يمسّ بالإدارة.

نورد هنا بعضًا من هذه الآراء[٣٩]:

- أ.ك. (صاحب محلاّت تجاريّة)، يؤكّد أنّ اللبنانيّ إيجابيّ كمستأجر، يحبّ معالجة الأمور حبيًّا وهو حذر تجاه الاتّفاقات والعقود، يدفع بدل الإيجار بسهولة ويتقبّل بصعوبة أيّة علاوة على الإيجار، في حين أنّه يتمسّك بصلابة بأيّة زيادة يقرّها القانون إذا كان من ذوي الأملاك.

- اتيان ك. (ميكانيكيّ)، يقول إنّ اللبنانيّ سهل في التعاطي مع الآخرين وحاذق "يقنعني بالقيام بعمل نموذجيّ لقاء أجر منخفض".

- أ.ب. (مدير مبيعات في شركة كبيرة)، يقول إنّ اللبنانيّ ديناميكيّ، يمارس كلّ أنواع التجارة، إنّه الوسيط الذي لا غنى عنه بين الشركات والمستهلك، "نزوعه للمنافسة يجعله يمنح الزبون أسعارًا مخفّضة ويرضى بأرباح زهيدة".

- ياوو (وكيل تأمين)، يحتفظ بذكرى جميلة عن أصدقائه اللبنانيّين زمن الدراسة "الذين كانوا أقرب إلينا من الأوروبيّين. من السهل عليّ التعاطي مع اللبنانيّ، على الرغم من أنّه يساوم ويناقش الأسعار مطوّلاً. إنّه إنسان طيّب، خالٍ من التعقيدات".

٣٨- الموظّف العاجيّ.

٣٩- نحتفظ بسرّيّة الأسماء، بناء لرغبة ذوي الشأن.

- سومي (طالب جامعيّ، سنة أخيرة علوم اقتصاديّة)، يقول "إنّ وجود الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج مثمر على صعيد الاقتصاد العاجيّ عمومًا، وخصوصًا في ميدان التجارة. الواقع أنّ اللبنانيّين عرفوا كيف ينمّون التجارة الداخليّة والخارجيّة على حدّ سواء، فأمّنوا بذلك دخول كمّيات كبيرة من العملة الصعبة إلى البلاد، وأمدّوا السوق المحلّيّة بكلّ أنواع السلع، وأنشأوا عددًا كبيرًا من الأبنية والمدارس والأسواق، إلخ...

يعتبر وجودهم من الناحية الاجتماعيّة عاملاً لتنمية الروابط بين العرق الأبيض والعرق الأسود. وعلاوة على ذلك، فاللبنانيّون عناصر فاعلة في مجال التبادل الثقافيّ".

- كيريما (أستاذ ثانويّ للّغة الفرنسيّة في أدجامي)، يعبّر عن رأيه بقوله: "بعد الجاليات الأوروبيّة، الفرنسيّة خاصّة، تكوّن الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج، طبقة مميّزة على الصعيد الاجتماعيّ، يتّصف حسّها الجماعيّ بسمتين أساسيتين:

١ - تضامن فاعل بين اللبنانيّين، تبرز آثاره بالتعاون، ولا سيّما على صعيد النشاطات المهنيّة.

٢ - اكتفاء ذاتيّ تجاه السكّان الأصليّين. لعلّ أساس السمة الأولى أنّ اللبنانيّين يرغبون في الاحتفاظ بطابع معيّن إلى جانب الجاليات الأخرى. ويصعب تحليل السمة الثانية، إن لم يكن بالفرضيّات التالية:

- لماذا تعيش الجالية اللبنانيّة منطوية على نفسها؟

- ألأنّها تمتاز عن الجماعات الأُخرى، خصوصًا الزنوج، بثقافة تختلف عن ثقافتهم؟

- وهل نستطيع تفسير حالة الاكتفاء الذاتيّ بالرغبة أو حتّى بهاجس الحفاظ على نقاوة العرق؟

- وهل يمكن اعتبار حالة الانطواء نفوراً واضحاً من الجماعات الأُخرى، الزنجيّة منها بنوع خاصّ؟".

بالنسبة إلى بولس (وهو أستاذ ثانويّ في التاريخ والجغرافيا في أدجامي أيضًا) "اللبنانيّون عناصر فاعلة، مشاركة في تنمية اقتصاد البلد. يقدّمون للدولة كثيرًا من

الهبات، غير أنّهم تقليديّون يعيشون فيما بينهم (يقصد من هم فوق سنّ الثلاثين). يتزاوجون ضمن طوائفهم، ويدينون التزاوج بينهم وبين الأجناس الأُخرى، خاصّة مع السود".

في حين يرى كونيه (وهو أستاذ علوم طبيعيّة) أنّ الجالية اللبنانيّة تعيش عمومًا في حالة حذر. إنّها تعير الرياضة اهتمامها، وتساعد مؤسّسات المعاقين والمياتم، وتتظاهر بعدم اكتراثها بالحياة السياسيّة. إنّ تعدّد الديانات في ساحل العاج، يدفع بالجالية إلى عدم إظهار حقيقة معتقداتها الدينيّة.

أمّا العيّنة البشريّة الأخيرة، وهو أستاذ اللغة الانكليزيّة كامارا ، فقد كان بليغًا في تعبيره، على الرغم من التناقضات التي شابت رأيه:

"عندما نقيّم الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج، نبدي تقديرنا، كما نبدي شيئًا من خيبة الأمل. فلا يسعنا حين نراهم إلاّ أن نبدي إعجابنا بمواهبهم التجاريّة. فهم ينجحون في كلّ عمل يقومون به!

يبذلون قصارى جهدهم، ويبدعون في كثير من المجالات.

لو جُبْنا ساحل العاج بأكمله، لما رأينا مدينة، مهما تكن صغيرة، إلاّ ويملك فيها اللبنانيّ حانوتًا أو محطّة محروقات أو دار سينما.

يعمل هؤلاء المشرقيّون في تنمية البلد إلى جانب العاجيّين، فيشتغلون ويقيمون المنشآت الاجتماعيّة (دار توليد، مستوصفات، أماكن تسلية). يشعرون غالبًا أنّهم معنيّون بمشكلاتنا، وهم في صلب كثير من المنشآت وعلى رأس بعض الفرق الرياضيّة (وهذا دليل تأقلمهم الاجتماعيّ).

تتّصف هذه الجالية إجمالاً بالديناميّة وحبّ المغامرة، وأحيانًا بالطيبة والسخاء. غير انّ هذه الصورة يجب أن لا تحجب بعض التصرّفات السلبيّة التي يمارسها بعض اللبنانيّين، إذ يعتقدون أنّهم قادرون بفضل المال على فعل أيّ شيء، حتّى ولو كان دفع الرشوة لتسهيل أُمورهم. فاللبنانيّ ميّال إلى الكسب، وهو يجري غالبًا وراء الكسب السريع. كما نأخذ على هذه الجالية أنّها تعيش في عزلة، خلف ستار حديديّ؛ وما مشاركتهم في بعض المنظّمات إلاّ كمثل الشجرة التي يراد بها إخفاء الغابة.

يشتهر بعض اللبنانيّين بالبذخ الاستعراضيّ على مرأى من السكّان الأصليّين، الكادحين لكسب لقمة العيش، ممّا يثير النقمة عليهم.

تتّصف الشبيبة اللبنانيّة باللامبالاة وعدم اللياقة والعنف، فهم كثيرًا ما يكونون طرفًا في المشكلات الناجمة عن ارتياد علب الليل.

هؤلاء الشبّان حمقى وراء المقود، يقودون بسرعة جنونيّة إلخ...

أمّا الجالية اللبنانيّة ككلّ، فهي تكدّ وتكدح. لا تخلق المشكلات ولا تمارس مجّانيّة الموت، بل تعيش مع سكّان البلاد بانسجام، دون صدامات تذكر".

هذه التصريحات الحافلة بالتعاطف والنقد، تعكس جوّ العلاقات اليوميّة بين العاجيّين واللبنانيّين، آخذين في الاعتبار كون هؤلاء غرباء عن البلد.

لا يخلو الأمر من وجود بعض الحاقدين، الرافضين بإصرار وجود الغرباء "مصدر جميع المساوئ" وفقًا لرأيهم الذي يعلّل، على الرغم من الدور اللبناني الرائد في الاقتصاد، بالتعبير التالي:

"إنّ نموّ الاقتصاد ليس مرادفًا للتنمية، بخاصّةٍ عندما يتقاسم المستثمرون الغرباء، وليس أقلّهم اللبنانيّون، ثمار هذا النموّ"(٤٠).

وينظر آخرون إلى اللبنانيّين نظرة الرئيس فيليكس هوفويه بوانيي، في رسالته لمناسبة العام الجديد ١٩٦٨: "... **نستضيف الجميع. فكيف لا نستضيف أوّلاً إخواننا لنا أقلّ يسرًا من غيرهم، يعملون في أرضنا بقدر ما يأخذون: سيبقى ساحل العاج أرض الملاذ والحوار والتبادل**"(٤١).

لم نلتقِ بصفتنا طرفًا في الموضوع، بعاجيّين يعلنون الرفض الجازم السالف ذكره. بعض الذين التقيناهم وصفوا اللبنانيّ بالانتهازيّ الذي يختار أصدقاءه من بين الشخصيّات

٤٠ - ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٩٣.

٤١ - كواميه نغيسّان "العمّال الغرباء ومستقبل اقتصاد ساحل العاج" ص ١٦.

المهمّة ولا يدفع الضرائب[٤٢]. كما لا يختلط بالناس إلاّ من خلال عمله. ويصفه بعضهم الآخر بالجَلود، الذي يعمل حتّى أيّام الأعياد.

إنّ تدهور الأوضاع في لبنان، دفع بالكثيرين إلى صرف النظر عن العودة إليه بعدما عاشوا حياة متواضعة على أمل التنعّم بالثروة في لبنان[٤٣]. أمّا اليوم فقد استقرّوا في دور فخمة أو شقق مريحة واقتنوا السيّارات الحديثة.

هذا الوضع المستجدّ أثار في وجههم انتقادات عنيفة، واتّهام بأنّهم يقومون بصفقات مجزية ويحقّقون الأرباح الخياليّة.

في الواقع إنّ السعي لجمع الثروة هو هدف اللبنانيّ الأوّل؛ فهو يترك مسقط رأسه لتحسين وضعه الماليّ على غرار المهاجرين الذين يتركون أوطانهم ليعيشوا في وسط اجتماعيّ أفضل، كما هي الحال بالنسبة إلى الأفارقة الوافدين إلى ساحل العاج من البلدان المتاخمة. ومن شمال أفريقيا إلى فرنسا،وأيضًا مثل الأرمن والأكراد الوافدين إلى لبنان أو اللبنانيّين المغتربين في الولايات المتّحدة وكندا. وفي هذا المعنى كتب ف. لورسون:

"ليست جذور الاغتراب في حسن أو سوء إرادة البشر. فالموجات الاغترابيّة هي نتيجة مباشرة لتفاوت التنمية الاقتصاديّة بين بلد وآخر"[٤٤].

"فيكون هؤلاء الغرباء مستعدّين للقبول بأعمال شاقّة لقاء أجور منخفضة. تلك هي طبيعة كلّ مغترب، يرى أنّ وضعه الجديد على الرغم من الصعوبات الناشئة أفضل بكثير من وضعه في بلده الأصليّ"[٤٥].

٤٢– يتّخذ بعض الصحفيّين من هذا الأمر حجّة يلوّحون بها كلّما ارتكب لبناني مخالفة قانونيّة، ونسبته واحد إلى ٦٠٠٠٠ لبناني.

٤٣– بعض اللبنانيّين وهم قلّة، يقتنون السيّارات الفخمة ويرتادون علب الليل باستمرار.

٤٤– كواميه نغيسّان، المرجع السابق، ص ٣.

٤٥– كواميه نغيسّان، ص ٥٢.

٣ - الجانب السياسيّ

السياسة شأن لا يهمّ اللبنانيّين في ساحل العاج، خلافًا لِمَا هم عليه في الأميركيّتين. فهل يكون هذا الوضع نتيجة مباشرة لعدم تكيّفهم الاجتماعيّ.

يقصد اللبنانيّ بأيّ رأي سياسيّ يدلي به، امتداح السلطات السياسيّة في بلد استقبل مواطنيه بطيبة وكرم، في حين أقامت الدول الشقيقة الحواجز في وجههم. فهو يقارن حالة الاستقرار السياسيّ والازدهار الاقتصاديّ في هذا البلد بعجز النظام السياسيّ وانهيار الاقتصاد في لبنان.

واللبنانيّون، على تعدّد انتماءاتهم ومعتقداتهم السياسيّة، مرتبطون عمومًا بساحل العاج، بهدف حمل البلد المضيف على القبول بوجودهم ، وهو الذي لا يتساهل في نقل النزاعات اللبنانيّة – اللبنانيّة إلى أرضه.

نخلص إلى القول إنّ اللبنانيّين، باستثناء واحد منهم(٤٦)، لا يتدخّلون في الشؤون السياسيّة. وهذا اللبنانيّ عاجيّ بالتجنّس، ويشغل منصب مستشار في بلديّة أبيدجان.

٤٦– هو ألكس الأسعد.

الفصل السادس

نتائج الجداول البيانيّة:
الانتماء الجغرافيّ، المستوى التعليميّ، الديانة، بواعث الاغتراب، مدّة الإقامة

مدخل إلى البحث

تشكّل الصفحات التالية القسم الأساسيّ في عملنا. لأنّه انطلاقًا من النتائج، يمكننا تأكيد أو دحض أو تعليل أهداف الدراسة والمسلَّمات التي طرحناها في القسم الأوّل.

هذا الجانب الميدانيّ يوضح لنا ما إذا كانت الملاحظات والآراء التي تتضمّنها مراجعنا ومصادرنا بخصوص قدامى اللبنانيّين، ما زالت صالحة للاعتماد عليها في وقتنا الحاضر. كما يتيح لنا دراسة المعطيات الحاليّة للاغتراب اللبنانيّ في ساحل العاج.

إنّ الهدف المرجوّ من هذا الفصل هو عرض المعلومات الخاصّة باللبنانيّين المعنيّين بالاستقصاء، ضمن المواضيع التالية: المميّزات الشخصيّة، مناطق الانتماء، المستوى التعليميّ، الانتماء الدينيّ، بواعث الاغتراب، إلخ...

نعرض في ما يلي هذه المعلومات، وفقًا لتوزُّع الأجوبة، على اثني عشر سؤالاً تضمّنها القسم الأوّل والثاني من الاستمارة.

على ضوء النتائج، يمكننا إعادة النظر في الغايات والمسلَّمات المذكورة آنفًا.

التكوين الاجتماعيّ - البشريّ (سوسيو - ديموغرافيّ) للجالية اللبنانيّة.

١ - العمر.

٢ - تقاطع الجنس والسنّ.

٣ - تقاطع الوضع العائليّ والجنس والدين.

٤ - الانتماء الجغرافيّ.

٥ - المستوى التعليميّ.

٦ - الدين.

٧ - بواعث الاغتراب.

٨ - مدّة الإقامة.

جدول رقم ١: توزّع الجالية تبعًا للطوائف

الطائفة	العدد	النسبة المئويّة
مسلم شيعيّ	٢١٠	٧٠٪
مسلم سنّيّ	٣٩	١٣٪
مسيحيّ	٤٧	١٦٪
طوائف أخرى	٣	١٪
المجموع	**٢٩٩**	**١٠٠٪**

جدول رقم ٢: توزّع الجالية وفقًا للمهنة

المهنة	العدد	النسبة المئويّة
تاجر	١٧٩	٦٠٪
صناعيّ	٨	٣٪
مزارع	١	٠٪
مقاول بناء	٢	١٪
ناقل	٨	٢٪
بدون مهنة	٢٦	٩٪
مهن أخرى	٧٦	٢٥٪
المجموع	**٣٠٠**	**١٠٠٪**

جدول رقم ٣: التوزّع وفقًا للسنّ والجنس

الجنس/العمر	الرجال (٪)	النساء (٪)	المجموع (٪)
أقلّ من ٢٠ سنة	٣,٥٩	٥,١٩	٤,٣٣
٢٠ - ٣٩	٦٤,٢٣	٧٢,٧٢	٦٦,٢٩
٤٠ سنة أو أكثر	٣٢,١٨	٢٢,٠٩	٢٩,٣٨
المجموع	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠
النسبة (٪) للمجموع	**٧٤,٠٠٪**	**٢٦,٠٠٪**	**١٠٠,٠٠٪**

١ - تُقارَن الأرقام الناتجة عن الجدولين الثاني والثالث، المختصَّين بالمهنة والتوزّع وفقًا للجنس والعمر، بالأرقام التي توصّل إليها آلان تيرفور لمرحلة "ما بين الحربين".

"... الشباب (اللبنانيّون - السوريّون) ٣٧٪ منهم فوق سنّ الثلاثين، من بينهم ١٤٪ تجاوزوا الأربعين - غالبيّتهم من دون مصادر ماليّة، يبحثون عن عمل موقّت، منذ وصولهم إلى ساحل العاج جابوا الأدغال، مستكشفين الأماكن النائية، يشترون ويبيعون القليل من كلّ شيء يجدونه. أكثريّتهم الساحقة مستخدَمون، تجّار أو تجّار محاصيل، توصّلوا بعد مدّة قصيرة من بدء استخدامهم، من العمل لحسابهم الخاصّ وفتح حانوت في المدينة".

٢ - توزّع الجالية وفقًا للجنس والعمر (جدول رقم ٣)

حيث أنّ دراستنا تنصبّ بشكل خاصّ على الراشدين، عمدنا إلى تقليص عدد المعنيّين بالاستقصاء إلى حدّ بعيد، فالأشخاص دون سنّ العشرين يمثّلون ٤,٣٣٪ من مجموع المعنيّين: هم عازبون لا يديرون أي متجر، ولا تعنيهم الاستمارة بجزئها الأكبر. لذلك صرفنا النظر عن استفتائهم لضآلة الفائدة المرجوّة من اشتراكهم فيها.

إنّ توزّع الجالية اللبنانيّة وفقًا للسنّ في ساحل العاج، يبرز أهمّية الأشخاص، المتراوحة أعمارهم بين العشرين والتاسعة والثلاثين، إذ يمثّلون ٦٦,٢٩٪ من المجموع، في حين يمثّل من بلغوا الأربعين أو أكثر نسبة ٢٩,٣٨٪. إنّ شريحة (٢٠ - ٣٩ سنة) تمثّل أساس المجموعة المنتجة بين المغتربين.

كما نلاحظ أنّ نسبة الرجال هي الغالبة بشكل مستمرّ (٧٤٪) على نسبة النساء (٢٦٪) بين المغتربين. هذا التفوّق الساحق لعدد الذكور الراشدين (القاصرون غير معنيّين بالاستقصاء) على النساء، يعود إلى: "كون الرجال يشعرون أكثر من النساء بالحاجة الماسّة لتسجيل أنفسهم في دوائر الأمن الوطنيّ"[1]، للحصول على وثائق تتطلّبها نشاطاتهم المهنيّة".

في ميدان استقصائنا، ٥,١٩٪ من النساء هنّ دون سنّ العشرين، و٧٢,٧٢٪ بين العشرين والتاسعة والثلاثين و٢٢,٠٩٪ فوق الأربعين. أمّا الرجال منهم: ٣,٥٩٪ دون العشرين، و٦٤,٢٣٪ بين العشرين والتاسعة والثلاثين و٣٢,١٨٪ فوق الأربعين. يبيّن الجدول رقم ٣ التوزّع المشار إليه.

نسبة عنصر الشباب الذكور في عيّناتنا (٢٠ إلى ٣٩) هي ٦٧,٨٢٪، ممّا يشير إلى فاعليّة اللبنانيّين في اقتصاد البلد المضيف، كما يشير إلى جانب الهجرة السلبيّ، الآيل إلى إفراغ الوطن من النخبة الفاعلة، وفي هذا المعنى كتب نيقوس ج. بوليزوس: "في أوساط المغتربين توجد نسبة عالية من الشبّان، من القوّة المبدعة واليد العاملة، من الطاقة، والمبادرة والقيم، والحيويّة، باختصار من خلاصة الأُمّة التي أفرزتهم.

بصورة عامّة، ترفض المغتربات العناصر غير الفاعلة، من العجزة والمعتلّين وذوي العاهات والشيوخ"[2]. هذا الرأي يؤكّد تحذيرنا من اغتراب قد يحقّق المنفعة الماديّة الآنيّة، لكنّه يؤدّي فيما لو تعاظم مَدّه إلى وضع وبيل. "... لا نستطيع العيش بلا اغتراب، غير أنّه قد يؤدّي بنا إلى الموت فيما لو اشتدّ تيّاره"[3].

١- ناكي بوازو، المرجع السالف، ص ٣٨.
٢- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ٢٢٧.
٣- ميشال شيحا، المرجع السابق، ص ١١٣.

جدول رقم ٤: توزّع الجالية تبعًا للوضع العائليّ والجنس

الوضع العائليّ / الجنس	عازب عازبة	متأهّل متأهّلة	مطلّق مطلّقة	أرمل أرملة	خلاف ذلك	المجموع
الرجال	٣٠,٦٧	٤١,٦٧	١,٣٣	٠,٣٣	٠,٣٣	٧٤٪
النساء	٩,٠٠	١٢,٦٧	١,٦٧	٢,٣٣	٠,٠٠	٢٦٪
المجموع	**٣٩,٦٧٪**	**٥٤,٣٤٪**	**٣,٠٠٪**	**٢,٦٦٪**	**٠,٣٣٪**	**١٠٠٪**

جدول رقم (٤) مكرّر: توزّع المتزوّجين وفقًا لتابعيّة الزوج

جنسيّة الزوج / الوضع العائليّ	لبنانيّ	عاجيّ	أفريقيّ غير عاجيّ	أوروبيّ	خلاف ذلك	المجموع
متأهّل	٨٨,٩٥٪	٣,٠٧٪	١,٨٤٪	٤,٩١٪	١,٢٣٪	١٠٠,٠٠

٣ - الوضع العائليّ

إنّ الروابط الزوجيّة تبعث في الجالية قوّة التماسك الاجتماعيّ. فنسبة المتزوّجين من أفراد الجالية هي ٥٤٪، في حين تنخفض نسبة المطلّقين (٣٪) والأرامل (٣٪). أمّا العازبون فيشكّلون ٤٠٪ (جدول رقم ٥).

أ - الوضع العائليّ والجنس (جدول رقم ٤)

العازبون من الرجال ٣٠,٦٧٪ والنساء العازبات ٩٪ من مجموع أفراد الجالية، في حين تبلغ نسبة الترمّل بين الرجال ٠,٣٪ وبين النساء ٢,٣٪، ممّا يشير إلى ارتفاع نسبة الأرامل اللواتي فقدن أزواجهنّ (٨٧,٥٠٪) مقابل (١٢,٥٠٪) مِن الرجال الذين فقدوا زوجاتهم.

ب - جنسيّة الشريك للمتزوّجين (جدول رقم ٤ مكرّر)

جنسيّة الشريك للمتزوّجين من أفراد الجالية، تتوزّع كالتالي:

٨٨,٩٥٪ شركاء لبنانيّين[٤]، ٣,٠٧ شركاء عاجيّين، ١,٨٤٪ شركاء أفارقة غير عاجيّين، ٤,٩١٪ أوروبيّين. وتبلغ أدنى نسبة ١,٢٣٪ من المتزوّجين من شركاء، لم تذكر جنسيّتهم في هذا الإحصاء.

جدول رقم ٥: توزّع الديانات تبعًا للوضع العائليّ

الديانة / الوضع العائليّ	شيعيّ	سنّيّ	مسيحيّ	غير ذلك	المجموع الكلّيّ
عازب	٣٧,٦٢	٤٦,١٥	٤٠,٤٣	٦٦,٦٧	٤٠٪
متأهّل	٥٧,٦٢	٥١,٢٨	٤٦,٨٠	---	٥٤٪
مطلّق	٣,٨٠	٢,٥٧	---	---	٣٪
أرمل	٠,٩٦	---	١٢,٧٧	٣٣,٣٣	٣٪
المجموع	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠
المجموع الكلّيّ	٧٠٪	١٣٪	١٦٪	١٪	١٠٠,٠٠

هذه النتائج تدعم الرأي القائل بأنّ الجالية اللبنانيّة تعيش منغلقة على ذاتها، يهيمن الطابع الانطوائيّ على علاقاتها الاجتماعيّة، ممّا يؤكّد الهدف الثالث للدراسة، ويدعم أدلّة عدم تأقلم اللبنانيّين في المجتمع العاجيّ[٥].

ج - الوضع الزوجيّ والدين (جدول رقم ٥)

بين المسلمين الشيعة ٣٧,٦٢٪ عازبون، ٥٧,٦٢٪ متزوّجون، ٣,٨٠٪ مطلّقون و٠,٩٦٪ أرامل. فيما خصّ المسيحيّين: ٤٠,٤٣٪ منهم عازبون، ٤٦,٨٠٪ متزوّجون، لا

٤- وذلك بخلاف الطلّاب اللبنانيّين الذين يعودون بصحبة زوجة أجنبيّة، بعد عدّة سنوات من الدراسة الجامعيّة في أوروبا أو الولايات المتّحدة.

٥- وهذا نفي جزئيّ للفرضيّة الثانية في هذه الدراسة.

يوجد مطلّقين، ١٢,٧٧٪ أرامل. أمّا المسلمون السنّة فمنهم ٤٦,١٥٪ عازبون، ٥١,٢٨٪ متزوّجون، ٢,٥٧٪ مطلّقون؛ لا يوجد بينهم أرامل. في الديانات الأُخرى، لا يوجد متزوّجين ولا مطلّقين، يمثّل العازبون ٦٦,٦٧٪ منهم والأرامل ٣٣,٣٣٪.

وجدير بالذكر أنّ الشيعة يشكّلون ٧٠٪ من مجموع الجالية في حين تبلغ نسبة السنّة ١٣٪، والمسيحيّون ١٦٪ و١٪ من الديانات الأُخرى. ويعود ارتفاع عدد الشيعة إلى الأمور التالية:

في القرن التاسع عشر إبّان الحكم العثمانيّ، عاش المسلمون الشيعة والمسيحيّون في لبنان جوًّا من عدم الطمأنينة على أرواحهم وممتلكاتهم، وعانوا الظلم والفقر، ممّا دفعهم إلى النزوح، وهم أقلّيّات في منطقة تقطنها غالبيّة من السنّة.

ما لبث الوضع أن تغيّر مع الانتداب الفرنسيّ، فحظي الموارنة بعطف الدولة المنتدبة ولم يبق من الأسباب ما يُكرههم على الرحيل، في حين ظلّ الشيعة، الفئة المحرومة في لبنان، فلا يتوقّف تدفّقهم نحو بلدان الاغتراب، خصوصًا أفريقيا. إنّ أوضاعهم السياسيّة والاجتماعيّة - الاقتصاديّة غير المستقرّة، لم تحرز أيّ تحسّن، منذ العهد العثمانيّ حتّى أحداث عام ١٩٧٥. في هذا الصدد كتب آلان تيرفور: "ساحل العاج، أرض الملاذ والأمل، يستقبل من المسيحيّين الموارنة - وقد أصبحوا الطائفة المهيمنة في لبنان، ولم يعد لديهم دواع ملحّة للاغتراب - نسبة منهم أقلّ من المسلمين الشيعة، الذين تتزايد نسبة اغترابهم، نتيجة أوضاعهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة المتردّية. في غياب أيّ تقديرات عائدة إلى مرحلة الانتداب، نجد اليوم في صفوف المسلمين الشيعة أعلى نسبة من الأُمّيّين (٣١٪) وأقلّ نسبة من حملة الشهادات (٤٪ منهم مستوى ثانويّ و٢٪ مستوى جامعيّ)، وأكبر عدد من الأُجور المتدنيّة (الدخل السنويّ ٢٢٪ منهم دون ١٥٠٠ ليرة لبنانيّة".

جدول رقم ٦: توزّع الجالية تبعًا لمناطق الانتماء الجغرافيّ

منطقة الانتماء	النسبة المئويّة
بيروت	٣٪
لبنان الشماليّ	٣٪
لبنان الجنوبيّ	٨٣٪
البقاع	١٪
جبل لبنان	٧٪
مناطق أُخرى	٣٪
المجموع	**١٠٠٪**

٤ - مناطق الانتماء الجغرافيّ (جدول رقم ٦)

يتمثّل لبنان الجنوبيّ بأعلى نسبة من المغتربين الوافدين من لبنان إلى ساحل العاج، إذ تبلغ هذه النسبة ٨٣٪ من مجموع الجالية.

تتمثّل كلّ من بيروت ولبنان الشماليّ بنسبة ٣٪ فقط لكلّ منهما، في حين يتمثّل جبل لبنان بنسبة ٧ بالمئة، والبقاع بواحد بالمئة، والمناطق غير المحدّدة بـ ٣٪. إنّ ارتفاع نسبة الوافدين من لبنان الجنوبيّ عائد إلى وجود غالبيّة شيعيّة في هذه المنطقة، وهم طائفة إسلاميّة عرف أتباعها عبر التاريخ دواعي ملحّة للاغتراب كما أسلفنا.

التضامن الاقليميّ والعائليّ المنوّه عنه تحت عنوان "نداء الأخ" هو عامل آخر، يحدّد بشكل عام وجهة الهجرة نحو بلد الاغتراب، بل نحو المدينة أو القرية[٦]. وهذا ما يفسّر وجود معظم رعايا النبطيّة في ساحل العاج والغابون ورعايا حاريص في سيراليون، كما نجد معظم مغتربي أنصار في ليبريا ومغتربي جويّا في نيجيريا ومغتربي طرابلس في غانا.

٦- لذا نجد في ادجامي وتريشفيل نسبة كبيرة من أهالي الزرارية وقانا، وفي بلاتو أهالي النبطيّة وصور...

يضاف إلى العوامل السابقة، الوضع الأمنيّ السيّء، في جنوب لبنان، نتيجة الغزوات الاسرائيليّة لهذه المنطقة.

جدول رقم ٧: توزّع الجالية تبعًا للمستوى التعليميّ:

المستوى التعليميّ	النسبة المئويّة
ابتدائيّ	٣٢٪
ثانويّ	٤٩٪
جامعيّ	١٨٪
أميّون	١٪
المجموع	**١٠٠٪**

٥ - المستوى التعليميّ (جدول رقم ٧)

نسبة الجامعيّين في الجالية ١٨٪، أمّا نسبة الثانويّين فتبلغ ٤٩٪، ممّا يعني أنّ أكثر من نصف أفراد الجالية أنهوا المرحلة الثانويّة (٦٧٪).

تمثّل المرحلة الابتدائيّة نسبة ٣٢٪ والأُميّين ١٪.

يعود ارتفاع عدد الجامعيّين والثانويّين في صفوف المعنيّين بالاستقصاء إلى كون هؤلاء من المثقّفين، الذين أجابوا على أسئلة الاستمارة، متجاوبين مع هدفها، في حين أنّ ذوي المستوى الدراسيّ المنخفض أظهروا الحذر، فامتنعوا عن ملء الاستمارة، وغابوا بالتالي عن الاحصاء. قبل الحرب، نادرًا ما كان اللبنانيّ الجامعيّ ينزح إلى ساحل العاج ليتعاطى أيّ نشاط تجاريّ، لأنّه كان قانعًا بحياته في مسقط رأسه، ناجحًا في عمله، يحدوه الأمل بمستقبل مضمون، فيختار عند الضرورة العمل الموقّت في بلدان الخليج النفطيّة "التي تجتذب بأجورها المرتفعة، الفنيّين والمهندسين والمقاولين وأصحاب المهن الحرّة"[٧].

٧- معين حدّاد، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

منذ العام ١٩٧٦، اتّخذت حركة النزوح من لبنان أبعادًا مخيفة، فبدأ توافد اللبنانيّين إلى ساحل العاج، الذي أحسن وفادتهم، فلاذوا به غير مكترثين بمهنهم الأصليّة، وامتيازاتهم في الوطن الأمّ.

جدول رقم ٨: التوزّع تبعًا للمستوى التعليميّ ومناطق الانتماء

منطقة الانتماء / المستوى التعليميّ	بيروت	لبنان الشماليّ	لبنان الجنوبيّ	البقاع	جبل لبنان	مناطق أخرى
ابتدائيّ	٥٥,٥٦	١١,١١	٣٣,٨٧	٢٥,٠٠	١٤,٢٩	١١,١١
ثانويّ	٤٤,٤٤	٧٧,٧٨	٤٧,١٨	٥٠,٠٠	٦١,٩٠	٤٤,٤٤
جامعيّ	---	١١,١١	١٧,٧٤	٢٥,٠٠	٢٣,٨١	٣٣,٣٣
أُميُّون	---	---	١,٢١	---	---	١١,١١
المجموع	**١٠٠,٠٠**	**١٠٠,٠٠**	**١٠٠,٠٠**	**١٠٠,٠٠**	**١٠٠,٠٠**	**١٠٠,٠٠**
النسبة المئويّة إلى المجموع	**٪٣**	**٪٣**	**٪٨٣**	**٪١**	**٪٧**	**٪٣**

المستوى التعليميّ بالنسبة إلى مناطق الانتماء (جدول رقم ٨)

بيروت: المرحلة الابتدائيّة تشمل ٥٥,٥٦٪، والثانويّة ٤٤,٤٤٪ من رعايا بيروت. ليس فيها أُميُّون ولا جامعيّون.

لبنان الجنوبيّ: المرحلة الابتدائيّة تغطّي ٣٣,٨٧٪، والثانويّة ٤٧,١٨٪ من الجنوبيّين، في حين تبلغ نسبة الأُميّين ١,٢١٪ والجامعيّين ١٧,٧٤.

لبنان الشماليّ: غالبيّة الشماليّين ثانويّون، ونسبتهم ٧٧,٧٨٪، لا أُميُّون بينهم، في وقت تتساوى نسبة الابتدائيّين والجامعيّين، أو تبلغ ١١,١١٪.

جبل لبنان: ترتفع فيه نسبة الجامعيّين بين مغتربي الجبل إلى ٢٣,٨١٪، أمّا الابتدائيّون والثانويّون فيمثّلون على التوالي ١٤,٢٩٪ و٦١,٩٠٪.

البقاع: نسبة البقاعيّين ضئيلة جدًّا بين مغتربي ساحل العاج (١٪)، يتوزّعون كالتالي: ٢٥٪ ابتدائيّون، ٥٠٪ ثانويّون و٢٥٪ جامعيّون.

إنّ مقارنة نتائج هذا الجدول بالنتائج التي توصّل إليها آلان تيرفور، تكشف عن تحسّن ملموس في المستوى التعليميّ لمغتربي لبنان الجنوبيّ.

ينعم الجنوبيّون بإمكانيّات كبيرة، ماديّة وفكريّة. وهم إذ ينتمون إلى عائلات اغتربت منذ أمد طويل، يتابعون تحصيلهم الجامعيّ بأعداد كبيرة، يحدوهم شعور ملحّ بضرورة مواكبة المناطق الأُخرى.

بهذا الخصوص كتب إيلي صفا:

"مساعدات المهاجرين اللبنانيّين، جعلت بعض المناطق كالجنوب الفقير بالأمس، ينعم بالحياة والتنمية"[٨].

جدول رقم ٩: توزّع الجالية تبعًا للديانة ومناطق الانتماء

منطقة الانتماء / الدين	بيروت	لبنان الشماليّ	لبنان الجنوبيّ	البقاع	جبل لبنان	مناطق أخرى	المجموع	النسبة ٪ للمجموع
مسلم شيعيّ	٠,٤٨	---	٩٧,٦٢	١,٤٣	---	٠,٤٨	١٠٠	٪٧٠
مسلم سنّيّ	١٢,٨٢	٥,١٣	٨٢,٠٥	---	---	---	١٠٠	٪١٣
مسيحيّ	٦,٣٨	١٤,٨٩	١٧,٠٢	٢,١٣	٤٤,٦٩	١٤,٨٩	١٠٠	٪١٦
طوائف أُخرى	---	---	٠,٦٧	---	---	---	---	٪١
النسبة ٪ للمجموع	**٪٣**	**٪٣**	**٪٨٣**	**٪١**	**٪٧**	**٪٣**		**٪١٠٠**

٨- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

٦ - الديانة (جدول رقم ٩)

يمثّل المسلمون الشيعة نسبة عالية جدًّا من الجالية اللبنانيّة (٧٠٪)، في حين يمثّل المسيحيّون والمسلمون السنّة على التوالي ١٦٪ و١٣٪. أمّا الطوائف الأُخرى فلا تمثّل سوى ١٪.

المسلمون الشيعة: ينتمون في غالبيّتهم الساحقة إلى الجنوب اللبنانيّ ٩٧,٦٢٪، قلّة منهم من بيروت (٠,٤٨٪)، والبقاع (١,٤٣٪)، والمناطق الأُخرى (٠,٤٨٪).

المسلمون السنّة: وافدون بغالبيّتهم من الجنوب (٨٢,٠٥٪)، حيث يشكّلون أقلّيات تعيش في المدن الساحليّة، كصيدا والجيّة، التي لا يغترب أهلها إلاّ نادرًا. في أصل وجود السنّة في المهجر إلى جانب الشيعة، روابط قربى قائمة بين الطائفتين. أمّا نِسب السنّة المنتمين في أصلهم إلى بيروت ولبنان الشماليّ، فهي على التوالي ١٢,٨٢٪ و٥,١٣٪.

المسيحيّون: يتوزّع المسيحيّون في انتمائهم إلى جبل لبنان (٤٤,٦٩٪)، وهي أعلى نسبة بينهم، وإلى الجنوب اللبنانيّ (١٧,٠٢٪)، ثمّ لبنان الشماليّ (١٤,٨٩٪)، وبيروت (٦,٣٨٪)، وأخيرًا البقاع (٢,١٣٪). أمّا المسيحيّون الوافدون من المناطق اللبنانيّة غير المحدّدة فهم (١٤,٨٩٪).

جدير بالذكر أنّ الطوائف الأُخرى ممثّلة بنسبة ضئيلة، تكاد لا تذكر (٠,٦٧٪).

جدول رقم ١٠: توزّع الجالية وفقًا للجنس والدين

الديانة / الجنس	المسلمون الشيعة	المسلمون السنّة	المسيحيّون	الطوائف الأُخرى	مجموع النسبة المئويّة
رجال	٨٠,٩٥	٦٤,١٠	٥٥,٣٢	٦٦,٦٧	٧٤٪
نساء	١٩,٠٥	٣٥,٩٠	٤٤,٦٨	٣٣,٣٣	٢٦٪
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠٪

جدول رقم ١١: توزّع الجالية تبعًا لمناطق الانتماء ودوافع الاغتراب

الدوافع / منطقة الانتماء	أسباب اقتصاديّة	الالتحاق بقريب	الهرب من الحرب	أسباب أُخرى	النسبة ٪ للعيّنات
بيروت	١,٠٢	٣,١٠	٢,٠٤	٦,٣٥	٣٪
لبنان الشماليّ	٤,٠٨	١,١١	---	٦,٣٥	٣٪
لبنان الجنوبيّ	٨٣,٣٣	٨٥,٥٧	٨٥,٧١	٧٣,٠٢	٨٣٪
البقاع	---	١,١١	٢,٠٤	٣,١٧	١٪
جبل لبنان	٥,١٠	٦,٧٨	٨,١٦	٧,٩٤	٧٪
المناطق الأُخرى	٦,٤٧	٢,٣٣	٢,٠٥	٣,١٧	٣٪
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
النسبة المئويّة للمجموع	٣٣٪	٣٠٪	١٦٪	٢١٪	١٠٠٪

٧ - دوافع الهجرة (جدول رقم ١١)

يلاحَظ أنّ غالبيّة دوافع الاغتراب إلى ساحل العاج ذات طابع اقتصاديّ، لأنّ ٣٣٪ من أفراد الجالية قدموا إلى هذا البلد لتحسين وضعهم الاقتصاديّ و٣٠٪ منهم للالتحاق بقريب على أمل تحسين الوضع الماليّ أيضًا، في حين أنّ ١٦٪ فرّوا من جحيم الحرب و٢١٪ قَدِموا لأسباب أُخرى.

ضرب لبنان الجنوبيّ الرقم القياسيّ في كثرة وتنوّع أسباب اغتراب بنيه. فهؤلاء يشكّلون ٨٣٪ من مجموع أفراد الجالية، والمغتربون منهم لأسباب اقتصاديّة، يشكّلون ٨٣,٣٣٪ من مجموع الذين اغتربوا لهذه الأسباب، في حين تبلغ نسبة الملتحقين بالأهل ٨٥,٥٧٪، والهاربين من الحرب ٨٥,٧١٪ و٧٣,٠٢٪ لدوافع أُخرى.

بيروت: يمثّل مغتربو بيروت ٣٪ من مجموع الجالية. أمّا دوافع الهجرة لديهم فتتوزّع كالتالي: ١,٠٢٪ لأسباب اقتصاديّة، ٣,١٠٪ للالتحاق بقريب، في حين أنّ الهاربين من الحرب يمثّلون ٢,٠٤٪ والنازحين لدوافع أُخرى ٦,٣٥٪.

جبل لبنان: يمثّل ٧٪ من العيّنات البشريّة. اغترب منه ٥,١٠٪ لأسباب اقتصاديّة، ٦,٧٨٪ لأسباب عائليّة، ٨,١٦٪ هربًا من الحرب و٧,٩٤٪ لدوافع أُخرى.

لبنان الشماليّ: يمثّل ٣٪ فقط من مجموع الجالية. توزّع نسب دوافع الاغتراب منه كالتالي: ٤,٠٨٪ لدوافع اقتصاديّة، ١,١١٪ للالتحاق بقريب و٦,٣٥٪ لدوافع أُخرى، ولا وجود للفارّين من الحرب.

البقاع: تتدنّى نسبة مغتربيه إلى ١٪ من مجموع أفراد الجالية ١,١١٪ منهم اغتربوا لأسباب عائليّة، ٢,٠٤٪ هربًا من الحرب و٣,١٧٪ لأسباب لم تذكر.

يتبيّن من الأرقام المعتمدة في الجدول رقم (١١) أنّ نسبة الهاربين من الحرب[٩] (١٦٪). ليست في أهمّية نسبة المغتربين لأسباب اقتصاديّة (٣٣٪) أو الملتحقين بأقارب لهم (نداء الأخ ٣٠٪). غير أنّ الأسباب تتشابك إلى درجة يصعب فصلها، فالمهاجر الذي يفرّ من الحرب إنّما يلتحق غالبًا بقريب له، بغية تحسين وضعه الماديّ، وهو لا يأتي إلى ساحل العاج إلاّ اقتداءً بقريب له هاجر قبله، فتردّدت أخبار نجاحه في مسقط رأسه:

"صرّح ١٥٪ من المغتربين إلى الولايات المتّحدة عام ١٩٠٩، أنّهم يودّون الالتحاق بأقارب أو أصدقاء... والحكايات الأُسطوريّة المتناقلة عن إنجازات المغتربين الأوائل، كانت تقرأ في رسائلهم وتعاد قراءتها مرّات ومرّات، ثمّ يعلّق عليها الأهل والأصدقاء ويتأمّلون في مضمونها، في حين هم غارقون في الفقر المدقع. فما تلبث أن تعقد من أجلها الاجتماعات وتكرس السهرات، التي تؤدّي غالبًا إلى إلهاب الحماس ودفع مجموعات جديدة نحو ديار الاغتراب"[١٠].

٩- وهذا دحض للمسلّمة الثالثة في هذه الدراسة.

١٠- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ١٨١.

الجدول رقم ١٢: توزّع المعنيّين بالاستقصاء تبعًا لمدّة الإقامة

مدّة الإقامة	النسبة المئويّة	العدد الفعليّ/الشركاء
أقلّ من ٥ سنوات	١٩٪	٧,٣٨٧
من ٥ إلى ٩ سنوات	٢٧٪	١٠,٤٩٨
من ١٠ إلى ٢٩ سنة	٤٤٪	١٧,١٠٨
من ٣٠ إلى ٣٩ سنة	٦٪	٢,٣٣٢
٤٠ سنة وما فوق	٤٪	١,٥٥٥
المجموع	**١٠٠٪**	**٣٨,٨٨٠**

مدّة الإقامة في ساحل العاج (الجدولان ١٢ و١٣)

يمثّل الجدول رقم ١٢ شرائح مُدد الإقامة للمغتربين، من سنّ الخامسة عشرة أو أكثر. على ضوء نتائج هذا الجدول، يمكن إضافة من هم دون السنّ المذكورة للحصول على عدد أفراد الجالية الإجماليّ. كما نستدلّ من الصفّين الأخيرين لهذا الجدول، أنّ أعداد اللبنانيّين بين عامي ١٩٤٦ و١٩٥٥ كان ٢,٣٣٢ شخصًا. والرقمان الأخيران موضع حذر، إذ كان يجب أن يؤخذ في الاعتبار عدد الوفيّات والعائدين إلى الوطن، والأصحّ القول إنّ الزيادة الطارئة على عدد اللبنانيّين في ساحل العاج بلغت ٥٦,١١٣ شخصًا بين عامي ١٩٥٦ و١٩٨٥ (وهم اللبنانيّون المولودون في لبنان أو في ساحل العاج).

ويزيد الأمر أهمّية تحديد عدد اللبنانيّين الوافدين إلى ساحل العاج بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٥، ثمّ بين عامي ١٩٥٦ و١٩٧٤، ممّا يتيح معرفة تأثير الوضع الحاليّ المتفجّر في لبنان، على حركة الاغتراب اللبنانيّ. وإذا أضفنا ٩٠٪ ممّن هم دون الخامسة عشرة إلى عدد الذين تقلّ مدّة إقامتهم عن عشر سنوات وتجاوزوا سنّ الخامسة عشرة، لتبيّن لنا أنّ عدد اللبنانيّين قد زاد ٣٦,٨٩٣ شخصًا في السنين العشر الأخيرة وعلى ضوء هذه النتائج، يمكننا إعطاء الجدول البيانيّ التالي:

جدول رقم ١٣: توزّع الجالية حسب تاريخ الدخول إلى ساحل العاج

تاريخ الوصول	العدد التقديريّ
من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٥	٣٦,٨٩٣
من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٤	١٩,٢٢٠
من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥	٢,٣٣٢[١١]
قبل عام ١٩٤٦	١,٥٥٥[١٢]
المجموع	٦٠,٠٠٠[١٣]

١١- يقرب هذا العدد من الرقم ٢٠٠٠ الذي أعطاه إيلي صفا للحقبة نفسها، وهو ألفا نسمة.

١٢- حتّى عام ١٩٣٨، أعطى كامل مروّه العدد ٧٠٠.

١٣- علمًا أنّ هذا الإحصاء يعود إلى العام ١٩٨٥.

الفصل السابع

ظروف المعيشة والمشكلات الشخصيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة

طبيعة متاعب المغتربين. القلق على لبنان. المشاعر النفسيّة والشخصيّة. العلاقات الاجتماعيّة الوضع الاقتصاديّ

١ - طبيعة متاعب اللبنانيّين (الجدول رقم ١٤)

اللبنانيّون الذين أقاموا في ساحل العاج ما بين عشر إلى تسع وعشرين سنة هم الأكثر عددًا، إذ يشكّلون ٤٤٪ من مجموع الجالية، يأتي بعدهم الذين أقاموا ما بين خمس وتسع سنوات، إذ تبلغ نسبتهم ٢٧٪ كما يمثّل الذين لم تبلغ إقامتهم خمس سنوات ١٩٪. أمّا الذين أقاموا ما بين ٣٠ إلى ٣٩ سنة فنسبتهم ٦٪ فقط، ويأتي في المرتبة الأخيرة المغتربون منذ أكثر من أربعين سنة، إذ يمثّلون ٤٪ فقط من مجموع أفراد الجالية.

والملاحظ أنّ عدد أفراد الشريحة يتناقص بزيادة مدّة الإقامة، لوفاة بعض المسنّين منهم وعودة بعضهم الآخر بصورة نهائيّة إلى الوطن.

كما تتناسب مدّة الإقامة عكسًا مع المتاعب الناجمة عن الحرب، بمعنى أن تحسُّس المغترب لهذه المتاعب يتناقص كلّما طالت مدّة اغترابه، نظرًا إلى تكيّفه مع ظروف الحياة في ساحل العاج (أُنظر الجدول رقم ١٤).

يختلف تأثّر القادمين الجدد بهذه المتاعب، باختلاف قرب أو بعد مكان إقامتهم في لبنان عن بؤر التوتّر والوضع العامّ السائد في هذا المكان، لأنّ هؤلاء يمكثون بصورة موقّتة، بانتظار عودة السلام ليعودوا بدورهم إلى الوطن، بعكس قدامى المغتربين الذين تراخت روابطهم بذويهم.

تعترض اللبنانيّين في ساحل العاج كما تعترض غيرهم من المغتربين، متاعب عدّة اقتصاديّة، واجتماعيّة، وعائليّة، وعاطفيّة... بدءًا بالمصاعب اللغويّة، مرورًا بمشكلة الاستقرار ثمّ التكيّف مع حياة البلد المضيف. هؤلاء المهاجرون، المغبونون أصلاً في الوطن الأمّ، يأتون طلبًا للرفاه من دون تهيئة مسبقة، معتمدين على تضامن أبناء بلدهم، الذي لا يلبث أن يتضاءل مع كثرة الوافدين حين يصل الأمر إلى حدّ النزوح الجماعيّ نتيجة الحرب الأهليّة وفقدان الأمن. هذه المتاعب لا ترتبط بالوضع السيّئ في لبنان فحسب، وإنّما هي متاعب قديمة، قِدَم تاريخ الاغتراب اللبنانيّ. "فنحن أمام شعب مضطرّ للاغتراب ومعتاد عليه، يتصدّى لمختلف مخاطر الانتقال والتهجير. شعب ورث عن أجداده استعدادًا فطريًّا للترحال والمغامرة"[1].

قبل ذلك كتب أحد المؤرّخين في هذا السياق: "أبحر سكّان لبنان، مع أوائل المبحرين في العالَم، راكبين الموج، باحثين عن المغامرات وراء الآفاق البعيدة، تقودهم المحاولة تلو الأُخرى والمبادرة تلو المبادرة إلى عرض البحار. ركبوا الأخطار اخترقوا العواصف والأنواء، نزلوا على الشطآن المجهولة، والتقوا ببشر آخرين، فكانوا كمن يستكشف كواكب أُخرى مأهولة"[2].

١- جوزيف أشقر، المرجع السابق، ص ١٤٧.
٢- ميشال شيحا، المرجع السابق، ص ١١٣.

جدول رقم ١٤: توزّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة وطبيعة متاعب الحرب

المتاعب التي سبّبتها الحرب / مدّة الإقامة	المتاعب الاقتصاديّة	المتاعب العائليّة	المتاعب العاطفيّة	المتاعب الاجتماعيّة	متاعب أُخرى	النسبة ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	١٤,٧٥	٢٣,١٦	٢٨,٩٥	١٣,٠٤	١٠,٣٤	٪١٩
٥ - ٩	٣١,١٥	٢٠,٠٠	٢٨,٩٥	٤٣,٤٨	١٧,٢٤	٪٢٧
١٠ - ٢٩	٤٠,٨٩	٤٧,٣٧	٣٩,٤٧	٣٦,٩٦	٥٦,٩٠	٪٤٤
٣٠ - ٣٩	٩,٨٤	٧,٣٦	٢,٦٣	٢,١٧	٥,١٧	٪٦
٤٠ أو أكثر	٣,٢٨	٢,١١	---	٤,٣٥	١٠,٣٤	٪٤
المجموع	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**
النسبة ٪ إلى المجموع	**٪٢٠**	**٪٣٢**	**٪١٣**	**٪١٥**	**٪٢٠**	**١٠٠,٠**

١ - المصاعب الاقتصاديّة (جدول رقم ١٤)

تشكّل المصاعب الاقتصاديّة ٢٠٪ من مجموع مصاعب المعنيّين بالاستقصاء.

غير أنّ نسبة هذه المتاعب ترتفع لتبلغ ٤٠,٩٨٪ لِمَن يعيشون في ساحل العاج منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة. ومردّها إلى أنّ هؤلاء المغتربين لا يتوصّلون بعد إقامة طويلة نسبيًّا، إلى تحصيل ثروة تمكّنهم من التكامل الاقتصاديّ وتأمين مستقبل أولادهم، ولا حتّى من العودة إلى الوطن للعيش في بحبوحة، فهم في سنّ ووضع لا يتيحان لهم خوض معترك حياة جديدة.

ثمّ تتناقص نسبة المتاعب إلى ٣١,١٥٪ لِمَن يعيشون في المغترَب منذ خمس إلى تسع سنوات. يعتقد هؤلاء أنّ هذه المدّة كافية لاستكشاف المستقبل، غير أنّهم قلقون على مصيرهم، إذ يرون أنّ التضخّم العالَميّ يسدّ المنافذ أمامهم ويوقف انطلاقتهم.

علاوة على ذلك، فهم مقتنعون؛ وقد شهدوا بأُمّ العين فصولاً بشعة من المأساة اللبنانيّة، بأنّ حلّ القضيّة اللبنانيّة لن يتمّ جذريًّا بين عشيّة وضحاها.

أمّا الذين يُقيمون في ساحل العاج منذ أقلّ من خمس سنوات، فمتاعبهم الاقتصاديّة لا تتجاوز ١٤,٧٥٪؛ وهي نسبة ضئيلة، لأنّ المعنيّين بها، إمّا أنّهم ينعمون بضيافة أقاربهم

بانتظار عودة الهدوء إلى لبنان، أو يعملون في ظروف مرضيّة. ويندرج ضمن هذه الشريحة الهاربون من الحرب لتوظيف أموالهم في ظلّ نظام اقتصاديّ حرّ.

أخيرًا تتدنّى نسبة المتاعب إلى ٩,٨٤٪ بين المقيمين في ساحل العاج منذ ثلاثين إلى تسع وثلاثين سنة لتصل إلى ٣,٢٨٪ بين المقيمين منذ أكثر من أربعين سنة، عِلمًا أنّ هاتين الفئتين على علاقة وثيقة فيما بينهما، إذ من المفترض أنّ قدامى المغتربين قد تأقلموا كلّيًا مع أجواء البلد المضيف، أو على الأقلّ تأقلم أولادهم الذين وُلِدُوا ونشأوا في هذا البلد، فنما معهم الشعور بأنّ وضعهم هنا هو أفضل إجمالاً من وضعهم في الوطن الأُمّ حيث يحرمون من فرص العمل، لجهلهم التامّ باللغة العربيّة. ضمن هذه الفئة بالذات، نجد خصوصًا:

"إنّ اللبنانيّ يعطي البرهان على تعلّقه بهذا البلد الجميل: فهو يبدع ويستثمر في الحجر والإسمنت والفولاذ والآلات لمدّة جيلين على الأقلّ. ولا يمكن بالتالي مقارنة استثماراته الصناعيّة باستثمارات الآخرين. فالجهود الهائلة والتضحيات المبذولة من أجل هذا التطوير الصناعيّ، تفرض نوعًا من التمييز المشروع بينه وبين حامل الأسهم التجاريّة الذي لا يعرف من هذا البلد سوى حصيلة حساباته، من أرباح وخسائر والذي يستعيد رأسماله على مدى خمس سنوات.

إنّ توظيفات الأرباح وإعادة توظيفها في دورة الاقتصاد، لا يترك مجالاً للبنانيّ لكي يستقرّ في مكان آخر"(٣).

٢ - المشكلات العائليّة (الجدول رقم ١٤)

تمثّل المشكلات العائليّة ٣٢٪ من مجموع المشكلات المذكورة في الجدول رقم ١٤.

الملاحظ أنّ نسبة هذه المشكلات ترتفع بين المقيمين في ساحل العاج منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة، حيث تصل إلى ٤٧,٣٧٪، يرتبط هذا الواقع من حيث الظاهر، بقلق المغتربين على مستقبل أولادهم الذين قد لا يجدون عملاً لدى تخرّجهم من الجامعات في البلد المضيف، لأنّهم ليسوا مواطنين أصيلين، ولأنّ هذه المشكلة سوف تواجههم أيضًا في لبنان للأسباب التي سبق ذكرها.

٣- س. فرحات، المرجع السابق، ص ٤.

تبدأ نسبة الأسباب المذكورة بالتناقص لتبلغ ٢٣,١٦٪ لدى المقيمين منذ أقلّ من خمس سنوات. ثمّ تصل إلى ٢٠٪ لدى المقيمين منذ ٥ إلى ٩ سنوات. تضمّ هاتان الفئتان المتقاربتان المغتربين المقيمين بصورة موقّتة، المراهنين على العودة إلى الوطن إلى جانب كونهم عازبين أو أنّ أولادهم لا يزالون أطفالاً. وتستمرّ النسبة بالتناقص لتصل إلى ٧,٣٦٪ لِمَن يقيمون منذ ٣٠ إلى ٣٩ سنة، وتبلغ حدّها الأدنى ٢,١١٪ للمغتربين المقيمين في البلد منذ أكثر من أربعين سنة. هاتان الفئتان اختارتا اغترابًا نهائيًّا، يندُر في أوساط مغتربي أفريقيا، لأنّ حالات الاغتراب الدائم تكثر في الولايات المتّحدة، أميركا الجنوبيّة، أستراليا وكندا.

على أنّ مآسي الحرب اللبنانيّة، حدت اليوم بقدامى المغتربين في أفريقيا، إلى التخلّي عن فكرة العودة إلى الوطن الأمّ، وبهذا يتحوّل اغترابهم من وسيلة للهروب من الحرب إلى غاية بحدّ ذاتها "فالوسط الجديد يغيّر عادةً ذهنيّة المغترب منذ أمد طويل، الذي يشعر لدى عودته إلى مسقط رأسه، بالتفوّق على مواطنيه الذين لازموا البلد، وغالبًا ما يواجه مصاعب جمّة للتكيّف من جديد في وسطٍ نزح عنه لسنين خلت"(٤).

٣ - المشكلات العاطفيّة (جدول رقم ١٤)

تمثّل المشكلات العاطفيّة ١٣٪ من مجموع مشكلات المغتربين. الشريحة الأولى تمثّل المقيمين منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة، وهم يعانون ٣٩,٤٧٪ من مجموع المشكلات العاطفيّة. هذه النسبة تكاد تتساوى مع نسبة المتاعب العائليّة. ويبدو أنّ المشكلات المذكورة مترابطة فيما بينها، فالمغترب الذي يعاني المتاعب الاقتصاديّة، يقلق على مستقبل أولاده ويرزح تحت عبء المشكلات العاطفيّة، خشية العودة إلى الوطن صفر اليدين، على أنّ أحداث لبنان تندرج ضمن المسبّبات الكُبرى لهذه المتاعب. فالمغترب، الذي يحلم بالعودة إلى بلده في خريف العمر، فقيرًا كان أم غنيًّا، يرى نفسه وقد افتقد الأمان، ملزمًا بالتخلّي عن حلم العودة والعيش في حنين دائم. ففي أيّامنا الحاضرة:

٤- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ٢٢٨.

"تحوّل الاغتراب الموقّت إلى حالة دائمة وبعبارة أوضح غالبًا ما يتحوّل الاغتراب من وسيلة إلى غاية"(٥).

تتكوّن الفئة الثانية من المغتربين المقيمين منذ أقلّ من خمس سنوات، الذين تتساوى نسبة مشكلاتهم مع المقيمين منذ خمس إلى تسع سنوات، إذ تصل إلى ٢٨,٩٥٪، وترتبط بمدى قرب أو بعد مساكنهم عن بؤر الاقتتال في لبنان. هؤلاء الوافدون يعيشون في قلق دائم على ذويهم ويشعرون بالحنين إلى وطن نزحوا عنه قسرًا لمدّة وجيزة خلت.

ثمّ تتدنّى النسبة إلى ٢,٦٣٪ بين المغتربين منذ ثلاثين إلى تسع وثلاثين سنة، الذين تلاشت روابطهم بالوطن الأمّ، نتيجة وفاة ذويهم، ولم تعد العودة إلى مسقط الرأس هاجسًا أو حلمًا يسكنهم خصوصًا بعد أن تحوّلت أرضهم إلى ركام، ممّا يدلّ أنّ الحنين إلى الوطن لم يعد كما كان في زمن: "يُقتلع فيه المغترب من أرضه ولا يتركها بإرادته، هذا الفلاح الذي يرتبط بالأرض وتشدّه التقاليد إليها. يأتي إلى ديار الاغتراب وحيدًا من دون عزم أكيد على العودة"(٦).

٤ - المصاعب الاجتماعيّة (جدول رقم ١٤)

يمثّل اللبنانيّون الذين يعانون من مصاعب اقتصاديّة ١٥٪ من مجموع المعنيّين بالاستقصاء.

فالشريحة المقيمة في ساحل العاج منذ خمس إلى تسع سنوات، تعاني نسبة ٤٣,٤٨٪ من متاعب المجموع. ثمّ تتناقص النسبة إلى ٣٦,٩٦٪ لِمَن يقيمون منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة. ترتبط هذه المشكلات بالمتاعب المذكورة آنفا، وفي مقدّمتها مشكلة التكيّف الاجتماعيّ ومستقبل الأولاد الذين يولدون في هذا البلد، حيث لا يُعْتَرَف بهم كمواطنين عاجيّين. على أنّ اللبنانيّ في ساحل العاج، يعوّض عدم التأقلم الاجتماعيّ بالتكامل الاقتصاديّ والرخاء الماليّ:

"فالاغتراب اللبنانيّ إلى أفريقيا الغربيّة، الذي يعود تاريخه إلى العام ١٨٩٠ على وجه

٥- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ٤.
٦- المرجع السابق، ص ٢١٣.

التقريب، يماثل الاغتراب في أميركا واستراليا بفعاليّته وتأثيره على الصعيد الاقتصاديّ، وإن يكن ذلك على حساب الاندماج الاجتماعي"(٧).

قد يكون الرفض الاجتماعيّ في أساس انطواء هذه الجالية على نفسها، فهي لا تعدو كونها أقليّة غريبة وحذرة: "يمكن القول إنّ الشبّان اللبنانيّين يشكّلون اليوم مجموعة منغلقة على ذاتها؛ متراصة تتميّز بتضامن عائليّ عرقيّ ودينيّ كبير، بحيث أنّها تشكّل كتلة ممانعة في وجه كلّ ما هو غريب عنها"(٨).

ثمّ تتدنّى النسبة إلى ١٣,٠٤٪ للمغتربين المقيمين منذ أقلّ من خمس سنوات، الذين لم يُتح لهم خلال مدّة إقامتهم القصيرة نسبيًّا قياس هذه المشكلات. وتبلغ هذه النسبة حدّها الأدنى (٦,٥٢٪) للمقيمين منذ أكثر من ثلاثين سنة، ممّا يؤكّد هدفنا الأخير من هذه الدراسة(٩).

٥ - المتاعب الأُخرى (جدول رقم ١٤)

تتخطّى نسبة المغتربين الذين يعانون من مشكلات أُخرى لم تُذكر آنفًا، نصف مجموع الجالية ٥٦,٩٠٪، وهم مقيمون منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة، في حين تبلغ النسبة ١٧,٢٤٪ لدى المقيمين منذ خمس إلى تسع سنوات، ثمّ تتدنّى لتبلغ عِشر المجموع لدى المقيمين منذ أربعين سنة أو أكثر. والملاحظ أنّ متاعب القادمين الجدد تنحصر في الميدانين الاقتصاديّ والاجتماعيّ، علمًا أنّ ضآلة نسبة المتاعب غير المحدّدة، لدى قدامى المغتربين، تؤكّد مرّة أُخرى إحدى غايات الدراسة، الهادفة لمعرفة ما إذا كان الارتياح النفسيّ والماديّ لدى المغترب، يتناسب ومدّة الإقامة في ديار الاغتراب.

٧- إيلي صفا، المرجع السابق، ص ١٢١.
٨- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٤٨.
٩- أُنظر ص ١٠.

٢ - المشاعر النفسيّة الشخصيّة

١ - القلق على لبنان (جدول رقم ١٥)

يُستدلّ من الاستقصاء أنّ ٣٢٪ من اللبنانيّين المغتربين في ساحل العاج قلقون جدًّا على لبنان، ٤٢٪ منهم يعيشون في حالة وسطى من القلق، في حين أنّ ٢٦٪ غير قلقين على الإطلاق. ممّا يدلّ أنّ لدى ٧٤٪ من أفراد الجالية تخوّف على الوطن، والقدامى منهم كما أسلفنا ليس لديهم أيّة مخاوف.

وبتأمّل العلاقة بين التخوّف ومدّة الإقامة، نستدلّ أنّ ٢٠٪ فقط من مجموع المقيمين منذ أقلّ من خمس سنوات، لا يساورهم أيّ قلق على الوطن؟ تبلغ نسبة عدم التخوّف ٢٢,٥٪ لدى المقيمين في ساحل العاج منذ خمس إلى تسع سنوات، في حين تصل هذه النسبة إلى ٢٨,١٥٪ لدى المقيمين منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة. من الملاحظ إذًا أنّ نسبة القلقين تتدنّى بمقدار طول مدّة الاغتراب، وأنّ نسبة عدم التخوّف تتساوى لدى المقيمين منذ ثلاثين إلى تسع وثلاثين سنة مع نسبتها لدى المقيمين منذ أكثر من أربعين سنة. تُفسَّر هذه الظاهرة بتضاؤل الحنين مع الوقت وتأقلم المغترب مع وضعه الاغترابيّ بنسبة أو بأُخرى؛ فالمغترب الذي يتكيّف مع النظام الاقتصاديّ القائم ويتغلّب على متاعبه الماديّة، يشعر بجدوى وجوده في البلد المضيف، وبالتالي يضع نصب عينيه استمرار تحسين وضعه الماليّ، وتأمين مستقبل أولاده، في الوقت الذي تتراجع فيه فكرة العودة، إلى الوطن التي لازمته طويلاً من دائرة الضوء والهدف، إلى خانة الظلّ والتمنّي.

بينما يختلف وضع الوافدين الجدد اختلافًا كلّيًّا عن وضع هؤلاء. فالوافد الجديد يعيش من دون ضمانات في ظروف اقتصاديّة واجتماعيّة غير مستقرّة. ويصطدم، وهو الهارب من الدمار وفقدان الأمن في بلده، بالمتاعب الماليّة الوثيقة الصلة بالتضخّم العالَميّ، بحيث يفقد تضامن الأقلّيات فعاليّته، ويصبح توافد القادمين بأعداد كبيرة ظاهرة مقلقة.

جدول رقم ١٥: توزّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة وحالة القلق على الوطن الأُمّ.

حالة القلق / مدّة الإقامة	قلق شديد	حالة متوسّطة من القلق	لا قلق	المجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٤٧,٢٧	٣٢,٧٣	٢٠	١٠٠
من ٥ إلى ٩	٣٨,٧٥	٣٨,٧٥	٢٢,٥٠	١٠٠
من ١٠ إلى ٢٩	٢٣,٧٠	٤٨,١٥	٢٨,١٥	١٠٠
من ٣٠ إلى ٣٩	٢٧,٧٨	٣٨,٨٩	٣٣,٣٣	١٠٠
من ٤٠ وما فوق	٢٥,٠٠	٤١,٦٧	٣٣,٣٣	١٠٠
النسبة المئويّة إلى المجموع	٣٢٪	٤٢٪	٢٦٪	١٠٠٪

جدول رقم ١٦: توزّع الجالية وفقًا للمشاعر النفسيّة والسنّ.

المشاعر النفسيّة / السن	توتّر عصبيّ شديد	توتّر عصبيّ متوسّط	توتّر عصبيّ ضعيف	حنين شديد	حنين متوسّط	حنين ضعيف	أسباب نفسيّة أُخرى	النسبة٪ للمجموع
أقل من ١٥ سنة	---	---	---	---	٢,٥٦	---	---	١٪
من ١٥ إلى ١٩	٣,١٣	٤,٩٢	---	٣,٥٧	---	---	٠,٣٤	٣٪
من ٢٠ إلى ٢٤	٢٠,٣١	٩,٨٤	٢٥,٩٣	١٧,٨٦	٢٨,٢١	٢٣,٨١	١,٣٧	١٩٪
من ٢٥ إلى ٢٩	١٩	١٩,٦٧	٢٩,٦٣	٢١,٤٣	٢٥,٦٤	١٩,٠٥	١,٧٢	٢١٪
من ٣٠ إلى ٣٤	١٤,٠٦	١٦,٣٩	١١,١١	١٤,٢٩	١٠,٢٦	١٩,٠٥	٧,١٤	١٣٪
من ٣٥ إلى ٣٩	١٠,٩٤	١٤,٧٥	٢٢,٢٢	١٩,٦٤	٥,١٣	٩,٥٢	٣٧,٥٠	١٤٪
من ٤٠ إلى ٤٤	١٠,٩٤	١١,٤٨	---	---	---	---	٠,٦٩	٩٪
من ٤٥ إلى ٤٩	٣,١٠	٢,٠٧	٧,٤١	---	---	---	---	٩٪
من ٥٠ إلى ٥٤	---	---	---	---	٧,٦٩	٤,٧٦	---	٤٪
٥٥ وما فوق	٢١,٤٣	٩,٣٨	٦,٥٦	٣,٧٠	٥,٣٦	٥,١٣	---	٧٪
النسبة٪ للمجموع	٢٢٪	٢١٪	٩٪	١٩٪	١٣٪	٧٪	٩٪	١٠٠٪

التوتّر العصبيّ والحنين (جدول رقم ١٦)

تتوزّع أعمار اللبنانيّين المقيمين في ساحل العاج، المعنيّين بمعايير هذا الجدول، بالنسب ٤٤٪ لِمَن هم دون سنّ الثلاثين، و٤٥٪ لِمَن هم بين الثلاثين والتاسعة والأربعين، و١١٪ لسن الخمسين أو أكثر.

من الصعب أحيانًا فصل كلمتَي توتّر وحنين في متغيّرة "المشاعر النفسيّة الشخصيّة"، لأنّ بعض المعنيّين بالاستقصاء يعيشون توتّرًا عصبيًّا وحنينًا في آنٍ واحد. غير أنّ النتائج الكاملة تظهر أنّ ٥٢٪ من الجالية في حالة توتّر، وان ٣٩٪ منهم في حالة حنين، في حين أن لدى ٩٪ فقط مشاعر نفسيّة أُخرى.

ويظهر إجمالاً أنّ التوتّر غالب على الحنين بنسبة ٥٢٪ إلى ٣٩٪، ممّا يدلّ على أنّ الرغبة بالعودة إلى الوطن تخلي مكانها تدريجيًّا لنوع من القلق على مصير هذا الوطن. جرّاء الأمان السائد في البلد المضيف[١٠] والحرب التي تعيث دمارًا بلبنان، يتلاشى الحنين من نفس المغترب، وتذوي لديه أيّة رغبة في العودة.

على أنّ مشاعر الأمان هذه ليست مع ذلك عوامل تكامل اجتماعيّ حقيقيّ. لأنّ التكامل لا يمكن له أن يتمّ بين ليلة وضحاها، على الرغم من تطمينات عمدة أبيدجان الجديد: "توجد مجموعات كبيرة من اللبنانيّين في أبيدجان، وصلوا بالآلاف إبّان الاضطرابات في لبنان، ولم نُبدِ أيّ اعتراض على قدومهم، هنا أيضًا تبرز سمة الرئيس بوانيي الإنسانيّة، التي تصدّرت الموقف على رغم بعض الآراء المعارضة. فاللبنانيّون جزء لا يتجزّأ من حياتنا، حتّى أنّنا نسمع العاجيّين يردّدون أنّه عندما تذهبون إلى أيّ قرية ولا تجدون فيها لبنانيًّا، أهربوا منها فهي قرية شرّيرة"[١١].

١٠ - يعود الفضل في توطيد هذا الشعور بالأمان إلى الرئيس بوانيي، الذي أكّد موقفه في مناسبات عدّة، نذكر منها مناسبة ١٩ تشرين الثاني ١٩٨٧، حيث التقى ممثّلي الجالية اللبنانيّة: "... قلت لأبناء بلدي وأكرّر عليكم ما قلت: إرادة الله ساقت إلينا جميع الذين يعيشون هنا من غير العاجيّين. واجبنا المحافظة عليهم، ولسوف نحافظ عليهم"

١١ - "بدافع التقشّف"، مجلّة أفريقيا الفتيّة، العدد ١٣١٩، ١٦ نيسان ١٩٨٦، ص ٣٨.

٣ - التجانس الاجتماعيّ

أ - التعليم والاهتمام بشؤون البلد المضيف (جدول رقم ١٧)

يمثّل المستوى الابتدائيّ ٣٢٪ في أوساط الجالية اللبنانيّة، بينما يمثّل المستوى الثانويّ ٤٩٪ والجامعيّ ١٨٪. أمّا الأُمّيّة فتشكّل واحدًا بالمئة فقط:

لدى تحليل ناحية الاهتمام بأخبار ساحل العاج تبيّن لنا أنّ ٤٨٪ يعيرون هذه الأخبار اهتمامًا بالغًا، في حين أنّ ٤٥٪ منهم يعيرونه اهتمامًا وسطًا، وأنّ ٧٪ فقط لا تعنيهم أخباره على الإطلاق.

وبتفحّص آراء غير المهتمّين بأخبار البلد، نلاحظ أنّ مستوى ٥٢,٣٨٪ منهم ابتدائيّ و٢٣,٨١٪ منهم ذوو مستوى ثانويّ، في حين أنّ نسبة الجامعيّين هي ١٩,٠٥٪ والأُمّيّين ٤,٧٦٪. إنّ إجابات هذه الفئة نابعة على ما يبدو من التكتّم، بل من الرفض القاطع لاتّخاذ أيّ موقف سياسيّ[١٢] أو شخصيّ؛ **فالتكتّم طابع مميّز للمغترب اللبنانيّ:**

"ذلك الرجل ذو الوجه الشاحب الذي يرتاد أسواق أفريقيا السوداء، لبنانيًّا كان أم سوريًّا، لا يرغب في أن يتحدّث عنه الآخرون؛ لقد كان موضع غيبة ونميمة بما فيه الكفاية، وهو على علم بما يقال. لذا، قرّر التكتّم كي ينساه الناس وينصرف إلى العمل الهادئ، بعيدًا عن الأضواء. إنّه إنسان غامض وحذر، تجاه الأوروبيّ، لا الزنجيّ، الذي تجمعه به معرفة متبادلة وشراكة تعود إلى مطلع القرن"[١٣].

١٢ - كتب ناكي بوازو في هذا الصدد: "...في هذا الإطار، يمكننا الاستنتاج أنّ اللبنانيّين في ساحل العاج لا يمارسون رسميًّا أيّ نشاط سياسيّ، غير أنّ دعمهم شبه الرسميّ للحزب الوحيد القائم في البلد "الحزب الديمقراطيّ لساحل العاج"، ليس موضع إنكار أو نفي".

١٣ - رينيه شاربونّو، المرجع السابق، ص ٥٦.

جدول رقم ١٧: توزّع الجالية وفقًا للمستوى التعليميّ والاهتمام بشؤون ساحل العاج.

الاهتمام بأخبار ساحل العاج / المستوى التعليميّ	لا اهتمام	اهتمام وسط	اهتمام شديد	النسبة ٪ للمجموع
ابتدائيّ	٥٢,٣٨	٢٨,٣٦	٣٢,٨٦	٣٢٪
ثانويّ	٢٣,٨١	٥٥,٢٢	٤٦,٤٣	٤٩٪
جامعيّ	١٩,٠٥	١٦,٤٢	١٨,٥٧	١٨٪
أمّيّ	٤,٧٦	---	٢,١٤	١٪
المجموع	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠
النسبة ٪ للمجموع	**٧٪**	**٤٥٪**	**٤٨٪**	**١٠٠,٠٠**

إنّ المهتمّين بأخبار ساحل العاج، يتوزّعون كما يلي ٣٢,٨٦٪ مستواهم ابتدائيّ، ٤٦,٤٣٪ ثانوي، ١٨,٥٧٪ جامعيّون و٢,١٤٪ أمّيّون. هؤلاء يشعرون أنّهم معنيّون مباشرة بشؤون وطنهم الثاني.

نشير أخيرًا إلى أنّه بين ذوي الاهتمام المتوسّط بشؤون ساحل العاج ٢٨,٣٦٪ من المستوى الابتدائيّ، ٥٥,٢٢٪ من المستوى الثانويّ و١٦,٤٢٪ من الجامعيّين.

فالملاحَظ أنّ غالبيّة الجالية اللبنانية (٩٣٪) تهتمّ بشؤون ساحل العاج، وطنها المختار، إذ لا يمكن أن يعمل الإنسان بأمان في ظلّ نظام اقتصاديّ ليبراليّ، ويكون في آنٍ واحد غير مبال بالأخبار والتطوّرات التي تلقي الأضواء بشكل أو بآخر على مستقبل وطنه الثاني، ولا يزال بعض اللبنانيّين يذكرون بمرارة التغييرات السياسيّة التي تركت آثارًا سلبيّة على مصالحهم، في بلدان أفريقيّة أُخرى مثل غينيا ومالي:

"غير أنّهم أُصيبُوا في بعض البلدان بضربة كُبرى، كغينيا ومالي حيث أمّمت الدولة تجارة الجملة، وترافقت الصدمة تصاعديًا مع تدنّي قيمة النقد المحلّي"[١٤].

١٤- رينيه شاربونّو، المرجع السابق، ص ٦٤.

جدول رقم ١٨: توزّع الآراء في موضوع الاغتراب.

تغيير في الرأي	لا تغيير	لا إجابة	المجموع
٣٤,٣	٥٢,٧	١٣	١٠٠٪

هل تغيَّر مفهومك للاغتراب اليوم؟ أُنظر الجدول رقم ١٨.

يعتقد ٥٢,٧٠٪ من أفراد الجالية اللبنانيّة، أنّ شيئًا لم يتبدّل بالنسبة إليهم كمغتربين، فهم مهاجرون يحافظون على تفكيرهم كغرباء وعلى مفهومهم الثابت للاغتراب. لذا تراودهم على الدوام فكرة العودة إلى الوطن.

غير أنّ قسمًا كبيرًا منهم غيّر رأيه في هذا المفهوم (٣٤,٣٪). هؤلاء اعتادوا على حياة المغترَب، وتكيّفوا معها بعيدًا عن مسقط رأسهم، فما لبث أن تبدّد من نفوسهم الشعور بالتأثر النفسيّ جرّاء إقامتهم في البلد المضيف.

ونذكر أنّ الممتنعين عن الإجابة على هذا السؤال يشكّلون ١٣٪. لذا يمكن اعتبارهم في وضع وسطيّ بين تغيير الرأي وعدم تغييره[١٥].

١٥- لو ألزمنا غير المجيبين على اتّخاذ موقف معيّن، ووزّعناهم نسبيًّا على الخانات الأُخرى، لتوصّلنا إلى النتيجة التالية ٣٩,٣٣٪، يغيّرون رأيهم ٦٠,٦٧٪ يحتفظون بتصوّر ثابت عن الاغتراب.

جدول رقم ١٩: توزّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة
والرأي في الحياة الاجتماعيّة للمغتربين

الرأي / مدّة الإقامة	يسود الحياة الاجتماعيّة الشعور بالانتماء إلى الوطن الواحد	الشعور بالانتماء إلى الديانة الواحدة	نزعة سياسيّة واحدة	منطقة الانتماء الجغرافيّ واحدة	العائلة الواحدة	نفس الطبقة الاجتماعيّة	لا رأي	النسبة٪ ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٢٢,٤٣	١٢	٧,١٤	١٣,٨٩	١٩,٢٣	٢٢,٦٤	٣٣,٣٣	٪١٩
٥ - ٩ سنوات	٢٩,٩١	١٢	١٦,٦٧	٢٧,٧٨	١٩,٢٣	٣٥,٨٥	٣٣,٣٣	٪٢٧
١٠ - ٢٩	٣٧,٣٨	٥٦	٦٦,٦٧	٥٠,٠٠	٥٣,٨٥	٣٣,٩٦	٣٣,٣٤	٪٤٤
٣٠ - ٣٩	٦,٥٤	٤	٩,٥٢	٥,٥٦	---	٥,٦٥	---	٪٦
٤٠ أو أكثر	٣,٧٤	١٦	---	٢,٧٧	٧,٦٩	١,٨٩	---	٪٤
المجموع	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**
النسبة٪ للمجموع	**٪٣٧**	**٪٩**	**٪١٤**	**٪١٢**	**٪٩**	**٪١٨**	**٪١**	**٪١٠٠**

٢ - الآراء ووجهات النظر

أ - آراء حول حياة الجالية الاجتماعيّة (جدول رقم ١٩):

يُستدلّ من الاستقصاء إجماع كثير من اللبنانيّين على أنّ طابع البلد الواحد يسود الحياة الاجتماعيّة. يمثّل هؤلاء ٣٧٪ من مجموع الجالية، وهم يعتقدون أنّ مدّة الإقامة تشكّل عنصرًا مهمًّا في هذا المضمار. فالمتعايشون منذ وقت طويل، في مواجهة نفس الأحداث وفي ظلّ قوانين واحدة، هم أقرب إلى التفاهم فيما بينهم، من القادمين الجدد الذين يشكّلون، بحكم علاقاتهم بالوطن، كتلة منفصلة، لا يمكن تحليلها على الفور.

كما تطالعنا وجهات نظر متعدّدة، نذكرها تبعًا لترتيبها التنازليّ:

١٨٪ يعتقدون أنّ الانتماء إلى طبقة واحدة يهيمن على طابع الحياة الاجتماعيّة، في حين أنّ ١٤٪ يعتقدون أنّ النزعات السياسيّة هي المهيمنة ثمّ يأتي القائلون بالانتماء الجغرافيّ الواحد ويمثّلون ١٢٪. ولو صحّ هذا لقلنا إنّ جميع اللبنانيّين في ساحل العاج جماعة واحدة، لأنّهم ينتمون بغالبيّة ٨٣٪ إلى لبنان الجنوبيّ، علمًا أنّ هذه الجماعة الواحدة تتوزّع على عدّة طبقات اجتماعيّة.

ففي حين تتساوى نسبة القائلين بهيمنة الانتماء العائليّ مع نسبة القائلين بهيمنة الانتماء الدينيّ، إذ تبلغ كلّ منهما ٩٪ من مجموع العيّنات البشريّة المعنيّة بالاستقصاء؛ تبلغ نسبة الذين لا رأي لهم في هذا الموضوع ١٪، ومهما تكن آراء اللبنانيّين في حياة مواطنيهم الاجتماعيّة، فإنّ هذه الآراء لا تغيّر الفكرة المكوّنة لدى الغرباء - أفارقة وغيرهم - عن اللبنانيّين في الميدان الاجتماعيّ:

"يؤخذ عليهم أنّهم يكوّنون مجموعة متجانسة يصعب اختراقها"[١٦].

"يُلام اللبنانيّ لقلّة تزاوجه مع الأفارقة. وسواء كان أسود البشرة أو أبيض أو خلاسيًّا، فإنّ اللبنانيّ يعيش في وضع اجتماعيّ غير مريح. يقبل الآخرُون بوجوده على مضض، لكنّهم يدينون فعاليّته ونجاحه، بخاصّة في وقت الأزمات"[١٧].

"ويبقى تأقلم اللبنانيّين الاجتماعيّ هو المشكلة الكُبرى. فالأجيال الأفريقيّة الفتيّة تسلّم على مضض بوجود هذه الجالية التي تأبى الاندماج في أيّ مكان من أفريقيا. حتّى أنّ المشرقيّين المولودين في قارّتنا، يعتبرون أنفسهم من الجنس الأبيض قبل أيّ اعتبار آخر"[١٨].

١٦- جان - كلود بومونتي، المرجع السابق.
١٧- آلان تيرفور، المرجع السابق، ص ٧١.
١٨- غاوسّو كاميسّوكو "ساحل العاج ولبنانيّوها" ص ٣٤.

جدول رقم ٢٠: توزّع الجالية وفقًا لمدّة الإقامة
والرأي في سفارة لبنان في ساحل العاج

الرأي / مدّة الإقامة	مرتاحون لدور السفارة	غير مرتاحين لهذا الدور	ممتنعون عن الإجابة	المجموع	النسبة ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٣٦,٣٦	٥٨,١٨	٥,٤٦	١٠٠,٠	١٩٪
٥ - ٩	٣٧,٥٠	٦٠,٠٠	٢,٥٠	١٠٠,٠	٢٧٪
١٠ - ٢٩	٥١,١٥	٤٦,٥٦	٢,٢٩	١٠٠,٠	٤٤٪
٣٠ - ٣٩	٥٥,٥٦	٣٨,٨٩	٥,٥٥	١٠٠,٠	٦٪
٤٠ أو أكثر	٧٥,٠٠	٢٥,٠٠	---	١٠٠,٠	٤٪
النسبة ٪ للمجموع	**٤٦٪**	**٥١٪**	**٣٪**		**١٠٠,٠**

ب - رأي الجالية في دور سفارة لبنان في ساحل العاج (جدول رقم ٢٠)

أكثر من نصف أفراد الجالية غير مرتاحين لدور السفارة، في حين أنّ المرتاحين لدورها دون النصف، أمّا الممتنعون عن الإدلاء بوجهة نظرهم فيشكّلون نسبة لا تكاد تذكر (٣٪) من أفراد الجالية.

إنّ المقيمين في ساحل العاج منذ أقلّ من خمس سنوات مرتاحون لدور السفارة بنسبة ٣٦,٣٦٪، في حين تبلغ نسبة غير المرتاحين ٥٨,١٨٪، أمّا الممتنعون فنسبتهم ٥,٤٦٪، وتتقارب إلى حدّ بعيد نسب المقيمين منذ مدّة تتجاوز التسع سنوات. فلو نظرنا إلى خانة المقيمين منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة، ثمّ المقيمين منذ ثلاثين إلى تسع وثلاثين سنة، لوجدنا على التوالي: ٥١,١٥٪ و٥٥,٥٦٪ للمرتاحين، في حين نجد ٤٦,٥٦٪ و٣٨,٨٩٪ لغير المرتاحين، على أنّ عدد المرتاحين لدور السفارة بين المقيمين منذ أكثر من أربعين سنة ٧٥٪ يتجاوز إلى حدّ بعيد عدد غير المرتاحين لهذا الدور ٢٥٪.

ولو ربطنا العلاقة بين مدّة الإقامة ورأي الجالية بدور السفارة، لوجدنا أنّ عدد المرتاحين لدورها يتزايد بنسبة مدّة الإقامة. فالقائلون بحسن قيام السفارة بدورها هم في غالبيّتهم من قدامى المغتربين.

يختلف رأي المستائين باختلاف الأجوبة والتعليقات الحرّة[١٩] الصادرة حول هذا السؤال المفتوح. يرى هؤلاء أنّ السفارة لا تعير أيّ اهتمام للصعوبات التي تعترض القادمين الجدد، في حين أنّ السلطات اللبنانيّة في الوطن الأمّ تترك شؤون الاغتراب من دون أيّ إشراف أو تنظيم، فيجد المغترب نفسه وحيدًا يواجه متاعب الاستقرار والتكيّف.

لقد فات هؤلاء أنّ الدولة عاجزة في الوقت الحاضر عن تنظيم حركة الاغتراب، كما أنّها لا تستطيع أن تتصدّى لها، احترامًا لشرعة حقوق الإنسان، التي تبيح للمرء حرّية التنقّل. هنا يتّضح الخلط بين دور إدارة المغتربين ودور السفارة.

كما أنّنا نتساءل عمّا يمكن للسفارة أن تقدّم في هذه المرحلة بالذات، حيث مصير الوطن مهدّد، غير ما تقدّمه من خدمات قنصليّة تؤدّيها، حتّى خارج أوقات الدوام في الحالات الطارئة.

١٩- نورد في هذا السياق رأي السيّد ريشار نصر: "من المتعارف عليه أن يلجأ أيّ مغترب إلى سفارة بلاده لحلّ أيّ مشكلة طارئة تعترضه، لدى مروره أو استقراره في بلد ما. هذا الأمر لا وجود له في ساحل العاج، لسبب يجب تحديده. فالجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم هي التي تقوم بدور الوسيط بين الرعايا اللبنانيّين وسلطات البلد المضيف، في حين أنّ السفارة، في حال اللجوء إليها، تتدخّل ولكن بعد فوات الأوان. ونحن إذ نتمنّى أن تستمرّ الجامعة في معالجة الحالات الاجتماعيّة التي تدخل في إطار نشاطاتها، لا نعرف لماذا يتخلّى ممثّلو السلطات اللبنانيّة عن مهمّاتهم ولا نفقه تجاوز الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم لصلاحيّاتها.

جدول رقم ٢١: توزّع الجالية وفقًا لمدّة الإقامة
والرأي في الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم

الرأي في الجامعة / مدّة الإقامة	دور مُرضٍ	عديم الجدوى	تجب إعادة النظر فيه	ممتنع عن الجواب	المجموع	النسبة ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٣٨,١٨	٢٣,٦٤	٣٦,٣٦	١,٨٢	١٠٠	٪١٩
٥ - ٩	٣٧,٥٠	١٣,٧٥	٤٦,٢٥	٢,٥٠	١٠٠	٪٢٧
١٠ - ٢٩	٣٩,١٠	١٢,٧٨	٤٧,٣٧	٠,٧٥	١٠٠	٪٤٤
٣٠ - ٣٩	٥٠,٠٠	٢٢,٢٢	٢٧,٧٨	---	١٠٠	٪٦
٤٠ سنة أو أكثر	٥٨,٣٤	٢٥,٠٠	٨,٣٣	٨,٣٣	١٠٠	٪٤
النسبة ٪ للمجموع	**٪٤٠**	**٪١٦**	**٪٤٢**	**٪٢**		**٪١٠٠**

ج - رأي الجالية في الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم (جدول رقم ٢١)

تغلب نسبة القائلين بفعاليّة دور الجامعة ونسبة القائلين بضرورة إعادة النظر في هذا الدور، ولو أنّ الفارق بسيط بينهما (٤٢٪ مقابل ٤٠٪)؛ في حين أنّ القائلين بعدم جدوى دورها يمثّلون ١٦٪ فقط من مجموع أفراد الجالية. أمّا الممتنعون عن الإجابة فنسبتهم ضئيلة جدًّا، (٢٪) فقط من المجموع. هذه النتائج تستلزم إعادة النظر في دور هذه المؤسّسة، كي تصبح مؤهّلة للنطق بإسم الجالية وقادرة على حلّ مشكلات الرعايا اللبنانيّين.

ولو أقمنا الصلة بين مدّة الإقامة ورأي المقيمين منذ زمن بعيد (٤٠ سنة أو أكثر) للاحظنا أنّ أكثر من نصف هؤلاء (٥٨,٣٤٪) مرتاحون لدورها.

وبينما يقول ربع أفراد الجالية بعدم جدوى هذا الدور، تتساوى نسبة القائلين بضرورة إعادة النظر فيه بنسبة الذين لم يبدوا أيّ اعتراض، إذ تبلغ ٨,٣٣٪، وهي نسبة ضئيلة قياسًا إلى المجموع.

الارتياح لدورها يتناسب عكسًا مع مدّة الإقامة، ويمثّل على التوالي ٣٨,١٨٪ و٣٧,٥٠٪ بين القادمين الجدد (أقلّ من خمس سنوات، من ٥ إلى ٩ سنوات)، مع

الإشارة إلى أنّ إرضاء جميع الناس أمر يستحيل تحقيقه في الميدان الاجتماعيّ. قد يبدو لبعضهم عدم جدوى دور الجامعة أو ضرورة إعادة النظر فيه، فيما يراه بعضهم الآخر متكاملاً.

جدول رقم ٢٢: توزّع الجالية وفقًا لمدّة الإقامة
والرأي في الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج

الرأي / مدّة الإقامة	جالية حذرة	جالية متعاونة	جالية فرديّة النزعة	جالية وصوليّة	ممتنعون عن الإجابة	النسبة ٪ ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	١٨,٧٥	١٧,٥٤	١٨,١٨	٢٠,٥٩	٥٠	٪١٩
٥ - ٩	٢٧,٠٨	٢٥,٤٤	٣٠,٣٠	٢٠,٥٩	٥٠	٪٢٧
١٠ - ٢٩	٤٥,٨٣	٤٦,٥٠	٣٧,٣٧	٥٨,٨٢	---	٪٤٤
٣٠ - ٣٩	٤,١٧	٥,٢٦	١٠,١٠	---	---	٪٦
٤٠ سنة أو أكثر	٤,١٧	٥,٢٦	٤,٠٥	---	---	٪٤
المجموع	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**
النسبة٪ للمجموع	**٪١٦**	**٪٣٨**	**٪٣٣**	**٪١١**	**٪٢**	**٪١٠٠**

د - رأي المعنيّين بالاستقصاء في وضع الجالية اللبنانيّة (جدول رقم ٢٢)

من الواضح أنّ آراء المعنيّين بالجالية اللبنانيّة نسبيّة. فالمغترب الذي لا صلة تربط بينه وبين أبناء وطنه، يُعامَل تبعًا لتصرّفاته الشخصيّة في المجالين الاقتصاديّ والاجتماعيّ، من دون الأخذ بأيّ معيار آخر.

لهذا السبب يمكن القول إنّ اللبنانيّ إذا وجد المساعدة ليستقرّ، يعطي رأيًا إيجابيًّا، يمتدح فيه أفراد الجالية لتعاونهم معه. في حين أنّه ينعتهم بالفرديّة إن لم يحصل على هذه المساعدة. بعد الاطّلاع على نتائج الاستمارات، تبيّن لنا أنّ ١٦٪ يعتقدون أنّ الجالية اللبنانيّة تعتمد الحذر في تعاملها، وأنّ ٣٨٪ يقدّرون أنّها جالية متعاونة، بينما يعتقد ٣٣٪ بنزعتها الفرديّة و١١٪ بأنّها وصوليّة. أمّا الممتنعون عن الإجابة فيمثّلون ٢٪ فقط.

- الجالية اللبنانيّة حذرة

يمثّل الذين أعطوا هذا الجواب ١٦٪ من الأصوات، ويتوزّعون بالنسب التالية: ١٨,٧٥ منهم مقيمون منذ أقلّ من خمس سنوات في ساحل العاج، ٢٧,٠٨٪ مقيمون منذ خمس إلى تسع سنوات، ٤٥,٨٣٪ تتراوح مدّة إقامتهم بين عشر وتسع وعشرين سنة و٨,٣٤٪ فقط مضى على وجودهم ثلاثون سنة أو أكثر.

- الجالية اللبنانيّة متعاونة

يمثّل أصحاب هذه الإجابة ٣٨٪ من مجموع الأصوات، تتوزّع نسبهم ومدّة إقامتهم على الشكل التالي: ١٧,٥٤٪ منهم قدموا منذ أقلّ من خمس سنوات، ٢٥,٤٤٪ قدموا منذ خمس إلى تسع سنوات، ٤٦,٥٠٪ مقيمون منذ عشر إلى ٢٩ سنة و١٠,٥٢٪ مقيمون منذ ثلاثين سنة أو أكثر.

- الجالية اللبنانيّة فرديّة النزعة

يشكّل الذين أدلوا بهذه الإجابة ٣٣٪ من المعنيّين بهذا السؤال، وهم يتوزّعون على الشكل التالي: ١٨,١٨٪ منهم وافدون جدد (مدّة الإقامة أقلّ من خمس سنوات) ٣٠,٣٠٪ تتراوح مدّة إقامتهم من خمس إلى تسع سنوات، ٣٧,٣٧٪ مقيمون منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة و١٤,١٥٪ مضى على إقامتهم ثلاثون سنة أو أكثر.

- الجالية اللبنانيّة وصوليّة النزعة

يمثّل أصحاب هذا الرأي ١١٪ من مجموع العيّنات المعنيّة بهذا السؤال، وهم موزّعون كالتالي بالنسب: ٢٠,٥٩٪ لم يمضِ على وجودهم خمس سنوات، ٢٠,٥٩٪ مقيمون منذ خمس إلى تسع سنوات، في حين لم يردنا أيّ جواب من الذين يقيمون منذ ثلاثين سنة أو أكثر.

- ممتنعون عن الإجابة

نسبة هؤلاء ضعيفة جدًّا تمثّل ٢٪ فقط، وهم ينقسمون إلى مجموعتين متساويتين، تمثّل الأولى منهما المقيمين منذ أقلّ من خمس سنوات، بينما تشمل الأخرى المقيمين منذ

خمس إلى تسع سنوات. والملاحظ أنّ عدم الإجابة صادر فقط عن القادمين الجدد، لأنّ هؤلاء لم تُتَح لهم بعد فرصة الحكم على أفراد الجالية، نظرًا لقصر مدّة إقامتهم.

جدول رقم ٢٣: توزّع المستخدمين تبعًا لمدّة الإقامة ورأيهم في أرباب العمل

الرأي / مدّة الإقامة	أرباب عمل أسخياء	أرباب عمل طيّبون	أرباب عمل متشدّدون	النسبة ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٥,٥٦	٣٥,٧١	٢٣,٥٣	٢٥,٩٧٪
٥ - ٩	٣٣,٣٣	٢١,٤٣	٢٩,٤١	٢٥,٩٧٪
١٠ - ٢٩	٦١,١١	٣٥,٧١	٤١,١٨	٤٢,٨٦٪
٣٠ أو أكثر	---	٧,١٥	٥,٨٨	٥,٢٠٪
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠٪
النسبة٪ للمجموع	**٢٣,٣٨**	**٥٤,٥٤**	**٢٢,٠٨**	١٠٠٪

هـ - رأي المستخدمين بأرباب العمل (جدول رقم ٢٣)

ترتفع نسبة المستخدمين القائلين بطيبة ربّ العمل (٥٤,٥٤٪).

بينما تبلغ (٢٣,٣٨٪) للقائلين بسخائه، وتتدنّى إلى ٢٢,٠٨٪ للقائلين بتشدّده.

إذًا تتدنّى كثيرًا نسبة القائلين بتشدّد أرباب العمل عنها لدى العاملين عند أرباب عمل طيّبين أو أسخياء (نسبة ٧٧,٩٢٪ مقابل ٢٢,٩٨٪) ويفسّر ارتفاع نسبة المرتاحين لربّ العمل كون هذا عمًّا أو ابن عمّ أو مواطنًا ينتمي والمستخدم إلى قرية واحدة. ولو تأمّلنا في نتائج هذا الاستقصاء قياسًا إلى مدد الإقامة، لتبيّنّا أنّ نسبة القائلين بالتشدّد تتدنّى إلى ٥,٨٨٪ للمقيمين في ساحل العاج منذ ثلاثين سنة أو أكثر؛ ومردّ هذه الظاهرة إلى أنّ المستخدمين يألفون الحياة مع ربّ العمل، إذا لم يتوصّلوا بعد سنوات طويلة من الاستخدام، إلى تأسيس مشروع خاصّ بهم. نشير هنا إلى أنّ ٤١,١٨٪ من الأشخاص المقيمين منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة قد أدلوا برأي مماثل، في حين تبلغ نسبة المقيمين منذ خمس إلى تسع سنوات، والقائلين بالرأي نفسه ٢٩,٤١٪. أمّا نسبة القائلين

بالتشدّد بين الذين لم يمضِ على إقامتهم خمس سنوات فتبلغ ٢٣,٥٣٪. من السهل تعليل موقف هؤلاء القادمين الجدد وقد فرّوا من الحرب، بحثًا عن الرفاه الأُسطوريّ الذي وشّى أخبار قدامى المغتربين، ليصطدموا بواقعٍ مختلف تمامًا عمّا سمعوه، ويجابهوا المتاعب الناجمة عن التضخّم العالميّ، التي تحدُّ من فرص تحقيق الأحلام المرجوّة.

جدول رقم ٢٤: توزّع ذوي الطلاّب تبعًا لمشاكل أولادهم في المدارس

الصعوبات	النسبة المئويّة
الصعوبات الفكريّة	٣٪
الصعوبات الاجتماعيّة	٧٪
صعوبات أُخرى	٢٪
لا صعوبات	٨٨٪
المجموع:	**١٠٠٪**

و - رأي ذوي الطلاّب بمشكلات أولادهم المدرسيّة (جدول رقم ٢٤)

يرى غالبيّة المغتربين (٨٨٪) أنّ أولادهم لا يعانون من مشاكل خاصّة في مدارسهم؛ على أنّ ٣٪ منهم يشكون من صعوبات ثقافيّة، في حين يرى ٧٪ منهم أنّ أولادهم يعانون من صعوبات اجتماعيّة، أمّا الذين يشكون من صعوبات لم تذكر آنفًا فنسبتهم ٢٪ فقط.

هذه النتائج تشير إلى وجود بوادر تكيّف اجتماعيّ على مستوى الأجيال اللبنانيّة الجديدة؛ فالطلاّب المتحدّرون من أُسرٍ لبنانيّة، مستقرّةٍ في ساحل العاج منذ أمدٍ طويل، ليسوا هدفًا لأيّ تمييز اجتماعيّ أو عرقيّ. لذا نتوقّع أن تحمل السنوات المقبلة معطيات جديدة تؤدّي إلى تكامل اجتماعيّ، قد يؤدّي بدوره إلى تغيير في هيكليّة الجالية.

وفي هذا السياق كتب ناكي بوازو عام ١٩٨٣: "إنّ شباب الجيل اللبنانيّ الجديد، أكثر ثقافة وأقلّ حذرًا تجاه التماثل والتكامل الاجتماعيّ من آبائهم، يختلف سلوكهم عن سلوك ذويهم وهم أكثر قابليّة للتأثّر بعالَمٍ يتغيّر. لذا لا نلمس لديهم هذا التعصّب الدينيّ والنزوع المتطرّف إلى التزاوج ضمن الطائفة والعائلة الواحدة، الذي كان ولا يزال يجاهر به كبارهم.

إنّ ٩٠٪ من الأزواج والزوجات الشرعيّين (تزاوج لبنانيّ - عاجيّ) الذين التقيناهم هم من الشباب. وهم كما لاحظنا منفتحون يتكلّمون الفرنسيّة بصورة أفضل من ذويهم، كما أنّهم متحلّلون من عقدة اللقاءات مع العاجيّين لمناقشة الموضوعات التي تهمّ أجيالهم".

جدول رقم ٢٥: توزّع الجالية تبعًا للمهنة وانتماء الأصدقاء الجغرافي

انتماء الأصدقاء الجغرافيّ / المهنة	لبنانيّ	عاجيّ	أوروبيّ	أفريقيّ غير عاجيّ	جنسيّات أُخرى	النسبة ٪ للمجموع
تاجر	٦٠,٧٦	٧٠,٥٨	٧١,٤٣	١٠٠,٠	٣٦,٣٦	٦٠٪
صناعيّ	٢,٩٥	---	---	---	٩,٠٩	٣٪
مزارع	---	٥,٨٨	---	---	---	٠٪
مقاول بناء	٠,٨٤	---	---	---	---	١٪
تاجر نقل	٢,١٢	٥,٨٨	٧,١٤	---	---	٢٪
بدون مهنة	٩,٢٨	٥,٨٨	٧,١٤	---	٩,٠٩	١٠٪
مهن أُخرى	٢٤,٠٥	١١,٧٨	١٤,٢٩	---	٤٥,٤٥	٢٤٪
المجموع	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**	**١٠٠,٠**
النسبة ٪ للمجموع	**٨١٪**	**٥٪**	**٥٪**	**٤٪**	**٥٪**	**١٠٠,٠**

٣ - المهنة والانتماء الجغرافيّ للأصدقاء جدول رقم ٢٥

بصورة إجماليّة متينة هي روابط اللبنانيّين فيما بينهم، وتتميّز بشكل ملحوظ عن علاقاتهم برعايا البلدان الأُخرى، إذ تمثّل لديهم نسبة ٨١٪ من مجموع صداقاتهم.

تتساوى نسب علاقات الصداقة بين اللبنانيّين والعاجيّين من جهة وبينهم وبين الأوروبيّين من جهة ثانية، إذ تمثّل ٥٪. أمّا علاقات اللبنانيّين بالأفارقة غير العاجيّين وعلاقاتهم برعايا البلدان الأُخرى، فتكاد تتساوى، إذ هي على التوالي ٤٪ و٥٪. جدير بالذكر أنّ روابط الصداقة بين اللبنانيّين ورعايا الدول الأُخرى تقوى وتضعف تبعًا للعلاقات التجاريّة. إذ تبلغ نسبة التجّار بين العاجيّين المرتبطين بصداقات مع اللبنانيّين ٧٠,٥٨٪، في حين تبلغ هذه النسبة ٧١,٤٣٪ بين الأوروبيّين و١٠٠٪ مع الأفارقة غير العاجيّين.

أمّا اللبنانيّون المعنيّون بالاستقصاء، فتتوزّع نسب روابط الصداقة بينهم وبين مواطنيهم، على النحو التالي:

٦٠,٧٦٪ منهم تجّار، ٢,٩٥٪ صناعيّون، ٢,١٢٪ تجّار نقل، ٩,٢٨٪ عاطِلون عن العمل و٢٤,٠٥٪ يمارسون مهنًا لم تذكر في هذا الجدول، عِلمًا أنّ تمثيل المزارعين ومتعهّدي البناء يكاد لا يذكر (٠,٨٤٪).

إنّ النتائج المذكورة أعلاه تؤكّد الرأي القائل بانطوائيّة الجالية اللبنانيّة، التي تشكّل مجموعة بشريّة تعيش بمعزل عن المجتمع العاجيّ. ولمّا كانت التجارة هي المعيار المميّز لعلاقة اللبنانيّين بالسكّان الأصليّين، **فلا يسعنا إلاّ التسليم بأنّ التماثل الاجتماعيّ لا يتمّ على خطّ موازٍ مع التكامل الاقتصاديّ.** فاللبنانيّون في الواقع غرباء، يعيشون فيما بينهم ويرتبطون بالآخرين ضمن إطار العمل وأُسلوبهم في التعامل أحاديّ الجانب. كما أنّ الصداقة الحقّة التي تنشأ بين الشبّان العاجيّين واللبنانيّين على مقاعد الدراسة، يمكن لها أن تتلاشى مع الزمن لأكثر من سبب.

"إذا كان الفتيان اللبنانيّون والعاجيّون ينشئون روابط وثيقة، فإنّ اللبنانيّ، ينصرف بمساعدة ذويه إلى أعماله التي تزدهر وتستغرق كلّ وقته وتفكيره، فتتضاءل بالتالي لقاءاته مع صديقه العاجيّ، كما لا يلبث أن يقترن بفتاة لبنانيّة فينقطع بالتالي عن صديق طفولته العاجيّ بصورة نهائيّة"[٢٠].

٤ - الوضع الاقتصاديّ (جدول رقم ٢٦)

إنّ هذا الجزء من الفصل السابع سوف يعطينا صورة تقريبيّة عن ظروف معيشة اللبنانيّين في ساحل العاج.

١ - الوضع الاقتصاديّ الشخصيّ

غاية هذا التحليل معرفة نسبة القائلين بتحسّن وضعهم الاقتصاديّ والماليّ في المغترَب.

٢٠- ناكي بوازو، المرجع السابق، ص ٨٢.

على السؤال المطروح: هل تشعرون بأنّ وضعكم الماليّ هنا هو أفضل، مماثل أو أسوأ ممّا كان في لبنان؟

صرّح ٤٣٪ من المعنيّين بالسؤال بأنّ وضعهم الحاليّ أفضل ممّا كان عليه في لبنان، بينما أجاب ٣١٪ منهم بأنّ وضعهم مماثل. وشكا ١٦٪ من تدنّيه هنا.

تضمّ الشريحة الأخيرة بعض التجّار ومالكي الأبنية في لبنان، الذين شاء سوء حظّهم أن تكون ممتلكاتهم في ساحة المعارك، ليخسروا كلّ شيء، وليبدأوا عملهم هنا من نقطة الصفر.

جدير بالذكر أنّنا قمنا باستقصائنا في وقتٍ كان فيه ساحل العاج، ككلّ بلدان العالَم، يمرّ بأزمة اقتصاديّة أدّت إلى انخفاض عامّ في نشاطات منشآته الاقتصاديّة.

جدول رقم ٢٦: توزّع الجالية تبعًا للمهنة والوضع الاقتصاديّ الحاليّ، بالمقارنة مع الوضع السابق في لبنان

الوضع الاقتصاديّ الحاليّ / المهنة	وضع ماليّ أفضل	وضع مماثل	وضع أقلّ جودة	لا إجابة	المجموع	النسبة ٪ للمجموع
تاجر	٥١,٤٦	٢٨,٦٥	١٠,٥٣	٩,٣٦	١٠٠	٦٠٪
صناعيّ	٢٥	٣٧,٥٠	٢٥	١٢,٥٠	١٠٠	٣٪
مزارع	---	١٠٠	---	---	١٠٠	٠٪
مقاول بناء	٥٠	٥٠	---	---	١٠٠	١٪
تاجر نقل	٢٨,٥٧	٥٧,١٤	---	١٤,٢٩	١٠٠	٢٪
عاطل عن العمل	٣١,٨٢	٢٧,٢٧	٢٧,٢٧	١٣,٦٧	١٠٠	١٠٪
مهن أُخرى	٢٨,٣٦	٣٤,٣٣	٢٦,٨٧	١٠,٤٥	١٠٠	٢٤٪
النسبة ٪ إلى المجموع	**٤٣٪**	**٣١٪**	**١٦٪**	**١٠٪**		**١٠٠**

إنّ تحليل كلّ نشاط اقتصاديّ على حدة، يؤدّي إلى نتائج أكثر وضوحًا عن النشاط الاقتصاديّ الفرديّ.

فيما يصرّح ١٠,٥٣٪ من التجّار المعنيّين أنّ وضعهم الاقتصاديّ قد تدهور، يمتنع ٩,٣٦٪ منهم عن الإجابة، في حين يرى ٥١,٤٦٪ أنّ وضعهم قد تحسّن و٢٨,٦٥٪ يقولون بأنّ وضعهم الآن مماثل لما كان عليه في لبنان.

أمّا الصناعيّون المعنيّون فتتوزّع إجاباتهم على النحو التالي: ٢٥٪ منهم يرون أنّ وضعهم قد تحسّن هنا، ويرى ٣٧,٥٠٪ أنّ وضعهم مماثل لما كان عليه في لبنان، بينما يؤكّد ٢٥٪ بأنّ وضعهم قد تدنّى، وامتنع ١٢,٥٪ عن الإجابة. فيما يختصّ بمقاولي البناء، تتساوى نسبة القائلين بتحسّن وضعهم الماليّ عنه في لبنان بنسبة القائلين بالتماثل حيث تبلغ ٥٠٪ لكلّ منهما. ولم يرَ أحد منهم أنّ وضعه الماليّ قد تدهور.

نأتي الآن إلى تجّار النقل، فنجد أنّ ٢٨,٥٧٪ منهم قد تحسّن وضعهم الماليّ، بينما بقي ٥٧,١٤٪ في وضع مماثل، كما نلاحظ أنّه لا أثر للقائلين بتدهور وضعهم الاقتصاديّ في هذا الميدان. أمّا العاطلون عن العمل في لبنان فيرى ٢٧,٢٧٪ منهم أنّ وضعهم قد تدهور، ويرى عددًا مماثلاً منهم أنّ وضعهم لا يزال كما كان عليه في لبنان، فيما يقول ٣١,٨٢٪ بأنّ وضعهم الماليّ قد تحسّن. في ميدان النشاطات غير المذكورة آنفًا، يرى ٢٦,٨٧٪ من المعنيّين أنّ وضعهم الآن قد تدنّى و منهم الأشخاص الذين فرّوا من الحرب مخلّفين وراءهم عملاً مجزيًا.

الجدول رقم ٢٧: توزّع الجالية تبعًا للمهنة في لبنان ثمّ في ساحل العاج

المهنة التي كان يمارسها المستفتى في لبنان	المهنة التي مارسها لدى وصوله
تاجر: ٥٪	تاجر: ٦٠٪
مزارع: ٤٪	مزارع: ٠٪
صناعيّ: ٢٪	صناعيّ: ٣٪
حرفي: ٣٪	مقاول بناء: ١٪
مستخدَم: ٨٪	تاجر نقل: ٢٪
عامل: ٣٪	عامل: ٠٪
بدون مهنة: ٥٠٪	بدون مهنة: ١٠٪
مهن أُخرى: ٢٥٪	مهن أُخرى: ٢٤٪
المجموع: ١٠٠٪	**المجموع: ١٠٠٪**

الملاحظ أنّ ٥٠ ٪ من المغتربين المعنيّين كانوا عاطلين عن العمل يوم نزحوا عن لبنان، انخرط ٩٠٪ منهم لدى وصولهم إلى ساحل العاج بنشاطٍ اقتصاديّ يمارسونه، فبقي منهم ١٠٪ فقط من دون عمل (جدول رقم ٢٧). حتّى تاريخ الاستقصاء كان لا يزال ١٩٪ من الوافدين عاطلين عن العمل، هؤلاء في غالبيّتهم (٦٨,٩٧٪) كانوا دون عمل في لبنان، بينما كان منهم ٣,٤٥٪ مزارعين، ٣,٤٥٪ حرفيّين، ٣,٤٥٪ عمّالاً و٢٠,٦٨٪ يمارسون نشاطات أُخرى (جدول رقم ٢٨). إنّنا نلاحظ تحسّنًا ملموسًا طرأ على ظروف معيشة الغالبيّة الساحقة (٩٠٪) من العاطلين عن العمل الذين غادروا لبنان، فلم يبقَ منهم سوى ١٠٪ عاطلين عن العمل.

جدول رقم ٢٨: توزّع الجالية تبعًا للمهنة في الوطن الأمّ والمهنة في البلد المضيف (ساحل العاج).

المهنة في ساحل العاج / المهنة في لبنان	تاجر	صناعيّ	مزارع	مقاول بناء	تاجر نقل	عاطل عن العمل	نشاطات أُخرى	النسبة ٪ للمجموع
تاجر	٩٣,٣٣ ٧,٨٢	---	---	---	---	---	٦,٦٧ ٠,٣٩	١٠٠٪ ٥٪
مزارع	٩٠,٩١ ٥,٥٩	---	---	---	---	٩,٠٩ ٣,٤٥	---	١٠٠ / ٤٪
صناعيّ	٨٣,٣٣ ٢,٧٩	١٦,٦٧ ١٢,٥٠	---	---	---	---	---	١٠٠ / ٢٪
حرفيّ	٨٧,٥٠ ٣,٩١	---	---	---	---	١٢,٥٠ ٣,٤٥	---	١٠٠ ٣٪
مستخدم	٦٥,٢٢ ٨,٣٨	---	---	٨,٧٠ ١٠٠	---	---	٢٦,٠٨ ٨,٣٣	١٠٠ ٨٪
عامل	٦٢,٥٠ ٢,٧٩	---		---	١٢,٥٠ ١٤,٢٩	١٢,٥٠ ٣,٤٥	١٢,٥٠ ١,٣٩	١٠٠ ٣٪
عاطل عن العمل	٥٩,٣٣ ٤٩,٧٣	١,٣٣ ٢٥	٠,٦٧ ١٠٠		٣,٣٣ ٧١,٤٣	١٣,٣٣ ٦٨,٩٧	٢٢,٠١ ٤٥,٨٣	١٠٠ ٥٠٪
نشاطات أُخرى	٤٤,١٦ ١٨,٩٩	٦,٤٩ ٦٢,٥٠			١,٣٠ ١٤,٢٨	٧,٧٩ ٢٠,٦٨	٤٠,٢٦ ٤٤,٠٦	١٠٠ / ٢٥٪
المجموع	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**	**١٠٠**
النسبة ٪ للمجموع	٦٠٪	٣٪	٠٪	١٪	٢٪	١٠٪	٢٤٪	١٠٠٪

٢ - النشاط الاقتصاديّ ومستوى العمل (جدول رقم ٢٨)

على الصعيد المهنيّ، يمارس حاليًّا ٦٠٪ من أفراد الجالية المعنيّين، التجارة في ساحل العاج. مهما يكن باعث الهجرة من لبنان والمهنة التي كان يمارسها اللبنانيّ في الوطن الأمّ، فإنّ ٩٠٪ من اللبنانيّين المهاجرين إلى ساحل العاج قد وُفِّقوا بإيجاد عمل يرضيهم.

والملاحظ أنّ ٩٣,٣٣٪ من الذين كانوا يمارسون التجارة في لبنان قد زاولوا هذا النشاط في ساحل العاج، بينما انصرف ٦,٦٧٪ منهم إلى نشاطات أُخرى.

كما يتبيّن أنّ ٩٠,٩١٪ ممّن كانوا مزارعين في لبنان قد أصبحوا تجّارًا في ساحل العاج، فيما بقي ٩,٠٩ منهم عاطلين عن العمل.

أمّا العاملون في قطاع الصناعة في لبنان، فقد تحوّل ٨٣,٣٣٪ منهم إلى التجارة في ساحل العاج وزاول ١٦,٦٧٪ مهنتهم السابقة.

بالنسبة للحرفيّين، أصبح ٨٧,٥٠٪ منهم في ساحل العاج تجّارًا، بينما بقي ١٢,٥٠٪ منهم عاطلين عن العمل.

فيما يختصّ بالمستخدمين السابقين في لبنان، انصرف ٦٥,٢٢٪ منهم إلى النشاط التجاري في ساحل العاج، في حين أصبح ٨,٧٠٪ مقاولي بناء و٢٦,٠٨٪ انصرفوا إلى نشاطات أُخرى. كما أنّ ٦٢,٥٠٪ من الذين كانوا عمّالاً في لبنان قد تعاطوا التجارة في ساحل العاج، فأصبح ١٢,٥٠ منهم تجّار نقل، وبقي ١٢,٥٠٪ منهم عاطلين عن العمل.

نشير أخيرًا إلى أنّ العاطلين عن العمل، توزّعوا في ساحل العاج على عدّة نشاطات، منها التجارة وقد مارسها ٥٩,٣٣٪ من هؤلاء، بينما عمل ١,٣٣٪ في الصناعة و٣,٣٣٪ في تجارة النقل، فبقي ١٣,٣٣٪ منهم فقط عاطلين عن العمل. **يستدلّ من هذه النتائج أنّ ٨٦,٦٧٪ من العاطلين عن العمل في لبنان قد حقّقوا تحسّنًا ملموسًا في وضعهم المهنيّ، ممّا يجعل من ساحل العاج بلد الاغتراب اللبنانيّ بلا منازع، حيث يستطيع اللبنانيّ أن يعمل ويحقّق النجاح بحرّيّة تامّة في ظلّ نظام اقتصاديّ ليبراليّ.**

جدول رقم ٢٩: توزّع التجار العاملين لحسابهم الخاصّ تبعًا لمدّة الإقامة وعدد المستخدمين لديهم.

عدد المستخدمين / مدّة الإقامة	١ - ٥	٦ - ١٠	١١ - ١٥	١٦ - ٢٠	٢١ - ٢٥	٢٦ - ٣٠	٣١ - ٣٥	٣٦ وأكثر	النسبة ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٢٠,١٨	٦,٢٥	٢٠	---	---	---	---	---	٪١٩
٥ - ٩ سنوات	٣٣,٩٤	١٥,٦٣	٢٠	٢٥,٠٠	---	---	---	١٦,٦٧	٪٢٧
١٠ - ٢٩ سنة	٣٣,٩٤	٦٥,٦٠	٦٠	٦٢,٥٠	١٠٠	٥٠	---	٥٠,٠٠	٪٤٤
٣٠ - ٣٩ سنة	٩,١٧	٩,٣٨	---	---	---	٢٥	١٠٠	٣٣,٣٣	٪٦
٤٠ أو أكثر	٢,٧٧	٣,١٤	---	١٢,٥٠	---	٢٥	---	---	٪٤
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
النسبة ٪ للمجموع	٪٦٣	٪١٩	٪٦	٪٥	٪١	٪٢	٪١	٪٣	٪١٠٠

توزّع التجّار العاملين لحسابهم تبعًا لمدّة الإقامة وعدد مستخدميهم (جدول رقم ٢٩)

يعمل ٩٠٪ من التجّار اللبنانيّين في ساحل العاج لحسابهم الخاصّ، وهم يتوزّعون حسب النسب التالية:

يعمل لدى ٦٣٪ منهم من مستخدَم واحد إلى خمسة، كما يعمل لدى ١٩٪ منهم ستّة إلى عشرة مستخدمين، في حين يستخدم ١٨٪ أكثر من عشرة أشخاص.

نلاحظ هنا أنّ الأقدميّة هي المعيار المحدّد لازدياد عدد المستخدمين. إنّ ٢٠٪ من التجّار الذين يستخدمون من أحد عشر إلى خمسة عشر أجيرًا يقيمون في ساحل العاج منذ أقلّ من خمس سنوات و٢٠٪ منذ خمس إلى تسع سنوات، بينما ٦٠٪ منهم مقيمون منذ عشر إلى تسع وعشرين سنة. أمّا الذين يعمل لديهم عدد من المستخدمين يتراوح بين ستّة عشر إلى عشرين مستخدمًا، فيتوزّعون كالتالي: ٢٥٪ منهم مقيمون منذ أقلّ من عشر سنوات و٧٥٪ مضى على إقامتهم أكثر من عشر سنوات.

بصورة إجماليّة، ترتبط أهميّة الملكيّة التجاريّة ومقدار الثروة الشخصيّة بمدّة إقامة التاجر في مغتربَه بمعنى أنّ مستوى المؤسّسة التجاريّة ومقدار الثروة يضطردان بمرور الوقت.

جدول رقم ٣٠: توزّع المستأجرين تبعًا لعدد حجرات المنزل ومدّة الإقامة.

عدد الغرف المستأجرة / مدّة الإقامة	غرفة	غرفتان	ثلاث	أربع	خمس	ست	سبع	ثماني	تسع	غير مستأجِر	النسبة ٪ للمجموع
أقلّ من ٥ سنوات	٢٢,٢٢	٣٦,٣٦	١٧,٥٣	٩,٠٩	٦,٩٠	---	---	---	---	٢٧,٤٢	٪١٩
٥ - ٩ سنوات	٢٢,٢٢	٢٤,٢٤	٣٠,٩٣	٢٧,٢٧	٢٠,٦٩	٣٣,٣٣	---	٥٠,٠٠	---	٢٥,٨٠	٪٢٧
١٠ - ٢٩ سنوات	٤٤,٤٤	٣٣,٣٤	٤١,٢٤	٥٦,٣٦	٥٥,١٧	٥٠,٠٠	١٠٠	٥٠,٠٠	٥٠,٠٠	٣٧,١٠	٪٤٤
٣٠ - ٣٩ سنوات	---	٣,٠٣	٦,١٨	٧,٢٨	١٠,٣٤	١٦,٦٧	---	---	٥٠,٠٠	٣,٢٣	٪٦
٤٠ سنة أو أكثر	١١,١٢	٣,٠٣	٤,١٢	---	٦,٩٠	---	---	---	---	٦,٤٥	٪٤
المجموع	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠
النسبة ٪ للمجموع	٪٣	٪١١	٪٣٢	٪١٨	٪١٠	٪٢	٪٢	٪١	٪١	٪٢٠	٪١٠٠

٣ - الملكيّة (جدول رقم ٣٠)

إنّ عدد حجرات المنزل المستأجَر أو الممتلَك وعدد المستخدمين لدى التاجر يسمحان بتحديد حجم ملكيّة التاجر ومكانته الاقتصاديّة.

من الملاحظ أنّ ٨٠٪ من منازل المغتربين مستأجرة: ٣٪ منها ذات غرفة واحدة، ١١٪ ذات غرفتين، ٣٢٪ مؤلّفة من ثلاث غرف، في حين أنّ ١٨٪ تحتوي على أربع غرف و١٦٪ على أكثر من أربع غرف.

هناك إذن ٦٦٪ من أفراد الجالية يستأجرون منازل مؤلّفة من ثلاث إلى تسع غرف. كما يبدو واضحًا أنّ مدّة الإقامة هي عامل مهم في تحديد حجم الملكيّة. إنّ ٢٢,٢٢٪ من المغتربين منذ أقلّ من خمس سنوات، يعيشون في منازل ذات غرفة واحدة، كذلك يُستدلّ أنّ ٥٥,٥٦٪ من المغتربين يقيمون في ساحل العاج منذ عشر سنوات أو أكثر. أمّا المقيمون في منازل مؤلّفة من غرفتين، فمنهم ٣٦,٣٦٪ قدموا منذ أقلّ من خمس سنوات و٢٤,٢٤٪ منذ خمس إلى تسع سنوات، بينما يقيم ٣٩,٤٠٪ منهم منذ عشر سنوات أو أكثر في ساحل العاج.

بالنسبة إلى القاطنين في منازل من ثلاث غرف، وَفَد ١٧,٥٣٪ منهم إلى ساحل العاج منذ أقلّ من خمس سنوات، في حين يقيم فيه ٣٠,٩٣٪ منهم منذ خمس إلى تسع سنوات و ٥١,٥٤٪ منذ عشر سنوات أو أكثر.

والجدير بالذكر أيضًا أنّ غالبيّة المقيمين منذ عشر سنوات أو أكثر يعيشون في بحبوحة، وهذا يؤشّر إلى أنّ مستوى المعيشة وحجم الملكيّة يتطوّران بنسبة ازدياد مدّة الإقامة.

فيَصِحُّ القول بأنّ الارتياح الماديّ الذي ينعم به المغترب يتناسب طردًا مع مدّة إقامته.

وهو قول مبنيّ على المشاهدة، وقد تحقّق وتأكّد من خلال هذا البحث الميداني.

بيان منضّد لتوزع الجالية وتكوين العيّنة البشريّة (أنظر الصفحة المقابلة)

الرقم المتسلسل	الحيّ أو المدينة	النسبة ٪ المقدّرة	تقدير العدد الإجماليّ تبعًا للحيّ		عدد الأفراد المعنيّين ١٥ سنة و+ ٦٤,٨٪	عدد العائلات على قاعدة ٥ أفراد للعائلة	مجموع العيّنات البشريّة	
			العدد	النسبة ٪ المشتركة			عدد العيّنات المستفتاة	عدد الأجوبة المعطاة
١	أبوبو - غار	١٠,٣	٤,٩٤٤	٨,٢٤	٣,٢٠٤	٦٤٠	٣٢	٢٥
٢	أدجاميه	١٤,٤	٦,٩١٢	١١,٥٢	٤,٤٧٩	٨٩٦	٤٥	٣٤
٣	تريشفيل	١٢,٤	٥,٩٥٢	٩,٩٢	٣,٨٥٧	٧٧١	٣٩	٣٠
٤	كوكودي	٤,٦	٢,٢٠٨	٣,٦٨	١,٤٣١	٢٨٦	١٤	١١
٥	بلاتو	٩,٥	٤,٦٥٠	٧,٦٠	٢,٩٥٥	٥٩١	٣٠	٢٣
٦	يوبوغون	١٤,٠	٦,٧٢٠	١١,٢٠	٤,٣٥٤	٨٧١	٤٤	٣٤
٧	ماركوري	١١,٣	٥,٤٢٤	٩,٠٤	٣,٥١٥	٧٠٣	٣٥	٢٧
٨	كوماسي	٩,٣	٤,٤٦٤	٧,٤٤	٢,٨٩٢	٥٧٨	٢٩	٢٢
٩	مناطق أخرى	١٤,٢	٦,٨١٦	١١,٣٦	٤,٤١٧	٨٨٤	٤٤	٣٤
	أبيدجان المجموع	١٠٠	٤٨,٠٠٠	٨٠,٠٠	٣١,١٠٤	٦,٢٢١	٣١٢	٢٤٠
١٠	بوافليه	٤٠,٠	٤,٨٠٠	٨,٠٠	٣,١١٠	٦٢٣	٣١	٢٤
١١	غنوا	٣٠,٠	٣,٦٠٠	٦,٠٠	٢,٣٣٢	٤٦٧	٢٣	١٨
١٢	دالوا	١٠,٠	١,٢٠٠	٢,٠٠	٧٧٨	١٥٥	٨	٦
١٣	ديفو	١٠,٠	١,٢٠٠	٢,٠٠	٧٧٨	١٥٥	٨	٦
١٤	مدن أخرى	١٠,٠	١,٢٠٠	٢,٠٠	٧٧٨	١٥٥	٨	٦
	المدن الداخلية المجموع	١٠٠	١٢,٠٠٠	٢٠,٠٠	٧,٧٧٦	١,٥٥٥	٧٨	٦٠
	مجموع الجالية	---	٦٠,٠٠٠	١٠٠	٣٨,٨٨٠	٧,٧٧٦	٣٩٠	٣٠٠
ملاحظة: وفق البيان المفصّل أعلاه، يعيش ٢٠٪ من اللبنانيّين في مدن الداخل علمًا أن أبيدجان هي مدينة التجارة بلا منازع، وأنّ أكثر من ٧٠٪ من اللبنانيّين يمارسون النشاط التجاري.							نسبة الاستقصاء ٪٥	نسبة الاجابات ٪٣,٨٥

الفصل الثامن

خلاصة البحث النظريّ والاستقصاء الميدانيّ

سوف نسعى في هذا الفصل لإعطاء صورة تقريبيّة للجالية اللبنانيّة في ساحل العاج كي نخلص إلى الاستنتاجات العامّة المتوخّاة من هذه الدراسة، ونعمد إلى صياغة مُقترحاتنا الآيلة على ما نفترض، إلى تحسين وضع المغتربين المعيشيّ. لذا، سنقسم هذا الفصل إلى موضوعات ثلاثة:

١ - وضع اللبنانيّين في ساحل العاج

غايتنا من هذا الباب إجمال النتائج وإعطاء صورة عن المغترِب، تنبع من أُسس الدراسة النظريّة والاستقصاء الميدانيّ.

سوف نعالج الموضوع من خلال النقطتين التاليتين: أسباب الاغتراب لمعرفة المستوى الاجتماعيّ - الاقتصاديّ للمغترب، ثمّ ظروف المعيشة أي المصاعب التي يواجهها والفوائد التي يجنيها في البلد المضيف.

أ - أسباب الاغتراب

إنّ الفقر والظلم الاجتماعيّ وعجز النظام السياسيّ والحرب الأهليّة التي تعيث دمارًا في لبنان، بالإضافة إلى تسهيلات الدخول والاستقرار في البلد المضيف، قد حدت باللبنانيّين إلى الاغتراب، سعيًا وراء الرزق والأمان والامتيازات الاقتصاديّة، فما لبث عددهم أن تكاثر نتيجة وجود إخوة لهم أو أبناء عمّ أو أصدقاء سبقوهم إلى بلد الاغتراب.

بغضّ النظر عن سنيّ الحرب العشر الأخيرة وما نتج عنها من شتات لبنانيّ... فالاغتراب هو من ثوابت التاريخ اللبنانيّ، كما هو ميدان مُجْدٍ للاستثمار. عند اللبنانيّ ميلٌ فطريّ للتجارة بلغ بدافعه أطراف العالَم، فأغنى الأدب اللبنانيّ بالكثير من حكايات النجاح الباهر. غير أنّ هذا لن يحيد بنا عن جوهر المشكلة القائمة ويحجب عنّا رؤية واقع الاغتراب

اللبنانيّ الذي اختلف اليوم عنه في الماضي بتعدّد أسبابه ودوافعه: من اقتصاديّة واجتماعيّة كما أسلفنا، إضافة إلى الرغبة بالهرب من محيط ضاغط، جعل إرادة الرحيل تنتصر على الروابط العائليّة والتعلّق بأرض الأجداد.

لأنّه ما أن تهدأ المجابهات الطائفيّة حتّى تتجدّد وبصورة أعنف، يذكيها تباعدٌ اجتماعيٌّ صارخٌ وظلمٌ مستشرٍ.

إنّ جذور الاغتراب اللبنانيّ المعاصر ترجع إلى العام ١٨٦٣، حين أبحر أوّل مغترب[1] لبنانيّ من الموجة الجديدة إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، فتدفّق السيل الاغترابيّ بعده، ليتوزّع من هناك على أميركا الجنوبيّة وبعدها على أفريقيا، إثر تطبيق إجراءات صارمة للحدّ من دخول المهاجرين إلى الولايات المتحدة. ففي مرسيليا، محطّة الرحيل الأولى حين يُبلَّغ اللبنانيّ رفض السلطات الأميركيّة دخوله بلادها، كان يستجيب بسهولة لإغراءات وكالات السفر البحريّة، ويقصد أفريقيا الغربيّة، خصوصًا السنغال كي لا يخيّب آمال ذويه، إذ أنّه في بداية هذا القرن، كان اللبنانيّ إذا اعتزم السفر، يبيع أو يرهن أرضًا يملكها أو حتّى يستدين ثمن الناولون[2] واعدًا بسداده لدى عودته إلى الوطن الأمّ.

"لا تشكّل العودة إلى الوطن هاجسًا للمغترب طالما أنّه يجد عملاً. فالأثرياء يعلمون أنّهم لن يجدوا هناك مجالات يوظّفون فيها أموالهم والفقراء يقدّرون أنّه ليس بوسعهم تحمّل المهانة بالعودة إلى الوطن صفر اليدين"[3].

يترك اليوم كُثرٌ من اللبنانيّين أرضهم مخلّفين أملاكًا تدرّ الأرباح وتجارةً مزدهرةً أو مركزًا مرموقًا، هربًا من الحرب الطاحنة، فيحاولون الاستقرار في العاصمة أو المناطق الداخليّة حيث تبدو لهم الفرص مؤاتية للعيش الآمن، على غرار مواطنيهم الذين اغتربوا سابقًا لدوافع أُخرى، اقتصاديّة أو عائليّة: "هم شبّان لا يملكون في الغالب أيّة مصادر دخل، فهم يبحثون عن عمل موقّت. إنّهم اللبنانيّون - السوريّون في ساحل العاج الذين بدأوا

١- طانيوس البشعلاني.
٢- تذكرة السفر.
٣- شاربونّو، المرجع السابق، ص ٦٢.

عملهم في أقاصي الأدغال، فارتادوا الأماكن النائية، يشترون ويبيعون القليل من كلّ ما يباع ويشترى.

معظمهم مستخدمون في التجارة كتجّار محاصيل أو خلافه. لقد توصّلوا بعد مدّة وجيزة من انخراطهم في العمل إلى الاستقرار والعمل لحسابهم الخاصّ، وباتوا يملكون الحوانيت في المدينة. إنّ مدنًا عدّة في ساحل العاج الأوسط والمنخفض، مثل دالوا وأغبوفيل وغران بسام، كانت تضمّ عام ١٩٣٠، جالياتٍ صغيرة من اللبنانيّين، يختلط سكّانها مع الأوروبيّين أو يعملون مع الوكالات التجاريّة في مناطق معزولة، قبالة القرى الأفريقيّة. بدافع من مشاعر التضامن وتأثير النداءات المتتالية، جُمع شمل العائلات اللبنانيّة عبر موجات اغترابيّة متلاحقة على أرض ساحل العاج، على الرغم من صدور تشريعات تفرض شروطًا قاسية على الهجرة، منها المرسوم الصادر في ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٥، ثمّ المرسومان الصادران في ٥ آذار وفي ٢٦ تموز ١٩٢٧.. كلّ شيء يبدأ بعمّ أو ابن عمّ... يترك وطنه بهدف البحث عن عمل..."[4].

ب - ظروف المعيشة (الصعوبات والمنافع)

هذه الدراسة ما هي إلاّ عرض لتاريخ المغترب اللبنانيّ وموقعه الحاليّ، وهي تشير إلى وجود فئات ثلاث من المغتربين:

- غالبيّة تعيش في ظروف غير مريحة.
- أقليّة ميسورة الحال مستقرّة منذ زمن بعيد.
- فئة القادمين الجدد المكوّنة من الذين يعيشون في ظروف متنوّعة.

١ - المغترب المنتمي إلى الأغلبيّة غير الميسورة

يأتي هذا المغترب الطّموح إلى بلد غريب عنه بقصد تحسين وضعه الاقتصاديّ والأمنيّ وارتقاء سلّم النجاح، لذا يتحمّل جميع المتاعب: سوء المناخ الاستوائيّ، عدم وجود مصادر ماليّة، ثمّ صعوبة البحث عن عمل ولو قليل الأهمّية، فيما هو يقيم لدى أحد

٤- آلان تيرفور، "اللبنانيّ المنتج أو غير المحبوب".

أقاربه أو معارفه. إنّه يقوم بمغامرة لا تخلو من المتاعب والمحاذير، فيتوصّل بعد لأي إلى افتتاح متجر لحسابه الخاصّ، إثر مدّة استخدام قد تطول وقد تقصر، ثمّ ينتقل إلى مدينة أُخرى ويموّن دكّانه بالسلع لدى ربّ عمله السابق، وقد يتوصّل للحصول على تسهيلات تجاريّة معيّنة أو قروض ائتمان مصرفيّة بضمانة ربّ العمل المذكور. على أنّ المصاعب تلازمه بدءًا من منافسة مواطنيه، إلى هاجس إيجاد منزل يستقدم إليه عائلته التي تبعث إليه الرسالة تلو الأُخرى، مبدية رغبتها الملحّة بالنزوح عن لبنان الذي تنهكه الحرب الشرسة والشروخ الاجتماعيّة الناتجة عنها. المطلوب أن يكون المنزل قريبًا من مكان العمل، تحاشيًا لمصارفات النقل، وأن يكون بدل الإيجار معتدلاً. وليس لقضيّة الغذاء أيّة أهمّية، إذ إنّ موادّ المطبخ اللبنانيّ متوافرة في جميع المتاجر. والتعليم مؤمّن للأولاد، باللغة الفرنسيّة في كلّ معاهد التعليم الخاصّ.

ينصرف المغترب بعد تأمين الحاجات الأساسيّة لأُسرته، إلى العمل دون كللٍ، حتّى أيّام الآحاد والأعياد. أيًّا كانت الظروف، فهو يثابر على عمله، واضعًا نصب عينيه كهدف، العودة إلى الوطن الأُمّ أو النجاح في المغترَب وهذا أضعف الإيمان.

إنّ الاستبسال في العمل هو الطريق الوحيد للثأر من الفقر وتحقيق الثروة المرجوّة.

لقد عانى هذا المغترب الكثير قبل أن ينعم بالرفاه والسعة، لقد حرم نفسه من الاستمتاع بأوقات الفراغ كما عاش على هامش المجتمع في بلده المختار. فقيل بأنّه مطبوع على الحذر ووُصِم بالانطوائيّة. إنّ الروابط التي تربط اللبنانيّين فيما بينهم كانت متينة في بدايات سنيّ الهجرة، لأنّ المنتمين إلى قرية واحدة كانوا يقطنون في حيّ واحد ويتخالطون باستمرار، قبل أن يتفرّقوا في أنحاء البلاد.

٢ - المغترب المنتمي إلى أقلّية قديمة وثريّة

يستمرّ المغترب في عمله فيتحسّن وضعه الماليّ بمرور الزمن ، وتتّسع دائرة علاقاته الاجتماعيّة. فتصبح عطلة الأحد والانتساب إلى الأندية الرياضيّة وارتياد المطاعم، أُمورًا متاحة بالإضافة إلى الرحلات الترفيهيّة إلى أوروبا والوطن الأُمّ. غير أنّه يكابد المشقّات لمدّةٍ طويلة قبل أن يصل إلى هذه المرحلة. يعيش في ظروف تميّزه عن غالبيّة القادمين الجدد،

وتوثّق انتماءه إلى أقليّة ميسورة الحال انتصرت على كلّ المصاعب الاقتصاديّة وخفّفت من وطأة عدم التكيّف الاجتماعيّ والثقافيّ. قد يكون في الوضع المأساويّ للوطن الأمّ[٥]، وعدم التأقلم الثقافيّ في البلد المضيف[٦]، من الأسباب التي تجعل مستقبل المغترب معضلة يصعب حلّها. الواقع أنّ الوضع المؤسف في لبنان الذي كان إلى عهد قريب (سويسرا الشرق) والذي يشبه اليوم أتونًا يبتلع البشر والحجر، قد جعل أفراد هذه الطبقة الثريّة يتخلّون عن هاجس العودة النهائيّة إلى الوطن. فهم يشعرون أنّهم محكومون بالبقاء في بلادٍ يشكّلون جزءًا من تاريخها الحديث، كما أنّ استثماراتهم الماليّة تربطهم بهذه الأرض لمدّة جيلين أو ثلاثة أجيال على الأقلّ، عكس غالبيّة الوافدين الذين ينتظرون عودة السلام ليعودوا إلى الوطن الأُمّ.

هذه الظروف المختلفة تفسّر إلى حدّ ما التباعد الاجتماعيّ القائم بين أفراد الجالية اللبنانيّة: "ضمن عالَم صغير مغلق، وفي ظلّ تقاليد عائليّة في جوهرها، ينشأ التباعد الاجتماعيّ الكبير من جهة بين العائلات القديمة، التي تمتلك الأطيان في أبيدجان، وترى أنّ ساحل العاج هو موطنها المختار وبين القادمين الجدد من جهة أخرى، الفارّين من ويلات الحرب تحدوهم رغبة صادقة بالعودة إلى لبنان، والعيش الآمن فيه.

فالمغتربون الأوائل مستقرّون، وهم يوظّفون الأموال حيث يقيمون؛ فالإحصاءات تشير إلى تملّك اللبنانيّين نصف مباني وعقارات جادّة (بلاتو) في قلب العاصمة أبيدجان. بينما تغلب ذهنيّة اللاجئين على القادمين الجدد. على العموم بوسع لبنانيّي ساحل العاج أن يشاركوا عند الاقتضاء، في إعادة إعمار بلدهم"[٧].

٣ - القادمون الجدد المنتمون إلى إحدى الطبقتين السالف ذكرهما

لا يندرج القادمون الجدد ضمن أيّ تصنيف عامّ. فالكثيرون منهم ينتمون إلى أُسرٍ ميسورة في الوطن الأُمّ، ولم يغتربوا لدوافع اقتصاديّة، بل هم على العكس خلّفوا في لبنان

٥- هذا الوضع يطفئ كلّ أمل بالعودة إلى الوطن.

٦- لا يمكن للمغترب اللبنانيّ أن يحظى بالمواطنيّة الكاملة بسبب اختلاف اللون والثقافة والتقاليد.

٧- جان كلود بومونتي، مصدر سابق.

أملاكًا لا تعوَّض، هربًا من الحرب بين الاخوة الأعداء، بينما نزح آخرون تاركين مدارسهم، كي لا ينخرطوا في صفوف المليشيات التي تجتذب غالبًا عنصر الشباب، لأسباب عدّة منها إيديولوجيّة أو وطنيّة أو طائفيّة أو حتّى ماديّة. لا يلبث بعض المغتربين من هذه الفئة ان يوفقوا بعمل مجزٍ نتيجة مثابرتهم أو مساعدة أقاربهم، في حين يعجز آخرون عن إيجاد عمل منتج على الرغم من سعيهم الحثيث. فلا يلبثوا أن ينتقلوا إلى بلد آخر لعلّ الحظ يحالفهم.

٢ - الخلاصة

نذكر، بعد عرض هذه الدراسة بجانبيها المتمثّلين بالأُسس النظريّة والاستقصاء الميدانيّ، إلى أنّ العيّنة المعتمدة في الاستقصاء تشكّل نسبة تمثيليّة كافية (٥٪) لإعطاء معلومات معبِّرة عن معظم نشاطات اللبنانيّين في ساحل العاج.

كما يستدلُّ من هذه الدراسة أنّ لبنان يفتقر إلى دوائر التوجيه والإعلام المختصّة ببلدان الاغتراب. فيُترك المدّ الاغترابيّ على غاربه في غياب أُطر مسؤولة تحدُّ من تدفّقه، وتقنع المواطنين بالبقاء في أرضهم، أو على الأقلّ تُوجِّههم نحو مواقع أفضل.

يستفيد اللبنانيّون في ساحل العاج، من سياسة الترحيب بالغرباء كافّة التي تسهّل استقرارهم، ومن النظام الاقتصاديّ الحرّ الذي يشجّع المبادرة الفرديّة. ولأنّه ليس بين البلدين أيّ برتوكول للتعاون، فإنّ العلاقات بين الشعبين تسير باتّجاه واحد، من لبنان إلى ساحل العاج.

إنّ مجيء اللبنانيّين إلى ساحل العاج يعود أصلاً إلى تطلّعات طبقة اجتماعيّة غير ميسورة الحال، ترغب في تحقيق الثروة والارتقاء في السلّم الاجتماعيّ. نذكّر أنّ ٣٣٪ من المغتربين وفدوا لأسباب اقتصاديّة و٣٠٪ لأسباب عائليّة، في حين بلغت نسبة الهاربين من الحرب ١٦٪.

من الملاحظ أيضًا أنّ إقامة المغترب لا تخلو من حالات إحباط، تخفّ حدّتها بتقدّم العمر، وطول الإقامة، والمساعدة المقدّمة من الأقارب والأصحاب.

فالوافدون الجدد يصادفون كثيرًا من الصعوبات، في حين أنَّ قدامى المغتربين أكثر ارتياحًا وثراء. إلاّ أنَّ هذه المصاعب بغضّ النظر عن مدّة الإقامة، ليست بحدّ ذاتها سببًا لقطع علاقة المغترب بماضيه، بل هي من باب أولى مدخل لصورة مستقبل أفضل. إنّ اللبنانيّ يعتاد بعد طول اغتراب أُسلوب الحياة الغربيّة من دون أن يتأقلم بها كلّيًا.

في الواقع يعيش اللبنانيّ على هامش المجتمع الاغترابيّ، على الرغم من تمثّله التامّ لعمليّة التكامل الاقتصاديّ، وارتقائه مراكز مرموقة في ميدان الأعمال. كما أفاد بعضهم من حسنات مرحلة ما قبل الاستقلال، ومن السياسة الاقتصاديّة الحاليّة، المفتوحة أمام الاستثمارات الغربية. ويبدو جليًا أنّ استثمارات اللبنانيّين أفادت ساحل العاج بقدر ما أفادتهم، إنْ في مجال الصناعة أو البناء أو تجارة الجملة والمفرّق.

على أنّ اللبنانيّين قلقون إجمالاً على مصير الوطن الأُمّ، على الرغم من تمتّعهم بحياة أفضل في ساحل العاج، قَصُرَت مدّة إقامتهم أم طالت، لأنّ الاغتراب إلى أفريقيا ليس غاية نهائيّة من حيث المبدأ، مع أن عددًا كبيرًا منهم عاش وتوفّي في مغتربه.

بعد أن عرضنا أسباب الاغتراب وظروفه، سنقدّم وصفًا مقتضبًا لبنيتهم:

تتدنّى نسبة النساء في الجالية اللبنانيّة إلى ٢٦٪ مقابل ٧٤٪ للرجال، شأنها في ذلك شأن كلّ الجاليات الأُخرى، علمًا أنّ ٧٠٪ من هذه الجالية هم من المسلمين الشيعة، وهو وضع مماثل لمعظم الجاليات اللبنانيّة في أفريقيا الغربيّة.

لم نرَ فائدة لدراستنا في المقارنة بين اللبنانيّين في ساحل العاج وبقيّة الجاليات من أوروبيّة وأفريقيّة، بسبب التباين الجوهريّ في طبيعة أسباب الاغتراب، والظروف المعيشيّة لهذه الجماعات، فلم نتطرّق لهذا الموضوع.

إنّ اللبنانيّين في ساحل العاج ينقسمون إلى فئتين:

الأولى: تتكوّن من قدامى المغتربين الذين تباعدت صِلاتهم بالوطن الأمّ، وهم بالتالي قلّما يتأثّرون بالنزاعات الإيديولوجيّة والطائفيّة والسياسيّة الدائرة هناك؛ ومع ذلك فهم ينتظرون عودة السلام ليعودوا إلى مسقط رأسهم.

والثانية: تتكوّن من القادمين في مطلع السبعينات، الذين هم أشدّ قلقًا على مصير الوطن، لأنّهم معنيّون مباشرة بالوضع السائد فيه.

أخيرًا، إذا كانت أسباب الاغتراب القاهرة تدفع باللبنانيّين اليوم إلى ترك أرضهم والرحيل نحو آفاق أرحم بهم، وإذا ما تحوّل الاغتراب الموقّت إلى اغتراب دائم، فلا غنى لشطر لبنان المقيم عن شطره المغترب، والعكس بالعكس.

فالمغتربون توّاقون إلى هويّتهم الثقافيّة المميّزة، وإلى مواطنيّتهم مع ما يترتّب عليها من واجبات وحقوق. كما أنّ المقيمين ليسوا بغنى عن دعم المغتربين الماديّ، هذا الدعم الذي يعدّل ميزانيّة الكثير من العائلات، ويشكّل بابًا للفرج في أوقات الأزمات.

٣ - مقترحاتنا لتحسين الوضع

فيما يلي نقترح بعض الحلول الآيلة إلى حلّ مشكلات المغتربين أو على الأقلّ للتخفيف من حدّتها، يحدونا إلى ذلك شعور بالقلق من موجة النزوح الكثيف عن الوطن؛ علمًا، بأنّ هذه المقترحات مرتبطة نسبيًّا بالنظام السياسيّ والاقتصاديّ للبلدين المعنيّين: لبنان وساحل العاج، كما تتعلّق بالمغتربين أنفسهم، الذين يجب أن ينسّقوا جهودهم لما فيه مصلحة الجالية عامّة وبنوع خاصّ مصلحة القادمين الجدد. فالمطلوب إعطاء الأولويّة لإبرام اتفاقيّات تجاريّة ثنائيّة بين البلدين، يتناسب حجمها وحاجات كلّ من الطرفين في قطاعي الاستيراد والتصدير.

كما يُستحسن خلق كوادر تنسيق بين مختلف الميادين الاجتماعيّة والثقافيّة لتنظيم دورات رياضيّة ورحلات سياحيّة وثقافيّة إلى كلّ من البلدين، ليقوم أساس صالِح ومتين يدعم العلاقات الاقتصاديّة التي لا تكفي وحدها لتوثيق عرى الصداقة بين الشعبين.

كما أنّه من المفيد تنظيم مؤتمرات اغترابيّة وحلقات نقاش وحوار، يديرها اختصاصيّون في هذا الحقل، بهدف تهيئة الرأي العامّ لتواصل ثقافيّ وحضاريّ يكون سندًا داعمًا للعلاقات الدبلوماسيّة القائمة.

من المفيد أيضاً تعزيز دور المؤسّسات اللبنانيّة الفاعلة كالجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في

العالَم وغيرها، لجمع التراث اللبنانيّ وحفظه في البلد المضيف، وتوزيع نشرات دوريّة للتعريف بدورة الاقتصاد والاعمال المؤدّية إلى نجاح مواطنينا في مجال الاستثمارات، بصورة لا تضرّ بمصالِح السكّان الأصليّين الذين نطلعهم على مساهمة اللبنانيّ في اقتصادهم ومدى احترامه لقوانين بلادهم.

يبقى أنّ أفضل الحلول هو العمل على تقليص عدد المهاجرين، بمعالجة الأسباب التي تغذّي هذا النزف الاغترابي، الذي ينذر بإفراغ لبنان مع الوقت من طاقاته البشريّة المنتجة، الضروريّة لبقائه وتطوّره.

هناك مقترحات مهمّة أُخرى، ارتأينا أن لا نذكرها، لأنّها لا تُجدي في غياب سلام دائم وعادل في لبنان. لقد عرضنا بعضًا من المقترحات على أمل دراستها ومراجعتها من قِبَل الدوائر المعنيّة، وهذا يتوقّف على سير الأحداث في الوطن الأُمّ ومدى استعداد البلد المضيف لتمثّلها والاقتناع بجدواها.

لمحة عن الواقع السياسيّ والديمغرافيّ الحاليّ (٢٠٠٥) لساحل العاج[١]

بعد صدور الطبعة الفرنسية لهذه الدراسة عام ١٩٨٦ توالت أحداث سياسيّة وعوامل اقتصاديّة أحدثت تغييرًا جذريًّا في واقع ساحل العاج وبنيته الإقتصاديّة ممّا أثّر سلبًا على الوجود اللبنانيّ فيه، بحيث انخفض عدد الجالية اللبنانيّة بشكل ملحوظ، مع احتفاظ نسبة غير قليلة منهم بمواقعهم الإقتصاديّة والماليّة المتقدّمة، لأنّهم لم يجدوا غضاضة في الإنحناء لعاصفة المتغيّرات، ما يؤكّد قدرة اللبنانيّ المدهشة على التكيّف مع مختلف المستجدّات التي تطرأ على البلد المضيف، والذي يجده رغم الصعوبات التي تصادفه فيه أرأف به من وطنه الأمّ.

انقضى إذن برحيل الرئيس هوفويه بوانيي العصر الذهبيّ الذي تفيّأته الجالية اللبنانيّة طوال أربعة عقود، فتدنّت حرارة الاحتفاء بالوجود اللبنانيّ، وتعرّض للمدّ والجزر. فتارةً يُنوّه بإسهامه الإيجابيّ في النموّ الاقتصاديّ لساحل العاج، وطورًا يتعرّض للنقد والتجريح والاتهام بالفساد والإفساد.

بعد وفاة فيليكس هوفويه بوانيي (رئيس جمهورية ساحل العاج منذ استقلالها عن فرنسا عام ١٩٦٠) في ٧ كانون الأوّل عام ١٩٩٣، اعتلى سدّة الرئاسة هنري كونان بيدييه رئيس الجمعيّة الوطنيّة بموجب المادّة الحادية عشرة من الدستور الذي كان معمولاً به آنذاك. استمرّ الرئيس بيدييه في منصبه بعد فوزه بالانتخابات الرئاسيّة التي أجريت عام ١٩٩٥، ممّا يعني أنّ الحكم بقي في قبضة الحزب الديمقراطيّ العاجيّ (PDCI) من دون انقطاع من سنة ١٩٦٠ إلى أواخر عام ١٩٩٩، حين برزت مسألة تركت أثرها في السياسة والمجتمع العاجيّ، تمحورت حول شخصيّة سياسيّة مهمّة هي آلاسان واتارا الذي شغل منصب رئيس الوزراء في السنوات الثلاثة الأخيرة من عهد الرئيس هوفويه بوانيي. وقد حاول واتارا بعد وفاة الأخير تعطيل تطبيق المادّة الدستوريّة التي تنصّ على إسناد رئاسة الجمهوريّة الى رئيس الجمعيّة الوطنيّة، مدعوماً في ذلك من بعض حلفائه السياسيين. أمّا

(١) من مقابلة مع فؤاد سلامه، عضو الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم – فرع أبيدجان.

الأكثرية، إضافة إلى رئيس أركان الجيش الجنرال روبير غيي، فقد نادوا باحترام الدستور ودعموا الرئيس بيدييه في محاولته إبعاد واتارا الطامح إلى الرئاسة خلافاً للدستور. فصدر قانون انتخابيّ جديد يمنع واتارا من الترشّح للرئاسة عام ١٩٩٥ بسبب أصوله غير العاجيّة، وحصل حينها اتفاق بين الرئيس بيدييه وبين واتارا قضى بأن يصرف الأخير النظر عن الترشّح للرئاسة ليلتحق بعمله في واشنطن كمساعد لمدير عامّ مؤسّسة النقد الدوليّة.

في عهد الرئيس بيدييه الجديد الذي تلى المدّة الرئاسيّة الإنتقاليّة، اتّخذت الأمور منحىً تصعيديًّا خطيرًا، فخرجت من حيّز التنافس السياسيّ، إذ تفاعلت شعبيًّا قضيّة منع واتارا من الترشّح للرئاسة لأسباب أتنيّة، فظهر شعار الهويّة العاجيّة (Ivoirité)، وتوتّر الجوّ السياسيّ لسنوات عدّة. في هذه الأثناء قاد واتارا حملة داخليّة وخارجيّة، مفادها أنّ القيّمين على الأمور في البلاد يضطهدون المسلمين العاجيين وغير العاجيين، فيسيؤون معاملتهم ويسلّطون عليهم قوّات الأمن الداخليّ. فمن تصعيد إلى آخر، قامت فرقة من ذوي الرتب الدنيا في الجيش بمحاولة انقلابيّة ناجحة في ٢٢ كانون الأوّل عام ١٩٩٩، أطاحت بالرئيس بيدييه. فاعتلى سدّة الرئاسة الجنرال روبير غيي، رئيس الأركان السابق، الذي كان بيدييه قد عزله بتهمة عدم الولاء.

شكّل الرئيس الجديد "لجنة الإنقاذ الوطنيّ"، غلّب فيها بادىء الأمر عدد أنصار حزب التجمّع الجمهوريّ (Rassemblement des Républicains) الذي يرأسه واتارا، فاعترض على ذلك زعيم حزب الجبهة الشعبيّة (Front Populaire Ivoirien) المعارض القديم لوران غباغبو، فعدّل الرئيس روبير غيي الحكومة لإرضاء غباغبو.

إستمرّ الجنرال روبير غيي رئيسًا للبلاد حتى شهر تشرين الأوّل من عام ٢٠٠٠، حين جرت انتخابات رئاسيّة فاز فيها الرئيس الحاليّ للبلاد لوران غباغبو بعدما رفضت المحكمة العاجيّة العليا ترشيح الرئيس الأسبق كونان بيدييه لنقص في ملفّ الترشيح. وكذلك رفضت ترشيح آلاسان واتارا للشكّ في صحّة جنسيّته العاجيّة بحسب الدستور الجديد الذي أقرّ في عهد الرئيس غيي، وتنصّ المادّة الخامسة والثلاثين فيه على الشروط المطلوب توفّرها في المرشحين للرئاسة والنيابة. فقاطع حزب التجمّع الجمهوريّ الإنتخابات النيابيّة، واستقرّت الأمور إلى أن قامت عشيّة الثامن عشر من شهر أيلول عام

٢٠٠٢ محاولة انقلابيّة، ضدّ الرئيس غباغبو خلال وجوده في زيارة رسميّة إلى إيطاليا. بعد اشتباكات دامية، دحرت قوّات الجيش العاجيّ المتمرّدين من قوات الأمن الداخلي في أبيدجان فانكفأ هؤلاء إلى شمال البلاد وسيطروا عليه وفيه بواكيه (Bouaké) ثاني أكبر مدن ساحل العاج بعد أبيدجان. وما زالوا يتمركزون هناك وفي مدينة مان (Man) المحاذية لحدود دولة ليبيريا الواقعة غرب ساحل العاج. انشطرت بذلك البلاد إلى قسمين: قسم تحت أمرة الانقلابيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "الحركة الوطنيّة في ساحل العاج" وعلى ميليشياتهم اسم "القوّات الجديدة" وهم يزعمون السيطرة على ٦٠٪ من مساحة البلاد. أمّا القسم الثاني وفيه العاصمة الاقتصاديّة أبيدجان والسياسيّة ياموسوكرو ومدينة سان بدرو الساحلية وأقاليم جنوب وغرب وشرق البلاد، فبقي تحت سيطرة الحكومة الشرعيّة.

عاد الرئيس غباغبو من إيطاليا بعد يومين من المحاولة الانقلابيّة، فتوصّل بعد أيّام من المفاوضات إلى تحقيق وقف لإطلاق النار بين الطرفين بمساعدة الأمم المتحدة والمنظّمة الاقتصاديّة لدول غرب أفريقيا (CEDEAO)) والقوّات الفرنسيّة (Licorne) المتمركزة في أبيدجان منذ استقلال البلاد عام ١٩٦٠ .

جرت مفاوضات طوال ثلاث سنوات في لومي عاصمة جمهوريّة توغو، وفي ماركوسي إحدى ضواحي العاصمة الفرنسية، وفي أكرا عاصمة جمهوريّة غانا المجاورة لساحل العاج، وفي بريتوريا في جنوب أفريقيا تحت قيادة رئيس جمهوريّة جنوب أفريقيا تابو مبيكي بتكليف من الاتحاد الأفريقيّ والأمم المتحدة، فتمّ التوصّل سنة ٢٠٠٤ إلى اتفاق بين الأطراف المتنازعة، يقضي بأن يطبّق الرئيس غباغبو المادّة الثامنة والأربعين من الدستور العاجيّ، التي تمنحه أوسع الصلاحيّات في الحالات الإستثنائيّة الخطيرة لنزع سلاح المتمرّدين وسلاح المليشيات التابعة للدولة بغية إعادة توحيد البلاد وعودة كلّ الإدارات العامّة إلى السلطة الرسميّة، مع وجوب إجراء انتخابات رئاسيّة حرّة ونزيهة في شهر تشرين الأوّل من عام ٢٠٠٥، يترشّح لها من يرغب في ذلك، وتعديل قوانيين وإقرار أخرى تتعلّق بالأراضي الزراعيّة ومستثمريها، والجنسيّة العاجية للمقيمين في ساحل العاج منذ ما قبل الاستقلال، والمتحدّرين منهم من الأفارقة الذين تعود أصولهم إلى دول الجوار.

وقد أعلن الرئيس غباغبو في أوائل شهر آذار عام ٢٠٠٥ عن إجراء انتخابات حرّة. فبدأت المساعي لنزع السلاح غير الرسميّ تحت إشراف قوّات الأمم المتحدة على أمل أن يعمّ الهدوء فتشهد البلاد ازدهارًا افتقدته منذ رحيل الرئيس فيليكس هوفويه بوانيي الذي سُمِّيت أبيدجان في عهده "باريس الصغيرة".

من الناحية الديمغرافيّة يبلغ عدد سكّان ساحل العاج حاليًا ستّة عشر مليون نسمة منهم: أحد عشر مليون عاجيّ، وخمسة ملايين أجنبيّ بينهم ثلاثة ملايين نسمة من بوركينا فاسو (فولتا العليا سابقًا)، ويتكوّن الباقي من رعايا الدول المجاورة لساحل العاج مثل غينيا، وغانا وليبيريا والسينغال ونيجيريا والنيجر وبنين والتوغو. بعد ترحيل ثمانية آلاف نسَمة من الجالية الفرنسيّة سنة ٢٠٠٤، شهد ساحل العاج حال عنف ونهب وإحراق لبعض المصانع الفرنسيّة والمنازل ومحلاّت يملكها فرنسيّون ولبنانيّون. يبلغ عدد أفراد الجالية الفرنسيّة حاليًّا سبعة آلاف نسَمة، فيما الجاليات الأخرى من أوروبيّة وأميركيّة وآسيويّة وشمال أفريقيّة لا تتجاوز أعدادها المئات. أمّا الجالية اللبنانيّة فيناهز عددها الخمسة والستين ألف نسَمة.

الجداول والفهارس

مراجع البحث المحلّلة

توفّر لدينا خلال البحث بيان بعدد قليل من المصادر، حيث المعلومات ضئيلة ومشتّتة. إنّ غاية موضوعنا لم تكن رؤية الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج ككيان مترابط، فهذه غاية صعبة المنال، لأنّ اللبنانيّ ينجح كفرد، غير أنّه مغرِق في التكتّم والتفرّد وسط الجماعة، حيث يفقد الكثير من حماسه وبراعته. أمام هذا الواقع،وجدنا أنّه علينا المثابرة لنمهّد الطريق لدراسات مستقبليّة تتناول مكانة اللبنانيّ في مغترَبه.

من المصادر والمراجع الرئيسيّة التي اعتمدناها:

المصادر:

١ - الأرشيف الوطنيّ لساحل العاج، وينقسم إلى:

- المحفوظات القديمة وتتضمّن المعلومات والبطاقات التي تؤرّخ للهجرة منذ بدايتها وحتّى عام ١٩٢٥.
- محفوظات وزارة الداخليّة من العام ١٩٢٥ حتّى أيّامنا؛ علمًا بأنّ المعلومات التي تلت الحرب العالميّة الثانية لم توضع بعد في متناول القرّاء.

٢ - نشرات غرف التجارة في ساحل العاج: حيث ذُكر اللبنانيّون تحت اسم السوريّين في عدّة محاضر بين عامي ١٩١٠ - ١٩٢٤، وتتضمّن هذه المحاضر شكاوى وتظلّمات من أجل تنظيم إقامة الغرباء الأسيويّين "المصنّفين مثل الأوروبيّين"، في أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة. تبنّت غرفة التجارة هذا الحلّ بالإجماع[١]

٣ - أرشيف سفارة لبنان في ساحل العاج، القائمة منذ استقلال ساحل العاج عام ١٩٦٠.

٤ - أرشيف فرع الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم، الذي تأسّس في ساحل العاج، في آذار ١٩٦٧.

١- نشرة غرفة التجارة أبيدجان - محضر جلسة ٢٤ آذار ١٩٢٤، ملفّ ٢٤(٥٦٧).

٥ - مقالات نشرت باللغتين العربيّة والفرنسيّة.

أ - مجلاّت ومقالات باللغة الفرنسيّة:

- صلاح الدين البيطار[٢]، **المسيحيّون والمسلمون.** لوموند، ٢١ أيلول ١٩٧٦، ص ٧.
- رينيه شاربونّو **اللبنانيّون - السوريّون في أفريقيا السوداء.** المجلّة الفرنسيّة للدراسات السياسيّة الأفريقيّة، العدد رقم ٢٦ شباط ١٩٦٨.
- **الجالية اللبنانيّة، وجود فاعل.** مجلّة أفريقيا - الصناعة، العدد ٢٩١ (أوّل كانون الثاني ١٩٨٤) ص ٣٢ - ٣٨.
- مصطفى دياباتيه **النموذج العاجيّ للتنمية.** الملاحق الجامعيّة - أبيدجان - شعبة ف (اتنولوجيا) ت. ف. ١٩٧٣.
- هاريس ميمل فوتيه **الإتنيّة والتاريخ، في معرض تاريخ أدجوكرو الثقافيّ.** الملاحق الجامعيّة - أبيدجان، شعبة ف (اتنو - سوسيولوجيا). ت. ٧، ١٩٧٨.
- فرنسوا هوتيه **ملفّ متفجّر لثلاثمائة ألف لبنانيّ**، فيغارو ١٤، ١٠، ١٩٨٥.
- كاميسوكو غاوسّو **ساحل العاج ولبنانيّوها**، مجلّة أفريكا، العدد ٨٣.
- **اللبنانيّون في ساحل العاج: وزن اقتصاديّ مؤكّد**، مجلّة ايفوار ديمانش، العدد ٦٩٥، تاريخ ٣ حزيران ١٩٨٤.
- **اللبنانيّون في أفريقيا: طفيليّون أم عوامل تطوّر**، صوت أفريقيا، العدد ٢٤، تشرين الأوّل ١٩٧٦.
- **خطر الغرباء**، أفريكا، العدد ١٦٩، شباط ١٩٨٥، ص ٢٥ - ٢٨.
- ندياي موماركيبي **ما نفع اللبنانيّين**، أفريقيا الفتيّة - اقتصاد، العدد رقم ٧، تاريخ نيسان ١٩٨٢، ص ٤١.
- جان كلود بومونتي، **ساحل العاج، وطن اللبنانيّين المختار**، لوموند ١٩٨٤.
- **ماذا نفعل بالمغتربين؟** أفريقيا الفتيّة، العدد رقم ٩٢٢، ٦ أيلول ١٩٧٨، ص ٢٥.

٢- رئيس حكومة سابق في الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

- **تحت عنوان التقشّف**، حديث عمدة أبيدجان الجديد إلى عبد العزيز دهماني في مجلة أفريقيا الفتيّة، العدد عدد ١٣١٩، ١٦ نيسان ١٩٨٦، ص ٣٨.
- آلان تيرفور، **اللبنانيّ المنتج أو غير المحبوب**، (دراسة الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج المنخفض فيما بين الحربين)، مجلّة معهد التاريخ والفنّ والآثار الأفريقيّة، أبيدجان، العدد رقم ٧، سنة ١٩٨١، ص ٥٩.

ب - مقالات نشرت بالعربيّة

- فيليب حتّي **أنطونيوس البشعلاني**، مقتطف من كتاب (المغترب السوري الأوّل إلى العالَم الجديد)، نيويورك، ص ٣٩.
- حافظ إبراهيم خيرالله **هل يصدق حلم الإصلاح الحقيقيّ في لبنان؟**، مجلّة الشرق الأوسط، ١٩ أيلول ١٩٨٤.
- سلُّوم مكرزل، **تاريخ التجارة السوريّة في مَواطن الهجرة في أميركا**، الجزء الأوّل ١٩٢٠ - ١٩٢١، نيويورك، ١٩٢٩، مقدّمة الدكتور فيليب حتّي، ص ٥ إلى ١٠.
- عبد السلام العجيلي، **نحن جيل الطنبور**، مجلّة الدوحة ١٩٨٢، العدد رقم ٧٩، ص ٢٢ - ٢٣.
- يوسف إبراهيم يزبك، **مأساة القوافل البشريّة المهاجرة ...**، بيروت ١٩٢٩، مطبعة المصباح، ٤٥ صفحة.

مؤلَّفات باللغتين الفرنسيّة والعربيّة

أ - مؤلّفات باللغة الفرنسيّة

- سليم عبو، **الهويّة الثقافيّة**، منشورات أنثروبوس، ١٩٨١ باريس.
- سليم عبو، **لبنان المقتلَع**، أرض البشر، بلون، ١٩٧٨، ٦٥٣ صفحة.
- جوزف أشقر، **اللبنانيّون في أفريقيا الغربيّة والعالَم**، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٧٣، ٢٢٦ صفحة.
- إيمّانويل أفيس، **ساحل العاج**

- جورج بالاندييه، **أفريقيا الغامضة**، أرض البشر، بلون، باريس ١٩٧٧، ٤٠١ صفحة.
- بوتيليه ج.ل.و.ج. كوس **إستقصاء حول مستوى المعيشة في ساحل العاج**، ضمن "استقصاءات حول مستوى المعيشة العائليّة".
- رينيه شاموسي، **وقائع حرب، لبنان ١٩٧٥ - ١٩٧٧**، ديسكليه باريس، ١٩٧٨، ٢٨٠ صفحة.
- ميشال شيحا، **لبنان اليوم**، منشورات تريدان، بيروت ١٩٤٩.
- علي كوليبالي، **الاستخدام في منشآت ساحل العاج اللبنانيّة - السوريّة**، تحليل وثائقيّ، المكتب الوطنيّ للتنشئة المهنيّة، حزيران ١٩٧٨، ٢٧ صفحة.
- جوزيف كيوك، **المسلمون في أفريقيا**، منشورات ميزوناف ولاروز، باريس، ١٩٧٥.
- هوغيث دوتريا: **الاستفتاء**، منهج العلوم الإنسانيّة، أعمال ميدانيّة، معهد العلوم الإنسانيّة المطبّقة، جامعة بوردو .II وهذا كتاب يهدف إلى التدريب على إعداد الاستمارة في ميدان العلوم الإنسانيّة، وخاصّة عِلم الاجتماع.
- ريمون دلفال: **مسلمو أبيدجان**، المؤسّسة الوطنيّة للعلوم السياسيّة، مركز الدراسات العليا حول أفريقيا وآسيا الحديثة، باريس، ١٩٨١.
- لويس دولّو: **الهجرات البشريّة**، المطبوعات الجامعيّة في فرنسا، الطبعة الخامسة، باريس ١٩٧٠، ١٢٦ ص.
- معين حدّاد: **لبنان: البيئة والسكّان**، بيروت، يونيبرنتنغ برس، ١٩٨١، ٣٤٧ صفحة.
- حسّان جمعة: **مشاكل الطلاّب اللبنانيّين في جامعة بوردو للعام ١٩٧٨ - ١٩٧٩؛** دبلوم الدراسات المعمّقة في التربية. بوردو، حزيران ١٩٧٩.
- بول مارتي: **دراسات حول الإسلام في ساحل العاج**، سلسلة مجلّة العالَم الإسلاميّ، منشورات ارنست لورو، باريس ١٩٢٢، ٤٩٦ صفحة.
- جاك نانتيه: **تاريخ لبنان**، المقدّمة بقلم فرنسوا مورياك منشورات مينوي ١٩٨٣، ٣٥٨ صفحة.

- ناكي بوازو: **اللبنانيّون في ساحل العاج**، بحث في علم الاجتماع رسالة كفاءة. جامعة أبيدجان، ٩١ صفحة.
- كوامي نغيسّان: **العاملون الغرباء ومستقبل اقتصاد ساحل العاج.**
- رسالة كفاءة، معهد عِلم الاجتماع البشريّ، جامعة أبيدجان، ١٩٧٤ - ١٩٧٥، ٦٤ صفحة.
- جوناثان راندل: **حرب الألف عام**، غراسّيه، فرنسا ١٩٨٤، ٣٢٤ صفحة.
- إيلي صفا: **الهجرة اللبنانيّة**، أُطروحة دكتوراه، حلقة ثالثة، جامعة القدّيس يوسف، كلّية الحقوق والعلوم الاقتصاديّة، بيروت ١٩٦٠، ٣٠٣ صفحات.
- آلان تيرفور: **الزمن الطيب.** أُطروحة دكتوراه حلقة ثالثة. معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعيّة. باريس ١٩٧٩، في جزأين: ٣٣٨ و١٨١ صفحة.
- عبدو توريه: **الحضارة اليوميّة في ساحل العاج** (قضيّة التغريب). كارتالا، باريس ١٩٨١، ٢٧٩ صفحة.
- فيفيانا باك **شعوب أفريقيا** سلسلة دراسات. بورداس ١٩٧٤، ١٢٧ صفحة.
- سليمان سالّ: **الإسلام في غران بسّام ومنطقة الغابات في ساحل العاج.** بحث كفاءة جامعة باريس I، ١٩٧٧، ٥١ صفحة.
- بيير فالّو: **لبنان على فوهة البندقيّة**، هاشيت، باريس ١٩٧٦، ١٩٦ صفحة.

ب - مؤلّفات باللغة العربيّة

- عوض شعبان: **الآفاق البعيدة**، دار النهار بيروت، ١٩٧٩، ٢٦٥ صفحة.
- غازي حاج: **الإسلام في أفريقيا السوداء بين عامي ٨٥٠ - ١٩٠٠.** رسالة كفاءة في التاريخ؛ كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت ١٩٨٣، ١٧٥ صفحة.
- فيليب حتّي: **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.** ترجمة جورج حدّاد رافق عبد الكريم. دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨، المجلّد الأوّل، ٤٥٢ صفحة.
- كامل مروّه: **نحن في أفريقيا**، دار المكشوف، بيروت، تشرين الثاني ١٩٣٨.

ج - مراجع عامّة

أطلس وموسوعات

- **أطلس القارّة الأفريقيّة.** منشورات أفريقيا الفتيّة، باب ساحل العاج الصفحات (١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧)، ١٩٧٣، ٣٣٥ صفحة.
- **موسوعة لاروس الكبيرة،** ١٩٧٣، باب "ساحل العاج"، ص ٣٣٩٤ - ٣٣٩٨.
- **أنسيكلوبيديا "أونيفرساليس"،** ١٩٦٨، المجلّد الخامس "باب ساحل العاج"، الصفحات ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢.
- **موسوعة بورداس للتاريخ.** ميشال موريّه. ١٩٧٨، سبعة أجزاء، ٤٨٩٤ صفحة.
- **أنسيكلوبيديا "أونيفرساليس"،** ١٩٧١. المجلّد التاسع، باب "لبنان"، الصفحات (٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣) ١١٠٤ صفحات.
- **الوجيز الحديث في جغرافية ساحل العاج (CEDA)** أبيدجان ١٩٨٣، ٢٤ صفحة.
- إدارة معهد الإحصاء في أبيدجان. نشرة رقم ٩٥ **منهجيّة الاستقصاء حول الميزانيّة العائليّة،** المجلّد الخامس، ١٤٠ص.

فهرس الجداول

جدول رقم ١:
توَزّع الجالية وفقًا لمناطق الانتماء الجغرافيّ.

جدول رقم ٢:
توَزّع الجالية وفقًا للمهنة.

جدول رقم ٣:
توَزّع الجالية وفقًا للعمر والجنس.

جدول رقم ٤:
توَزّع الجالية وفقًا للوضع العائليّ والجنس.

جدول رقم ٤ مكرّر:
توَزّع المتزوّجين وفقًا لتابعية الزوج.

جدول رقم ٥:
توَزّع الديانات وفقًا للوضع العائليّ.

جدول رقم ٦:
توَزّع الجالية وفقًا لمناطق الانتماء الجغرافيّ.

جدول رقم ٧:
توَزّع الجالية وفقًا للمستوى التعليميّ.

جدول رقم ٨:
توَزّع الجالية وفقًا للمستوى التعليميّ ومنطقة الانتماء الجغرافي.

جدول رقم ٩:
توَزّع الجالية تبعًا للطوائف ومناطق الانتماء الجغرافيّ.

جدول رقم ١٠ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا للجنس والطائفة.

جدول رقم ١١ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمناطق الانتماء ودوافع الاغتراب.

جدول رقم ١٢ :

تَوَزُّع المعنيّين بالاستقصاء تبعًا لمدّة الإقامة.

جدول رقم ١٣ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمراحل الوصول إلى ساحل العاج.

البنية النفسيّة - الاجتماعيّة - الاقتصاديّة

جدول رقم ١٤ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة وطبيعة الصعوبات التي سبّبتها الحرب.

جدول رقم ١٥ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة وحالة القلق على الوطن الأُمّ.

جدول رقم ١٦ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا للمشاعر النفسيّة والسنّ.

جدول رقم ١٧ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا للمستوى التعليميّ والاهتمام بشؤون ساحل العاج.

جدول رقم ١٨ :

تَوَزُّع الآراء حول الاغتراب.

جدول رقم ١٩ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة والرأي في الحياة الاجتماعيّة.

جدول رقم ٢٠ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة والرأي في سفارة لبنان في ساحل العاج.

جدول رقم ٢١ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة والرأي في الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالَم.

جدول رقم ٢٢ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمدّة الإقامة والرأي في الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج.

جدول رقم ٢٣ :

تَوَزُّع المستخدمين تبعًا لمدّة الإقامة ورأيهم في أرباب العمل.

جدول رقم ٢٤ :

تَوَزُّع ذوي الطلاّب تبعًا للصعوبات التي يواجهها أولادهم في المدارس.

جدول رقم ٢٥ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا لمهنة الأصدقاء ومناطق انتمائهم.

جدول رقم ٢٦ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا للمهنة والوضع الماليّ بالمقارنة مع الوضع السابق في لبنان.

جدول رقم ٢٧ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا للمهنة في لبنان ثمّ في ساحل العاج.

جدول رقم ٢٨ :

تَوَزُّع الجالية تبعًا للمهنة الأساسيّة في الوطن الأُمّ وفي البلد المضيف.

جدول رقم ٢٩ :

تَوَزُّع التجّار العاملين لحسابهم الخاصّ تبعًا لمدّة الإقامة وعدد مستخدميهم.

جدول رقم ٣٠ :

تَوَزُّع المستأجِرين تبعًا لعدد الغرف في منازلهم ومدّة إقامتهم في ساحل العاج.

فهرس الخرائط الجغرافيّة

مصوّر رقم ١:
خارطة المناطق المناخيّة في لبنان. ١٨

مصوّر رقم ٢:
خارطة التقسيمات الإداريّة في لبنان. ٢٠

مصوّر رقم ٣:
خارطة المناطق الزراعيّة في لبنان. ٢٦

مصوّر رقم ٤:
ساحل العاج: خارطة المناطق المناخيّة. ٣٤

مصوّر رقم ٥:
خارطة مدينة أبيدجان ٣٨

مصوّر رقم ٦:
ساحل العاج: خارطة المدن الرئيسيّة قبل العام ١٩٨٠. ٤٠

مصوّر رقم ٧:
خارطة المحافظات والأقضية في ساحل العاج. ٤٤

مصوّر رقم ٨:
خارطة انتشار اللبنانيّين في أفريقيا الغربيّة والوسطى. ٧٠

مصوّر رقم ٩:
خارطة الانتماء الجغرافيّ للبنانيّين في أبيدجان (١٩٤٥ - ١٩٦٠). ٨٢

المحتوى

إهداء ٧

مقدّمة ٩

الفصل الأوّل
الأُسس النظريّة للدراسة ١٥

الفصل الثاني
الهجرة ٥٣

الفصل الثالث
وصول اللبنانيّين إلى ساحل العاج ٧٥

الفصل الرابع
إضاءة على تاريخ الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج ٨٧

الفصل الخامس
وضع الجالية اللبنانيّة اليوم (١٩٨٥) ١٠١

الفصل السادس
نتائج الجداول البيانيّة: الانتماء الجغرافيّ، المستوى التعليميّ، الديانة،
بواعث الاغتراب، مدّة الإقامة ١٤١

الفصل السابع
ظروف المعيشة والمشكلات الشخصيّة، والاجتماعيّة والاقتصاديّة ١٥٧
الفصل الثامن
خلاصة البحث النظريّ والاستقصاء الميدانيّ ١٩٥
مراجع البحث المحلّلة ٢٠٥
فهرس الجداول ٢١٣
فهرس الخرائط الجغرافيّة ٢١٧

اللبنانيّون في ساحل العاج (١٩٠٠-١٩٨٦)

يتمحور هذا الكتاب حول الهجرة اللبنانيّة إلى ساحل العاج من منطلق الانتماء الجغرافيّ، والأحوال المعيشيّة، وطرق التأقلم الاقتصاديّ والاجتماعيّ والدينيّ. فهو، بعد التعريف بلبنان وبساحل العاج، يسلّط الضوء على تاريخ التوجّه اللبنانيّ صوب أفريقيا وبواعثه، وعلى خصائص الهجرة إلى ساحل العاج تحديدًا، وما كان من نجاحات أو إعاقات أو تنوّعات في مختلف وجوه الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وبالتالي تأثير الحرب اللبنانيّة أخيرًا فيها.

والكتاب معزّز بجداول إحصائيّة حول الانتماء الجغرافيّ والدينيّ، والمستوى التعليميّ والمعيشيّ، والمشاركة في النهضة العمرانيّة والتنمية العامّة، فضلاً عن البواعث والتنوّعات. وهو يخلص إلى طرح اقتراحات عمليّة، لتعزيز وضعيّة هذه الهجرة، وبالتالي العلاقات الثنائيّة بين لبنان وساحل العاج.

الكتاب، في الأساس، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع البشريّ - الاتنيّ. وهو بمثابة حلقة تاريخيّة مهمّة في سلسلة الأبحاث في الانتشار اللبنانيّ عمومًا، وفي أفريقيا فساحل العاج خصوصًا.

This book: **Lebanese in Ivory Coast,** centers on the Lebanese emigration to the Ivory Coast from the perspective of geographic belonging, living conditions, and economic, social and religious adaptation. Following an introduction on Lebanon and the Ivory Coast, the book sheds light on the history and circumstances of emigration to Africa in general and the characteristics of this emigration to the Ivory Coast in particular. The book emphasizes the successes achieved and the obstacles faced by the Lebanese whether in the economic, social or political arenas; it also addresses the impact of the Lebanese war on the Lebanese community in the Ivory Coast.

The book is supported by statistical tables concerning geographic and religious attachment, as well as the level of education, the living conditions, and the participation in the prosperity and development of the county. The book ends with recommendations to support this emigrant community and to strengthen bilateral relations between Lebanon and the Ivory Coast.

The book was originally a Ph.D. dissertation in sociological ethnography and is considered an important historical source for studying Lebanese emigration in general and Lebanese emigration to Africa and the Ivory Coast in particular.

صدر للمؤلّفة

باللغة الفرنسيّة:

١ - اللبنانيّون في ساحل العاج بين الأمس واليوم ١٩٨٨ .

٢ - دراسة مقارنة لمكانة المرأة العربية قبل الإسلام وبعده.

٣ - دراسة مقارنة لشعر الخنساء وليلى الأخيَليّة.

باللغة العربيّة:

١ - "**مجامر الحنين**"، مجموعة شعريّة، ١٩٩٣ .

٢ - "**مياسم النّوى**"، مجموعة شعريّة، ١٩٩٩ .

صدر في السلسلة

- **The Impact of the Summer 2006 War on Migration in Lebanon: Emigration, Re-Migration, Evacuation and Return,**
  Guita G. Hourani, 2006.
- **Lebanese Migrants in Brazil: An Annotated Bibliography,**
  Roberto Khatlab, 2005.
- **Lebanese Migrants in Australia and New Zealand: An Annotated Bibliography,**
  Paul Tabar, 2004.

«إعترضت سبيل هذا البحث صعوبات جمّة، إنْ على الصعيد النظريّ أو على الصعيد العمليّ. ولا يسعنا إلاَّ أن نقرّ بأنّ كاتبة هذا البحث قد تخطّت تلك الصعوبات وتغلّبت عليها، وتوصّلت إلى تحقيق هدفها المرجوّ بوجوهه الثلاثة: أولها يتمثّل في العودة بنا إلى جذور الهجرة اللبنانيّة، وثانيها في تحديد أسبابها ونتائجها بصورة موضوعيّة، وللمرّة الأولى في هذا الموضوع، لإعطاء صورة صادقة تعكس الوضع الراهن للمهاجرين، وثالثها بحثها الوافي لكلّ جوانب هذه الظاهرة وانعكاساتها. وفي مطلق الأحوال فهي لم تتهرّب من مجابهة الحالات الصعبة، بل واجهتها بجرأة، وأشارت إلى مكمن الداء في محاولة لوصف العلاج الملائم له. ونخلص إلى القول: إنّ الهجرة اللبنانيّة إلى ساحل العاج هي نموذج ناجح في ميدان العلاقات بين الغرباء الوافدين والسكّان الأصليّين. إنّ السيّدة دنيا فيّاض طعّان سوف تتيح من خلال بحثها هذا، تحسين روح التعاون وتفعيلها بين شريكي التنمية في ساحل العاج ...»

جان بواربيه

أستاذ محاضر في جامعة نيس

وعضو أصيل في أكاديميّة العلوم لما وراء البحار بجامعة باريس

«عافاك اللّه، يا سيّدة طعّان، من أجل قرارِك نشرَ هذا البحث، الذي سيكون مرجعًا قيّمًا، ليس على مستوى الجامعيّين فحسب، وإنّما سيكون، وأَمَلي كبير في ذلك، منهلاً لرجال السياسة وللأجيال القادمة، حتّى يصبح كوكب الأرض مرفأً للسّلام والأخوّة والمحبّة...»

الدكتور غولام بيرَا

المستشار الخاصّ لرئاسة الجمهوريّة في ساحل العاج،

عضو أكاديميّة العلوم في نيويورك

«بالخبرة الوُثقى والقلم الأكاديمي الرصين كتبت الدكتورة دنيا فياض طعان هذا السِفر الموثّق عن لبنان في ساحل العاج، فأضافت الى ملحمة الإغتراب اللبناني فصلاً جديدًا مُضيئًا على صورة الأمبراطورية اللبنانية التي لا تغيب عنها الشمس. وما أحوجنا - خُصوصًا عند نقش الذاكرة اللبنانية في الزمان - الى عقول تزرع مجد لبنان الحضارة في بلدان الحضارة. شكرًا للدكتورة دنيا فياض طعان على جهدها البيّن في هذا السِفر القيّم، ولنا معها مواعيد مقبلة على كل مُشرق من لبنان المُشرق».

السفير فؤاد الترك

«إنطلقت الدكتورة طعان في كتابها هذا راسمة «ساغا» اللبنانيين في ساحل العاج منذ العام ١٩٠٠ حتّى منتصف العقد الثامن من القرن الماضي ولم تحصر بحثها في موضوعها الأساس بل توسّعت الى الهجرة اللبنانية عمومًا، باسطةً شعاع المعرفة على بلادها الأم وعلى ساحلِ العاج. وانفردت الى التبسّط في «عبقرية» الهجرة اللبنانية وما لها من بصمات جلِى على تلقيح المجتمعات التي انصهرت فيها بالخصوصية اللبنانيّة، راسمةً مروحةً تفصيلية مضنية الدقة للنواحي الإقتصادية والإجتماعية عادت منها بحصيلة مشرّفة، ما يجعل من الكتاب مرجعًا اكاديميًا رصينًا لهذه «الملحمة» الكبرى. يعصم الدكتورة دنيا عن كل شطط، كونها ابنة شاعر من الأرومة اللبنانيّة السنديانية. فسعيد فيّاض من كبارنا في الشعر واللبنانية. ويعصمها أن تكون ناقشت أطروحتها في جامعة كبرى مشهود لرقيّها. ويعصمها أخيرًا أنّها مؤمنة بلبنان الرسالة الحضاريّة إلى العالم. فمن هذا التحدّي كتاب دنيا طعّان. شكرًا لأناملها التي خطّت، ولعقلها اللبنانيّ النقيّ...»

هنري زغيب

شاعر لبنانيّ

مركز دراسات الانتشار اللبنانيّ
Lebanese Emigration Research Center

ISBN 978-9953-457-62-8